جــان جــاك روســو

ترجمة: جلال الدين سعيد
محمد محجوب



مــقـــالات

في العلوم والفنون
في الاقتصاد السياسي
في أصل اللغات





جان جاك روسّو

مقــــــالات




مكتبة
الفكر الجديد

جان جاك روسّو

مقــــــالات

في العلوم والفنون

في الاقتصاد السياسي

في أصل اللغات

ترجمة ومراجعة

جلال الدّين سعيد - محمد محجوب







مـقـــالات

Jean-Jacques Rousseau
Dicours sur les sciences et les arts
Discours sur l'économie politique
Essai sur l'origine des langues

تأليف: جان جاك روسّو
ترجمة: جلال الدين سعيد-محمد محجوب
عدد الصفحات: 184
قياس الصفحة: 24X17 سم

تاريخ الطبعة: 2017م
رقم الطبعة: الثانية
التصنيف الموضوعي: 170
الترقيم الدولي: 978-614-8030-35-2



مؤسسة مؤمنون بلا حدود
للدراسات والأبحاث
المملكة المغربية - الرباط - أكدال
تقاطع زنقة بهت وشارع فال ولد عمير
ص.ب 10569
هاتف: 537779954 212+
فاكس: 537778827 212+
Email: info@mominoun.com
www.mominoun.com

وزارة
الشؤون الثقافية
معهد تونس للترجمة
37، شارع الحرية - 1002 - تونس
هاتف: 71833153 216+
71833179 216+
فاكس: 71833073 216+
Email: tarjamah@itrat.nat.tn
www.itrat.nat.tn

مؤمنون بلا حدود
للنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع المقدسي - بناء بلبيسي
ص.ب 6306-113
هاتف: 1747422 961+
فاكس: 1747433 961+
Email: publishing@mominoun.com
www.mominoun.com







توطئة

في شــهر أكتوبر من سنة 1749، بينما كان ‹روسّــو› في طريقه إلى «ديدرو› لزيارتــه في الســجن، اطّلع في صحيفــة **مركيـر دي فرانـس** (Le Mercure de France) علــى مناظرة أقامتهــا أكادمية **ديجون** هذا نصّها : **هل سـاعد النهوض بالعلـوم والفنـون علـى تهذيب الأخلاق** ؟ فانتابه حماس شــديد وأقــرّ العزم على المشــاركة بمقالٍ قدّمه للأكادمية في مــارس 1950، وفاز بالجائزة في جويلية 1750، ثمّ تــمّ نشر المقال في شهر جانفي من سنة 1751.

ويتمحور طرح ‹روسّــو› في هذا المقال، كما تتمحور أعماله عموما، حول فكرة الفســاد الذي أصاب الطبيعة الإنســانية بســبب الحضارة والتقدّم. وليس **المقال في العلوم والفنون** مجرّد دراسة فلسفية تحليلية بقدر ما هو دعوى شديدة اللّهجة أقامها صاحبها ضدّ الحضارة وضدّ التقدّم. فالعلوم والفنون لم تسهم في ســعادة الإنسان بقدر ما أسهمت في أحزانه وشــقائه وتعاسته. اللّهم إلاّ إذا كنّا نرى السعادة في الرخاء والرفاه، والحال أنّ الرخاء والرفاه لا يحقّقان السعادة إلاّ في الظاهر، بل هما يشــوّهانها ويزيّفانها، باعتبار أنّ سعادة الكائن إنّما تكمن في كماله، وكماله إنّما هو في تحقيقه لطبيعته وكيانه.

وفي مقاله هذا، يبيّن ‹روسّــو› أنّ ما أطلقت عليه **أنوار** القرن الثامن عشر اسم **التقــدّم** لا يعدو فــي الحقيقة أن يكون انحطاطا عن الطبيعة الإنســانية الأولى. وهاهنا يقف ‹روسّــو› ضدّ تيّار أصبح مألوفا في عصره : فالموســوعيون وغيرهم من الفلاســفة والأدبــاء والفنّانين وحتّى رجالات الدّين قد رســخت في أذهاهم فكرة التقدّم بما هو السبيل الوحيد إلى إسعاد الإنسان، بينما لا ينفكّ ‹روسّو›



يؤكّد على التناقض القائم بين السعادة والتقدّم، وعلى معارضة الثقافة والحضارة والتقـدّم للطبيعـة عموما ولطبيعة الإنســان وفضيلته بوجه خــاص. ولقد اعتمد «روسّــو»، في مواجهته لفكــرة التقدّم المفعمة بالتفاؤل وكما روّجها فلاســفة الأنوار، حججا استمدّها من التاريخ عموما : تاريخ **روما وأثينا** العريقتين، وتارخ **الصّين والقسطنطينية وبلاد فارس**، إلخ ؛ وحججا أخرى اســتخلصها من العقل المبين : ما للعلوم والفنون من اســتتباعات وخيمة على حياة الإنســان، من هدرٍ لطاقاتــه وأوقاته في نشــاطات غير نافعة، ومن تمييع لقدراته ومجهوداته بســبب الفراغ والترف، ومن إفسادٍ لمختلف فضائل طبيعته الأصلية.

بيْد أنّ «روسّــو»، علــى الرغم من موقفه من العلوم والفنــون، لم يفكّر في إلغائها أبدا ولا في إنكار ما أســهمت به في بناء مجتمع الإنسان. قال صاحبنا متحدّثا عن نفســه في كتابه **روسّــو حاكمـا على جان جـاك** : «لقد أصرّوا على اتّهامه بالسـعي إلــى تحطيم العلــوم والفنون والمســارح والأكادميات والنكــوص بالعالــم كلّــه إلى حالــة التوحّش الأولــى، والحــال أنّه، على العكــس من ذلك، ما فتئ يؤكّد على ضرورة المحافظة على المؤسســات القائمة، لأنّ تحطيمها قد يزيل المسكّنات ولا يقضي على العيوب، وقد يزيل الفساد ويعوّضه باللّصوصية»[1]. ولهذا نجده يُنهي مقاله بنبرة لا تخلو من الأمل والتفاؤل، إذ يرى أنّ القضاء على العيوب المترتبة عن العلوم والفنون، أو على الأقل الوقوف دون اســتمرار هذه العيــوب وتفاقمها، أمر جائز إذا ما تكفّلت الأكادميــات العلمية والأدبية، الآخذة في الازدهار في عصره، بدور المراقب المنظّــم والموجّه للإنتاجات العلمية والأدبية والفنّيــة، كي تؤتي ثمارها حقّا وكيلا تؤذي بعض ثمارها الفاسدة العفّة والفضيلة.

* * *

حين توثّقت أواصر الصداقة بين «روسّــو» و«ديدرو»، طلب منه هذا الأخير أن يُســهم في **الموسـوعة**، التي كان يشــرف على إعدادها بالاشتراك مع «دالمبيــر»، ببعض المقالات في الموســيقى، فاســتجاب لطلبه وأســهم أيضا

1- J.- J. Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, 3ème dialogue.



بمقال عن **الاقتصاد السياسي** ألّفه وقدّمه سنة 1755 وتمّ نشره في المجلّد الخامس من **الموسوعة**.

ولقد بدا هذا المقال في الأوّل غريبا عن اهتمامات «روسّو» الرئيسية وواقعا تحت تأثير «ديدرو»، فتمّ إغفاله طويلا، رغم الفائدة الجمّة التي يمكن استخلاصها منه، باعتبار ما يتطرّق إليه من عناصر جوهريّة في مذهب «روسّو» عموما. ففيه نجد ركيزتين أساسيتين من ركائز فكر «روسّو»، هما فكرة الإرادة العامّة (La volonté générale)، وفكرة الحُكم والتدبير (Le gouvernement) التي ينبغي تمييزها عن فكرة السيادة (La souveraineté). وفضلا عن نشوء فكرة الإرادة العامة وتكوّنها لدى «روسّو»، يقدّم هذا المقال تصوّرًا دقيقا وفهماً مميَّزا للاقتصاد السياسي، في سياق الجدل الذي كان قائما في القرن الثامن عشر، ولا سيّما على إثر ما شهدته **فرنسا** من هيجان وشغب بسبب ارتفاع أسعار القموح وما ترتّب عنه من ارتفاع مشطّ للضرائب. وقد لا نبتعد عن الصواب إذا أكّدنا على راهنية هذا المقال، باعتبار العلاقة التي أثبتها «روسّو» بين تدبير الأشياء وتدبير النّاس، كالعلاقة مثلا بين التربية العمومية أوالحميّة الوطنية من جهة، والملكية الفردية ورفع الضرائب من جهة ثانية.

* * *

اعتمدنا في ترجمة هذين المقالين على طبعات مختلفة، لكن المصدر الأساسي لأعمال «روسّو» الكاملة هو طبعة **غاليمار**، مكتبة **لابلياد**، حيث توجد كتابات «روسّو» السياسية في المجلّد الثالث من هذه الطبعة :

Jean-Jacques Rousseau, *Œuvres complètes*, 5 tomes, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, de 1959 à 1995.

ولقد ميّزنا في **المقال حول العلوم والفنون** بين هوامش المؤلّف وهوامشنا الخاصة. أمّا **المقال في الاقتصاد السياسي** فهوامشه كلّها من وضعنا.

جلال الدين سعيد




مكتبة
الفكر الجديد

ج. ج. روسّو

مقال في العلوم والفنون

ترجمة : جلال الدّين سعيد




مكتبة
الفكر الجديد

جان جاك روسّو

المقال الفائز بالجائزة

بمجمع ديجون

عام 1750

حول المسألة التي طرحها المجمع ذاته :

عمّا إذا كان النهوض بالعلوم والفنون قد ساعد على تهذيب الأخلاق.

Barbarus hic ego sum quia non intelligor illis, Ovid.[1]

1- «**وهاهنا أوصفُ بالمتوحّش، لأنّ أحدًا لا يفهمني**» : هذه الشاهدة مأخوذة من كتاب **الأحزان** للشاعر اللاتيني ‹أوفيد› (عاش من 43 ق.م. إلى 17 ب.م.)، (Ovide, *Tristes*, Livre 5, Elégie 10) (المترجم).




مكتبة
الفكر الجديد

تنبيه

ما هي الشــهرة ؟ ها هو الكتاب المشؤوم الذي أدين له بها ؛ ولا شكّ أنّ هذه الورقة التي أكسـبتني جائزة وأذاعت صيتي إنّما هي في أحسن الأحوال رديئـة، بل لا أخشـى أن أقول إنّهـا دون ما يوجد في كامل هـذا المصنّف. كم من المصائب والبلاوي كان بوسـع المؤلـف أن يتجنّبها لو قوبل تأليفه هـذا الأوّل بقدر ما يسـتحقّ ليس أكثر ؟ لكن كُتب لـي، بعد حُظوة غير مستحقّة، أن أصبح مستهدفا تدريجيا بقسوةٍ غير مستحقّة هي الأخرى.




مكتبة
الفكر الجديد

توطئة

هاهي مسألة من أعظم المسائل المطروحة وأجملها. فالأمر لا يتعلق في هذا **المقال** بتلك الدقائق الميتافيزيقية التي تكتسح كلّ أقسام الأدب ولا تخلو منها برامج المجمع دائما؛ بل يتعلق بإحدى الحقائق المرتبطة بسعادة الجنس البشري.

أتوقّع أنّ الموقف الذي تجرّأت على أخذه لن يُغفر لي بسهولة؛ إذ بعدما جابهت كلّ ما يُعجب له النّاس اليوم، ما بقي لي إلاّ أن أترقّب توبيخا عامّا. وإنّ ما لقيته لدى بعض الحكماء من كرم المساندة لا ينبغي أن يجعلني أعوّل على موافقة الجمهور لي. ولذا فقد قرّ قراري: فأنا لا أعبأ بنيل إعجاب ذوي العقول الظريفة ولا ذوي الأذواق المطابقة لذوق العصر. فالعصور كلّها تشهد أناسا تغريهم آراء عصرهم وبلدهم ومجتمعهم؛ وقد ترى بعضهم يتفلسف اليوم ويتبجح بفكره العميق، بينما لو كان في زمن **العُصبة**[1] لاعتُبر لهذا السبب بالذات مجرّد متزمّت عنيد. لا يجب أن نكتب لمثل هؤلاء القرّاء أبدا إذا كنّا نبغي العيش فيما بعد عصرنا.

كلمة أخرى وأنتهي. فبما أنّ أمَلي لم يكن عظيما في نيل هذا الشرف، فإنّي بعدما أرسلتُ هذا المقال أعدتُ كتابته وأضفت إليه، حتى أنّه أصبح بوجه ما عبارة عن كتاب آخر؛ ورأيت أنّه من واجبي اليوم أن

1- La Ligue : تُسمّى أيضا **العُصبة الكاثوليكية أو العُصبة المقدّسة**، وهي جماعة من الكاثوليكيين تكوّنت سنة 1576 وأسّست حزبا متطرّفا يرمي قبل كلّ شيء إلى محاربة البروتستانتية والقضاء عليها. (المترجم)



أعيــده إلى الحالة التــي كان عليها لماّ فاز بالجائــزة. لقد ألحقت به فقط بعض الملاحظات، كما تركت إضافتين يســهل تبيّنهمــا، لعلّ المجمع كان سيرفضهما لو اطّلع عليهما. رأيت أنّ هذا التنبيه يطلبه منّي الإنصاف والاحترام والامتنان.



المقال

Decipimur specie recti[1].

هل ساهم النهوض بالعلوم والفنون في تهذيب الأخلاق أم في إفسادها؟ هذا هو المطلوب تأمّله. فما هو الموقف الذي ينبغي أن أتّخذه في هذه المسألة؟ إنّه، يا سادتي، موقف الرجل الصالح الذي لئن قلّ علمه فإنّه لم يقلّ مع ذلك اعتباره لنفسه.

سيكون من الصعب، هذا ما أشعر به، أن ألائم بين رأيي ورأي المحكمة التي أمثل أمامها. إذ كيف أجرؤ على شجب العلوم أمام أحد أكثر المجامع علمًا في **أوروبا**، وعلى امتداح الجهل وسط **مجمع** مرموق، وعلى التوفيق بين ازدراء الدراسة من جهة وإجلال العلماء الحقيقيين من جهة ثانية ؟ لقد انتبهت إلى هذه التناقضات، إلاّ أنّها لم تحبطني، إذ قلت في نفسي: إنّ ما أفعله ليس التنكيل بالعلم، بل هو الذود عن الفضيلة بمحضر أناس فضلاء. فالنزاهة أعزّ عند الرجال الصالحين من سعة العلم عند الحكماء. فما الذي سأخشاه إذن ؟ أهي أنوار المجلس الذي يصغي إليّ ؟ بلى؛ لكن ما أخشاه يتعلّق بتركيب الخطاب، وليس بمشاعر الخطيب. فالملوك العادلون لم يترددوا أبدا في التكفير عن ذنوبهم على إثر مناقشات مريبة؛ وإنّ أفضل وضع لبروز الحقّ هو عندما يدافع المرء عن نفسه ضدّ خصم نزيه مستنير، يكون هو الحاكم والخصم.

1- «**قد يغرّنا ما يظهر بمظهر الخير**» : هذه قولة مأثورة للشاعر اللاتيني ‹هوراسيوس› (عاش من 65 ق.م إلى 8 ق.م.)، مأخوذة من كتابه **فنّ الشعر**، البيت 25 (Horace, *Art poétique*, vers 25) (المترجم).



وفضــلا عن هــذا الباعث الذي يشــجّعني، ثمة عامل آخــر يعقد عزمي: إذ بعدمــا عهدت الأمر إلى نور عقلي الطبيعي وانتصرت للحقيقة، فمهما كانت درجة نجاحي سيُكتب لي الفوز بجائزة، وسأجدها في صميم فؤادي.



الباب الأوّل

إنّه لمشــهد جميل وعظيم، مشــهد الإنســان وهو يتخرّج من العدم بفضل مجهوده الشـخصي؛ ويبدّد بتور عقله الظلمات التي لفّتــه بها الطبيعة؛ ويرتقي فيتجاوز ذاته؛ ويندفع بفكره حتى المناطق السماوية؛ ويخترق بخطى عملاقة، كالشــمس، فضاء الكون الشاسع؛ ويعود إلى ذاته، وهو أمر أعظم وأصعب، ليدرس الإنســان ويعــرف طبيعته وواجباتــه وغايته. إنّ كلّ هــذه الروائع قد تجددت منذ أجيال قليلة.

فـ**أوروبا** قد انتكست وعاودها توحّش العصور البدائية. وكانت شعوب هذا الجزء من العالم، المســتنير اليوم غاية الاســتنارة، تعيش حالة أدهى من الجهالة. لا أدري أي رطانة علميّة، مقرفة أكثر من الجهالة نفســها، انتحلت اسم المعرفة ورفعت أمام عودتها حاجزا يكاد يكون منيعا. كان لا بدّ من ثورةٍ كي يعود النّاس إلى المعنى الشــائع ؛ وجــاءت الثورة أخيرا من حيث لم تكن تُرتقب بالمرّة. فالـمُســلم الأحمق، ذلك الآفة المزمنة للآداب، هو الذي أنهضها بيننا مجدّدا. وإنّ سقوط عرش **قنسطنطين**[1] قد حمل إلى إيطاليا حطام يونان القديمة. وبدورها استثمرت فرنسا تلك الغنائم النفيسة. وسرعان ما نسجت العلوم على منوال الآداب؛ فاقترن فنّ التفكير بفنّ الكتابة؛ وهذا التــدرّج في ظاهــره غريب، لكن لعلّــه طبيعي جدّا؛ ثمّ استُشــعرت الفائدة

1- Constantin : «قنســطنطين الأول» (27 فيفــري 272 – 22 ماي 337) هــو إمبراطور روماني يُعرف أيضا باسم قنسطنطين العظيم. ولقد مثّل حُكمه نقطة تحوّل في تاريخ المسيحية، إذ أصدر عام 313 **مرسوم ميلانـو** الذي أعلن فيه إلغــاء العقوبات المفروضة على من يعتنق المســيحية وبذلك أنهى فتــرة اضطهاد المســيحيين ؛ كما يُعتبر **قنسـطنطين** أوّل إمبراطور روماني اعتنق الديانة المســيحية. (المترجم)



الرئيسية التي يمكن جنيها من مخالطة ربّات الفنّ، إذ تجعل النّاس أكثر أنسا وألفة، وتبعث فيهم الرغبة في التودّد بعضهم إلى بعض بأعمال جديرة باستحسانهم المتبادل.

للفكر حاجاته، كما للجسد. فحاجات الجسد هي أسس المجتمع، وحاجات الفكر هي مباهجه. وبينما تسهر السلطة الحاكمة وتسهر والقوانين على أمن النّاس المجتمعين ورفاههم، فإنّ العلوم والآداب والفنون، إذ هي أقلّ استبدادا وربّما أكثر قدرة، تنشر أكاليل من الزهور على القيود الحديدية التي تكبّلهم، وتقتل فيهم الشعور بالحرية الأصلية التي كان يبدو أنّهم وُلدوا من أجلها، وتجعلهم يعشقون عبوديتهم وتؤلّف منهم ما يُسمّى شعوبًا متحضّرةً. على الحاجة قامت العروش، وأمّا الفنون والعلوم فهي التي دعّمتها. أيا سلاطين الأرض، أحبّوا المواهب واحموا من يدعمها[1]؛ أيّتها الشعوب المتحضّرة، اصقليها أنت؛ ويا معشر العبيد السعداء، أنتم مدينون لها بذلك الذوق الرفيع المرهف الذي به تفخرون، وبذلك الطبع اللطيف وتلك الأخلاق المهذّبة التي تجعل التعامل بينكم في غاية المرونة واليسر؛ وباختصار، بما تبدونه من مظاهر الفضيلة وأنتم لا تملكون منها شيئا.

فبهذا النوع من الأدب، إذ يكون محمودا بقدر ما يكون محتشما، تميّزت **أثينا** و**روما** فيما مضى، أيّام عظمتهما ومآثرهما المنشودة: ولا شكّ أنّه هو الذي سيجعل عصرنا وأمّتنا يتفوّقان على كلّ العصور وكلّ الشعوب. نبرةٌ فلسفية خالية من التحذلق، أسلوبٌ طبيعي ولكن ودود، على مسافة واحدة من خشونة الجرمانيين ومن إيمائية سكّان ما وراء جبال **الآلب**[2]: تلك هي ثمار الذوق المكتسب بالدراسة الموفّقة والمكتمل بمخالطة النّاس.

1- يطيب للأمراء دائما أن يروا الفنون الممتعة والسفاسف غير المكلفة للمال تنتشر بين رعاياهم؛ إذ فضلا عن تنشئتهم هكذا على دناءة جديرة بالعبيد، فهم يعلمون جيّدا أنّ الرعايا كلّما عظمت حاجياتهم، عظمت القيود التي تكبّلهم. فلمّا أراد «الإسكندر» إبقاء **أكلة الحوت** تحت سيطرته، منعهم من الصّيد في البحر وأرغمهم على تناول الأطعمة المألوفة لدى عامّة الشعوب؛ أمّا شعوب **أمريكا** المتوحّشة، إذ كانت تسير عارية ولا تقتات إلاّ ممّا يوفّره لها صيدها، فإنّ أحدا لم يستطع إخضاعها أبدا، إذ أيّ قيد سنقيّد به أناسا لا حاجة لهم إطلاقا ؟

2- المقصود بهم الإيطاليون. (المترجم)



كم يكون العيش بيننا هنيئا، لو كانت الهيئة الخارجية تعكس دائما استعدادات القلب، والحياء هو الفضيلة، ومبادئنا هي قواعد أعمالنا، والفلسفة الحق لا تنفصل عن لقب الفيلسوف. إلاّ أنّه يندر جدّا أن تجتمع خصال كهذه معًا، كما أنّ الفضيلة لا تظهر أبدا بمثل هذه الأبّهة. فثراء الزينة قد يدلّ على يُسر حال الإنسان، وأناقته على رفعة ذوقه ؛ أمّا الإنسان السليم القوي البنية فنتعرف عليه بعلامات أخرى : إنّ قوّة الجسد وشدّته تكمنان تحت ملابس الحرّاث الخشنة، وليس تحت حُليّ أهل البلاط. وليست الزينة أقلّ بُعدا عن الفضيلة بما هي قوّة النّفس ورباطة الجأش ؛ فالرجل الصالح شأنه شأن لاعب القوى الذي يحبّذ أن يصارع عاريا : إنّه يزدري مظاهر الزينة الحقيرة تلك التي قد تعوق استخدامه لقواه، والتي لم يقع اختراع أغلبها إلاّ لإخفاء تشوّهٍ ما.

قبل أن يهذّب الفنّ سلوكنا وأن يعلّم أهواءنا التعبير بلغة متصنّعة، كانت أخلاقنا خشنة، ولكنّها كانت طبيعية؛ وكان اختلاف الطرائق يشير مباشرة إلى اختلاف الطبائع. وفي واقع الأمر، لم تكن طبيعة الإنسان طبيعة أفضل؛ غير أنّ النّاس كانوا يشعرون بالأمان في سهولة التعارف والتخالط، وكانت هذه الميزة، التي لم نعد نشعر بقيمتها، تجنّبهم الكثير من الرذائل.

اليوم وقد تمّ اختزال فنّ الكياسة في جملة من المبادئ، بفضل بحوث أدقّ وذوق أرفع، أضحت أخلاقنا متماثلة بصورة خدّاعة دنيئة، وتبدو الأذهان كلّها كأنّما رُميت في قالب واحد : فمتطلبات الأدب لا تنتهي، وأوامر اللياقة لا تنقطع؛ ولا ينفكّ المرء ينصاع للمألوف، بدل اتّباع نبوغه الشخصي؛ إنّه لا يجرؤ على الظهور بوجهه الحقيقي؛ وفي خضمّ هذا الضغط المستمرّ، ترى النّاس، إذ يؤلّفون ذلك القطيع الذي يطلق عليه اسم المجتمع، كلّما وجدوا أنفسهم في نفس الظروف أقدموا على نفس السلوك، إلاّ إذا منعتهم عوامل أقوى. وهكذا لن يدرك المرء حقّا مع من يتعامل فيحتاج، كي يميّز صديقه، إلى انتظار المناسبات الكبرى، أي إلى انتظار فوات الأوان، لأنّ ما كان مطلوبا هو معرفته قبل هذه المناسبات بالذات.



أيّ موكب من الرذائل سيصحب حالة الارتياب هذه ؟ لم يعُد في الصداقة إخلاص، ولم يعُد يوجد تقدير حقيقي، ولا من هو جدير بالثقة. لن تنفكّ مشاعر الظنون والاستياء والخشية والبرودة والتحفّظ والكره والخيانة تتستّر وراء لحاف التربية المتجانس الخدّاع، ووراء الأدب والكياسة اللذين أنعمت علينا بهما أنوار عصرنا فطالما تفاخرنا. لم نعد نكفر بنعمة ربّ الكون بقدر ما أصبحنا نسبّه سبّا، دون أن تنجرح بذلك آذاننا المصيخة الحائرة. لم نعد نفخر بقيمتنا الشخصية بقدر ما نسعى إلى الحطّ من قيمة غيرنا. ولم نعد نحتقر عدوّنا ونهينه بفظاظة بقدر ما نغتابه ونفتري عليه الكذب بمهارة. ولئن خمدت كراهيتنا القومية فقد حلّ محلّها حبّ الوطن. واحتقارنا للجهالة عوّضته ريبيّة خطيرة. بعض التجاوزات حُرّمت، وبعض الرذائل قُبّحت، لكن بعضها الآخر مُنح وسام الفضيلة؛ فلا مناص من اكتسابها أو تصنّعها. فليمدح من أراد زهد حكماء الزمان، أمّا أنا فلا أرى في ذلك إلاّ تفنّنا في الشراهة لا يستحقّ مديحي مثلما لا تستحقّه بساطتهم الخادعة[1].

هذا ما كسبته أخلاقنا من صفاء؛ وهكذا أصبحنا من الصالحين؛ وعلى الآداب والعلوم والفنون أن تطالب بما يعود لها فيما تمّ إنجازه من خلاص. أضيف فكرة واحدة: وهي أنّ الأجنبيّ الذي ينتمي إلى منطقة نائية ويريد أن يكوّن فكرة عن الطبائع الأوروبية، حول مدى تقدّم العلوم في ربوعنا، وكمال فنوننا، ولياقة عروضنا، وكياسة سلوكنا، وحفاوة أحاديثنا، ودأبنا المستمرّ على إظهار اللطف في المعاملة، وذلك التزاحم الصاخب لكلّ من هبّ ودبّ من مختلف الأعمار والأحوال لإتيان المعروف إلى بعضهم بعضا من الفجر إلى الغروب، هذا الأجنبيّ سيلمح في طبائعنا تماما عكس ما هي عليه في الواقع.

حيث لا يوجد معلول، لا جدوى من البحث عن العلّة؛ بيْد أنّ المعلول هنا ثابت، والتفسّخ حقيقي، وأنفسنا ازدادت فسادا بقدر ما ازدادت علومنا وفنوننا

1- قال «متاني» : «أحبّ أن أجادل وأخاطب، لكن بحضور قلّة من النّاس ووقوفا على ما أريد ؛ لأنّ الاستهداف لنظر الأكابر والتبجّح بالذكاء والغطرسة، فهذا في رأيي شغل لا يليق برجل شريف». إنّه شغل كلّ أدبائنا الظرفاء، ما عدا واحدا.



كمالا. أيقول بعضهم إنّها نكبة خاصة بعصرنا ؟ كلاّ، يا سادتي؛ فالشرور الناجمة عن فضولنا الباطل إنّما هي قديمة قدم العالم. إنّ الارتفاع اليومي لمياه البحر وانخفاضها لا يرتبطان بدوران الفلك الذي يضيئنا في الليل ارتباطا أشدّ من ارتباط مصير الأخلاق والنزاهة بتقدّم العلوم والفنون. فكلّما سطع نورهما في الأفق، شوهد أفول الفضيلة، ونفس الظاهرة تكررت في كلّ زمان وكلّ مكان.

انظروا إلى **مصر**، مدرسة الكون الأولى، هذا المناخ الخصيب تحت السماء الفولاذية، هذه المنطقة الشهيرة من حيث انطلق ‹سيزستريس›[1] قديمًا لغزو العالم. فهي قد احتضنت الفلسفة والفنون الجميلة، فما لبثت أن تعرّضت لغزو ‹قمبيز›[2]، ثمّ لغزو اليونانيين، ثمّ الرومانيين، فالعرب، وأخيرا الأتراك.

انظروا إلى **يونان**، إذ كان يسكنها في القديم أبطال انتصروا على **آسيا** مرّتين، الأولى أمام **طروادة** والثانية في عقر ديارهم. فالآداب الناشئة لم تُدخل الفساد بعدُ في قلوب أهاليها؛ غير أنّه سرعان ما تتابع فيها عن قرب تقدّم الفنون، وانحلال الأخلاق، والخضوع لنير ‹المقدوني›[3]. تواصل العلم فيها، واستمرّت شهواتها، وطالت عبوديتها، فلم تعُد ثوراتها أكثر من تغيير لأسيادها. ولم تفلح أبدا فصاحة ‹ديمستين›[4] في إنعاش جسم أوهنته الفنون وأضعفه الترف.

1- ‹سيزستريس› Sésostris : أحد فراعنة مصر القديمة. (المترجم)

2- ‹قمبيز› Cambyse : أحد ملوك الإمبراطورية الفارسية (مات في 522 ق.م.) اشتهر خاصّة بغزوته لمصر. (المترجم)

3- ‹إسكندر المقدوني› Alexandre de Macédoine : (عاش من 356 ق.م. إلى 323 ق.م.) كان ملكا لـ**مقدونيا** ولُقّب بـ‹الإسكندر العظيم›؛ وهو أحد أشهر الغزاة الذين عرفهم التاريخ. (المترجم)

4- ‹ديمستين› Démosthène : (عاش من 384 ق.م. إلى 322 ق.م.) رجل سياسة أثيني، غير أنّه اشتهر كخطيب وعالم في البلاغة. (المترجم)



أمّا **روما**، وقد أسّسها أحد الرعاة واشتهرت بالفلاّحين، فقد بدأ انحطاطها أيّام ‹إنيوس› و‹تيرانس›[1]. ولمّا جاء ‹أوفيد› و‹كاتول› و‹مارسيال›[2] وتلك الجماعة من المؤلّفين الفاسقين الذين يكفي ذكر أسمائهم حتى يستنفر ذلك الحياء، أصبحت **روما**، بعدما كانت معبدا للفضيلة، مسرحا للجريمة ووصمة عارٍ بين الأمم ولعبة في أيدي الأجانب المتوحّشين. وأخيرا سقطت عاصمة العالم هذه تحت نير ما فرضته على الشعوب الأخرى منذ عقود، وكان سقوطها قبل يومٍ من فوز أحد مواطنيها بلقب الحَكم للذّوق السليم.

وماذا عساني أقول عن عاصمة الشرق تلك التي كادت بموضعها أن تصبح عاصمةً للعالم بأسره، عن ذلك المأوى للعلوم والفنون المحظورة (لحكمةٍ ما وليس ضربا في التوحّش) في باقي أرجاء **أوروبا**. فكلّ ما في الفسق والفجور من خزي، وما في الخيانة والاغتيال ودسّ السموم من قذارةٍ، وما في تفاقم الجرائم من بشاعةٍ، كلّ ذلك إنّما كان يؤلّف النسيج التاريخي **للقسطنطينية**. تلك هي العين الصافية منبع الأنوار التي يفخر بها عصرنا.

لكن لمَ البحث في غابر الزمان عن دلائل حقيقة ما تزال أماراتها أمام أعيننا. ففي **آسيا** يوجد قُطر شاسع حيث تحظى الآداب بشرف عظيم وتقود إلى أعلى المناصب في الدولة. فلو كانت العلوم تهذّب الأخلاق، وتحضّ النّاس على التضحية بدمائهم في سبيل الوطن، لو كانت تؤجّج الشعور بالشجاعة، لكانت شعوب **الصّين** شعوبا حكيمة حرّة لا تُهزم. لكن لمّا لم يكن ثمة من رذيلة إلاّ وهي فيهم، ولمّا كانت الجرائم عندهم مألوفةً، كما لم يقدر

1- ‹إنيوس› Ennius : (عاش من 239 ق. م. إلى 169 ق.م.) وُلد وعاش بـ**إيطاليا**، وبرع في اللغتين اليونانية واللاتينية. كان الشاعر الرسمي لمدينة روما، ويُنظر إليه على أنّه رائد الشعر اللاتيني.
ـ ‹تيرنس› Terence : شاعر وكوميدي لاتيني، وُلد بقرطاج سنة 190 ق.م. وتوفّي سنة 159 ق.م. كان عبدا لمستشار روماني أعجب بجماله ونبوغه فعلّمه وربّاه تربية إنسان حرّ ثمّ عتقه. (المترجم)

2- ‹أوفيد› Ovide : أحد أكبر الشعراء اللاتينيين، عاش من 43 ق.م. إلى 17 ب.م. له عدّة مؤلّفات، لعلّ أشهرها كتاب **فنّ العشق** *Ars amatoria*. (المترجم)
ـ ‹كاتول› Catulle : شاعر لاتيني وُلد سنة 87 ق.م. وتوفّي بـ**روما** سنة 54 ق.م. كانت حياته حياة عشق وفجور وحبٍّ مِثليّ.
ـ ‹مارسيال› Martial : هو ‹ماركوس فالريوس مارسياليس›، وهو شاعر لاتيني من أصل إسباني، عاش من 40 إلى 104 ب.م. (المترجم)



لا علم الوزراء، ولا حكمة الشرائع المزعومة، ولا حشود المتساكنين في تلك الربوع الشاسعة، على إقامة درعٍ يحمي من نير **التتاريّ**[1] الغليظ الجاهل، فبماذا أفادت تلك الإمبراطورية من علمائها ؟ وأيّ ثمرة جنتها ممّا أغدقت عليهم من الأمجاد ؟ أهو أنّها كانت موطنا للأشرار والعبيد ؟

لنقابل هذه المشاهد بمشهد طبائع تلك الشعوب القليلة التي، إذ احتمت من عدوى المعارف الباطلة، نجحت بواسطة فضائلها في تحصيل السعادة وكانت قدوة للأمم الأخرى. هكذا كانت **بلاد فارس** في الأوّل، أمّة فريدة من نوعها يتدرّب فيها المرء على كسب الفضيلة مثلما يتدرّب عندنا على كسب المعرفة؛ أمّة سيطرت بغاية السهولة على **آسيا**، وكان لها وحدها الشرف في أنّ تاريخ مؤسّساتها إنّما كان عبارة عن رواية فلسفية. هكذا كان **السيتيون**[2] الذين وصلتنا عنهم مدائح رائعة. وهكذا كان **الجرمانيون**[3]، كما وصفهم صاحبُ قلمٍ سئمَ من وصف جرائم وشناعات الشعوب المتعلّمة الغائرة في الرخاء والمتعة، فروّح عن نفسه برسم بساطتهم وبراءتهم وفضائلهم. وهكذا كانت **روما** حتى وقتما كانت جاهلة فقيرة. وهكذا بدت أخيرا، حتى أيّامنا هذه، تلك الأمّة البدويّة التي كان لها من البأس ما جعلها تتحدّى الشدائد ومن الإخلاص ما جعلها تقاوم الفساد والانحلال[4].

1- **التتار** Les Tartares : اسم عام يطلق على شعوب اكتسحت أجزاء من أسيا وأوروبا بزعامة **المَغول** في القرن الثالث عشر ميلادي. (المترجم)

2- **السيتيون** Les Scythes : شعوب رُحّل من أصل هندو- أوروبي عاشت فيما بين القرنين السابع ق.م. والثالث ق.م. (المترجم)

3- **الجرمانيون** Les Germains : شعوب هندو- أوروبية استقرّت بداية من القرن الأوّل بعد المسيح في أوروبا الشمالية (إسكندنافيا وشمال ألمانيا) (المترجم)

4- أكاد لا أجرؤ على ذكر تلك الأقوام السعيدة التي لا تعرف حتّى بالإسم الرذائل التي كم يصعب علينا كبحها، شعوب **أمريكا** المتوحّشة تلك التي لم يتردّد «منتاني» في تفضيل نظامها الطبيعي البسيط، لا فقط على قوانين «أفلاطون»، بل أيضا على كلّ ما قد تتخيّله الفلسفة أبدا من نظام حكم كامل للشعوب. لقد ذكر عددا من الأمثلة الهائلة لمن يقدر على تأمّلها؛ وقال: «بل ماذا ! إنّهم لا يحملون سراويل !»



فـإن فضّلت هـذه الأمم تمارين أخـرى على تمارين الفكـر، فإنّ ذلك لـم يكن لغباوتهـا؛ إذ كانت على علم بوجود أقطار أخرى يسـكنها أناس لا شـغل لهم في حياتهم سـوى التجادل حول الخير الأعظـم، وحول الفضيلة والرذيلـة، وأنّ بعض المتمحّكيـن المزهُوّين كانـوا لا ينفكّون يمدحون أنفسـهم ويطلقون باحتقار على كافة الشعوب الأخرى اسم **المتوحّشين**. إلاّ أنّ هذه الأمم أمعنت النظر في طبائعهم وتعوّدت على ازدراء مذهبهم[1].

وكيـف أغفل عن ذكـر تلك المدينة التي نشـأت في صلـب اليونان واشتهرت بجهلها السعيد بقدر ما اشتهرت بحكمة قوانينها، تلك الجمهورية الآهلة بأنصاف الآلهة أكثر منها بالبشـر، لفرط ما كانت فضائلها تبدو أرقى من فضائل الإنسـانية ؟ أيا **اسبرطة**! إنّما أنت إخزاءٌ أبديٌّ لمذهب باطل! فبينما كانـت الرذائل تتدلّف إلى **أثينـا** وتدخلها معا بقيادة الفنـون الجميلة، وبينما كان الطاغية يجمـع فيها بغاية العناية مؤلّفات أمير الشـعراء، كنتِ تقصين خارج جدرانك الفنون والفنانين، والعلوم والعلماء.

ما حـدث كان علامة على هذا التباين. فـ**أثينـا** قد أصبحت موطن اللّياقة والأدب والذوق السليم، وبلد الفلاسـفة والخطابيين؛ كانت عماراتها الأنيقة تعكس أناقة لغتها؛ وكنتَ في كلّ جهة ترى الرخام وقماش الرّسم تُحييهما أيادي أمهر الأسـاتذة. إنّ تلك الأعمال المدهشة التي أصبحت نماذج لكلّ عصور الانحطاط إنّما كان مصدرها **أثينا**. أمّا مشهد **لاكديمونيا**[2] فقد كان أقـلّ بريقا. فكما رُوي عنها، **كان النّاس فيها يولدون فضلاء، وكانت نسمة البلد ذاتها مُلهمة للفضيلة**. وإذ لم يصلنا عن سـكّانها سـوى ذكرى أعمالهم

1- لنتحـدّث بصدق، وليخبرني أحدكم عن رأي الأثينيين أنفسـهم في البلاغـة لمّا أقصوها تماما من تلك المحكمة النزيهة التي كانت الآلهة نفسـها لا تطعن في أحكامها ؟ وماذا كان رأي الرومانيين في الطبّ لمّا منعوه في جمهوريتهم ؟ وكيف كان تصوّر الإسـبانيين لفقه القضاء لمّا أقدموا، بما تبقّى من وازع الإنسانية عندهم، على منع رجال القانون من دخول **أمريكا**؟ لعلّهم ظنّوا بذلك إصلاح ما أمكن من الويلات التي ألحقوها بأولئك الهنود الأشقياء ؟

2- **لاكديمونيا** Lacédémone : هـي اسـم آخر **لإسبرطة**، وكانـت هي و**أثينا** مـن أعظم المدن السياسية في تاريخ **يونان** القديمة. (المترجم)



البطولية، فهلاّ تستحقّ مثل هذه المآثر في نظرنا ما يستحقّه الرخام العجيب الذي تركته لنا **أثينا**؟

صحيح أنّ بعض الحكماء قاوموا التيّار العام الجارف واحتموا من الرذيلة في محفل ربّات الفنّ؛ لكن لنستمع إلى الحكم الذي أطلقه أوّلهم وأشقاهم على العلماء والفنّانين في عصره.

قال: «تفحّصت الشعراء ورأيت فيهم أناسا أصحاب موهبة ووقار، يدّعون الحكمة ويُنظر إليهم على أنّهم حكماء، وهم في ذلك جادّون.»

«ومن الشعراء، فيما استطرد ‹سقراط›، انتقلتُ إلى الفنّانين. فلا أحد كان جاهلا للفنّ جهلي أنا؛ ولا أحد كان مقتنعا قناعتي أنا من امتلاك الفنّانين لأسرار جميلة للغاية. لكن تبيّنتُ أنّهم ليسوا أفضل وضعا من الشعراء، وأنّهم يقعون جميعا في نفس الأحكام المسبقة. إذ لمّا كان أكثرهم مهارة يتفوّقون في اختصاصهم، كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر النّاس حكمة. ولقد ثلم هذا الادّعاء علمهم تماما في نظري؛ بحيث تصوّرت نفسي مكان الكاهن وتساءلت عن أفضل وضع أرغبه، أهو وضعي أم وضعهم، أهو أن أعلم ما تعلّموه أم أن أعلم أنّي لا أعلم شيئا؛ أجبتُ نفسي وأجبتُ الإله فقلت: أريد أن أبقى أنا بحالي.

إنّي لا أعلم، ولا السوفسطائيون يعلمون، ولا الشعراء، ولا الخطابيون، ولا الفنّانون ما هو الحق والخير والجميل. لكن يوجد بيننا فرق، وهو أنّ هؤلاء، رغم أنّهم لا يعلمون، إلاّ أنّهم يظنّون كلّهم أنّهم يعلمون؛ بينما أنا، إذ لا أعلم شيئا، فإنّي على الأقلّ واثق من ذلك. بحيث إنّ كلّ ما نسبه لي الكاهن من تفوّقٍ في الحكمة إنّما يتمثّل في الاقتناع فقط بأنّي أجهلُ ما لا أعلمه».

هاهو إذًا أعظم النّاس حكمة في نظر الآلهة، وأشدّ الأثينيين رسوخا في العلم في اعتقاد بلاد **يونان** قاطبة، هاهو ذا ‹سقراط› بصدد تقريظ الجهل! أتظنّون أنّه لو بُعث من بين الأموات سينجح علماؤنا وفنّانونا في تغيير رأيه ؟ كلاّ يا سادتي، فهذا الرجل السديد لن يكفّ عن احتقار علومنا الباطلة، ولن



يساعد على تفاقم ذلك الحشد من الكتب التي تغمرنا من كلّ جانب، ولن يترك، هذا ما فعل، أيَّ قاعدةٍ لتلاميذه ولأحفادنا[1] غير فضيلته الشخصية أسوةً وذكرى. هكذا يكون تعليم الناشئة أمرا جميلا!

كانت البداية مع «سقراط» في **أثينا**؛ ثمّ واصل الشيخ «كاتون»[2] سَورته في **روما** ضدّ أولئك اليونانيين الماكرين المتحذلقين الذين أغووا الفضيلة وأخمدوا همّة مواطنيه. ومع ذلك فإنّ العلوم والفنون والجدل ما انفكّت تسود: إذ غصّت **روما** بالفلاسفة والخطابيين، وأُهمل الميدان العسكري، وحُقّرت الفلاحة، وتشيّع النّاس للطوائف وغفلوا عن الوطن. وعقِب المعاني المقدّسة للحرية والنزاهة وطاعة القوانين، جاءت أسماء «أبيقور» و«زينون» و«أرسزيلاس». كان فلاسفتهم أنفسهم يقولون: **مذ ظهر العلماء بيننا، اختفى الرجال الصالحون.** فحتّى ذلك العصر، اقتصر الرومانيون على ممارسة الفضيلة؛ ثمّ خسروا كلّ شيء يوم شرعوا في دراستها.

أيا «فابرسيوس»[3]! ماذا عسى أن يَخطر بروحك النبيلة لو بُعثتَ، لسوء حظّك، وشاهدتَ ما أصبح لـ**روما** من أبّهة وبذخ، بعدما أنقذتها بساعدك وأكسبتها بشرف اسمك من الشهرة أكثر ممّا كسبته بكلّ غزواتها؟ إذن لقلتَ: «إلاهي! أين هي سقوف القشّ تلك والأكواخ تلك حيث كان الاعتدال يقطن في الماضي وتسكن الفضيلة؟ أيّ رونقٍ نحس حلّ محلّ البساطة الرومانية؟ أيّ لغة غريبة هذه؟ أيّ طبائع متخنّثة هذه؟ ماذا تعني تلك التماثيل واللّوحات والعمارات؟ ماذا فعلتم، أيّها الأشقياء؟ أبعدما كنتم أسيادا على الأمم، جعلتم أنفسكم عبيدا للتافهين الذين قهرتم؟

1- نترجم كلمة Neveux بـ**أحفاد** (وليس بأبناء الأخ أو الأخت)، لأنّ هذا المعنى هو المقصود في اللغة الأدبية الكلاسيكية، وهو معنى متروك. (المترجم)

2- «كاتون» Caton: رجلُ دولة وكاتب روماني، عاش من 234 ق.م. إلى 149 ق.م.؛ شغل خطّة مراقب عام سنة 184 ق.م. وكان جادّا وقاسيا حتّى أنّه رُفع له تمثال نُقش عليه: «إلى «كاتون»، الذي هذّب الأخلاق». (المترجم)

3- «فابرسيوس» Fabricius: هو «كايوس فابرسيوس لوسينوس»؛ عاش في القرن الثالث ق.م.، وهو جنرال روماني اشتهر بفقره وشظف عيشه وزهده في الهدايا والثروات؛ ولقد ألّف «بلوتارخوس» (Plutarque) كتابا عن حياته. (المترجم)



أيحككم علماء البيان ؟ أسقيتم بدمائكم أراضي **يونان وآسيا** إثراءً للمهندسين المعماريين وللرسّامين والنحّاتين والممثّلين البهلوانيين ؟ أغنائم **قرطاج** هي فريسة عازف مزمار ؟ أيّها الرومانيون، أسرعوا بتهشيم تلك المدرّجات ؛ حطّموا ذلك الرخام ؛ أحرقوا تلك اللّوحات ؛ أطردوا أولئك العبيد الذين فتنوكم وبفنونهم المشؤومة أفسدوكم. دعوا المواهب الباطلة بين أيادي أخرى ؛ فالموهبة الوحيدة التي تجدر بـ**روما** إنّما هي غزو العالم ونشر الفضيلة. لمّا ظنّ ‹سينياس›[1] أنّ مجلس شيوخنا هو مجلس ملوك، لم يكن ذلك جرّاء انبهاره بالفخفخة الجوفاء ولا الأناقة المصطنعة. إنّه لم ينتصت قطّ إلى ترّهات الفصاحة تلك التي كان يتعلّمها ويتباهى بها التافهون من النّاس. فماذا شاهد إذًا ‹سينياس› من أمر عظيم ؟ أيّها المواطنون! إنّه رأى مشهدا يتعذّر على ثرواتكم وعلى فنونكم كلّها أن تقدّمه؛ إنّه أجمل مشهد ظهر على البسيطة، مجلس مائتين من الرجال الفاضلين الجديرين برئاسة **روما** والحكم في الأرض».

لكن لنتخطّ مسافة المكان والزمان، ولنتأمّل فيما حصل بأقطارنا وتحت أنظارنا؛ أو بالأحرى، لنُبعد عنّا رسوما قبيحة قد تؤذي رقّتنا، ولا نكلّف أنفسنا مشقّة تكرار نفس الأشياء بعناوين مختلفة. إنّي لم أستحضر روح ‹فابرسيوس› عبثًا؛ فماذا قوّلتُه، هذا الرجل العظيم، ممّا لا أستطيع أن أقوِّله لـ‹لويس الثاني عشر› أو ‹هنري الرابع› ؟ صحيح أنّ ‹سقراط›، لو كان يعيش بيننا، لما شرب سمّ الشوكران؛ لكن لشرب، في كأس أمرّ، السخرية المهينة واحتقارًا أسوأ من الموت أضعاف المرّات.

هكذا كان الترف والانحلال والعبودية، في كلّ زمان، جزاء للمجهود المزهوّ الذي قمنا به للخروج من الجهل السعيد الذي منّت به علينا الحكمة الأزلية. ولعلّ الستار السميك الذي أسدلته على كلّ أعمالها كان لغاية إعلامنا بأنّ قدَرنا ليس في تعاطي البحوث العقيمة. لكن هيهات! فهل استفدنا من درس من دروسها، أو أهملنا بعضها وسلمنا من مغبّة العقاب ؟ أيا شعوب، إعلمي مرّة واحدة أنّ الطبيعة أرادت أن تحفظكم من العلم،

1- ‹سينياس› Cynéas : كان مستشارا للملك ‹بيروس› (Pyrrhus) 272-318 ق.م. (المترجم)



كالأمّ التـي تفتكّ من يدي ابنها سـلاحا خطيـرا؛ وأنّ كلّ ما تخفيه من الأسرار إنّما هي شـرور تصونكم منها؛ وأنّ المشقّة التي تجدونها في طلب العلم ليسـت مـن أقلّ حسـناتها. إنّ النّاس ضالّون، فلو وُلدوا لسـوء حظّهم علماء، لكانوا أكثر ضلالا.

يـا لهـا من أفكار مخزية للإنسـانية ! يا خيبة كبريائنـا ! عجبًا ! أتكون النزاهة ابنة الجهل ؟ أيوجد تنافر بين العلم والفضيلة ؟ ماذا عسـانا نستنتج من هذه الأحكام المسـبقة ؟ لكن يكفي، للحـدّ من هذا التعارض الظاهري، أن نتأمّـل عن كثـب تفاهة وخواء تلك العناوين الفخمـة التي تبهرنا، والتي نمنحها جزافا للمعارف الإنسـانية. لنتأمّـل العلوم والفنون في ذاتها، ولنتبيّن ما يترتّب على تقدّمها، ولنعزم على الأخذ بكلّ الأمور التي نرى فيها تطابقا بين ما نستدلّ عليه وما يُستقرأ من التاريخ.



الباب الثاني

هناك رواية قديمة انتقلت من **مصر** إلى **اليونان**، تقول إنّ إلـهًا عدوًا لراحة النّاس هو مَن أبدع العلوم[1]. فماذا كان رأي المصريين أنفســهم في العلوم، إذ نشــأت عندهم، ســيّما أنّهم كانوا يطلّون من قرب على الينابيع التي أنتجتها؟ فســواء تصفّحنا حوليّات العالم أو اســتعضنا عن الأخبار المشــبوهة بالبحث الفلســفي، لن نجد للمعارف الإنســانية المصدر الذي ننتظره والذي يحلو لنا تصــوّره. فعلم الفلك إنّما نشــأ مــن الخرافة؛ والفصاحة نشــأت من الطموح والكراهية والتملّق والكذب؛ والهندســة من البخــل؛ والفيزياء من الفضول التافه؛ والعلوم كلّها، وحتّى الأخلاق، من كبرياء الإنسان. وعليه فإنّ العلوم والفنون تدين بنشأتها لرذائلنا: فلو كانت تدين لفضائلنا، لما تشكّكنا بهذا القدر فيما لها من الفوائد.

وإنّ عيب مصدرها قد ترك أثرا بليغا في موضوعاتها. فماذا نفعل بالفنون، مــن غير الترف الذي يغذّيها ؟ ومن غير ظلم النّــاس، فيم يفيد القضاء ؟ وماذا عســى أن يصبح التاريــخ، لو لم يوجــد لا طغاة ولا حــروب ولا متآمــرون ؟ وباختصار، من ســيفني حياته في التأمّــل العقيم، لو كان كلّ واحد لا يأتمر إلاّ بواجبات الإنسان وطلبات الطبيعة، فلا يجد وقتا لغير الوطن ولغير الأشقياء ولغيــر أصدقائــه ؟ فهل قُضي علينــا بالمــوت مقيّدين على شــفة البئر حيث

1- يسهل إدراك رمز أمثولة ‹بروميثيوس›؛ ويبدو أنّ اليونانيين، إذ سمّروه في **القوقاز**، لم يكن لديهم عنه فكرة أفضل ممّا كان للمصريين عن إلههم **توثوس**. تقول أســطورة قديمة: «أراد **الســتير** ضمّ النّار وتقبيلها عند رؤيته لها أوّل مرّة؛ لكن ناداه ‹بروميثيوس› محذّرا : أيّها **الســتير**، ســتبكي ضياع لحية ذقنك، لأنّ النّار إذا لمستها حرقتك». إنّه موضوع زُخرف مدخل البناء.



انسحبت الحقيقة ؟ إنّ مجرّد هذه الفكرة ينبغي أن تُخمِد، من الوهلة الأولى، همّة كلّ من يدأب على طلب العلم بتعاطي الفلسفة.

كم من المخاطر! كم من السّبل الباطلة في تقصّي العلم ! كم من الأخطاء ينبغي تخطّيها لبلوغ الحقيقة، أخطاء أخطر ألف مرّة ممّا تكون الحقيقة مفيدة ! فالخسارة واضحة؛ لأنّ الخطأ قابل لتركيبات لا محدودة؛ أمّا الحقيقة فوجه كيانها واحد. ثمّ من ذا الذي يبحث عنها بصدق ؟ وحتّى إن كان حازما في بحثه أيّما حزم، فما هي الأمارات التي تجعله واثقا منها؟ في غمر هذه الانطباعات المختلفة، ماذا عسى أن تكون قاعدة الحُكم فيها[1]؟ والأهمّ من هذا كلّه، فلو أسعفنا الحظّ وفزنا بها في النهاية، فمن منّا سيحسن استعمالها ؟

إذا كانت علومنا باطلة باعتبار موضوعها، فهي ضارّة باعتبار نتائجها. إنّها تنشأ في أوقات الفراغ، وبدورها تضيف إلى الفراغ فراغا؛ ولعلّ ما تتسبّب فيه من مضيعة للوقت دونما رجعة هو أوّل مضرّة تُلحقها بالمجتمع. إنّه شرّ عظيم، في السياسة كما في الأخلاق، أن لا نفعل الخير؛ وكلّ مواطن لا يُرجى منه نفع يمكن اعتباره مواطنا فاسدا. أجيبوني، أيا مشاهير الفلاسفة؛ أنتم من علّمتمونا أسباب تجاذب الأجسام في الخلاء؛ وما هي، في دوران الأفلاك، نِسب المساحات المقطوعة في أوقات متساوية؛ وأيّ منحنيات لها نقاط مترافقة، ونقاط انقلاب وتقهقر؛ وكيف يرى الإنسان جميع الأشياء في الربّ؛ وكيف يكون التطابق بين النّفس والجسم دونما اتّصال، كما يحدث بين ساعتين اثنتين؛ وأيّ الأفلاك يمكن إعمارها؛ وأيّ حشرات تتكاثر بصورة عجيبة. أجيبوني، يا من زوّدتمونا بهذا الكمّ من المعارف الجليلة؛ فلو لم تلقّنونا من هذه الأمور شيئا، أكنّا أقلّ نسلا، وأسوأ حُكما، وأقلّ هيبة، وأقلّ ازدهارا أو أكثر انحرافا ؟ جدّدوا النظر في أهمّية ما أنتجتم؛ فإذا كانت أعمال أنبغ علمائنا وأفضل مواطنينا لا تجدي نفعا كثيرا، فما

1- كلّما نقصت معرفتنا، زاد ادّعاؤنا لها أكثر. فهل كان المشّاؤون يشكّون في شيء ؟ ألم يصنع «ديكارت» الكون بمكعّبات ودوّامات ؟ وهل يوجد اليوم حتّى، في أوروبا، فيزيائي بسيط واحد لا يتجاسر على تفسير اللّغز العميق للكهرباء، وقد ييأس الفلاسفة الحقيقيون من تفسيره أبدا؟



بالكم بذلك الحشد من المؤلّفين الغامضين والمثقّفين العاطلين الذين يلتهمون لُبّ الدولة بدون أدنى تعويض.

أقلتُ عاطلين ؟ هيهات أن يكونوا عاطلين، كيما تصبح الأخلاق أقلّ فسادا والمجتمع أكثر سلاما ! غير أنّ هؤلاء المتشدّقين التافهين يهرعون في كلّ اتّجاه مسلّحين بمفارقاتهم المشؤومة، ينسفون العقيدة ويعدمون الفضيلة، يستخفّون بتلك العبارات البالية، كالوطن والدّين، ويكرّسون مواهبهم وفلسفتهم لتحطيم وإفساد كلّ المقدّسات؛ ليس لكونهم في الواقع يمقتون الفضيلة أو يكرهون عقائدنا، وإنّما لكونهم يقفون أعداءً للرّأي العام؛ فإذا شئتم عودتهم إلى الدّين الحنيف، يكفي تصنيفهم في عداد الملحدين. أيا هُيام التميّز، علامَ أنت قادر ؟

إنّ الإسراف في الوقت شرّ عظيم. وهناك شرور أخرى أعظم، تنتج عن الآداب والفنون؛ كالترف الذي ينشأ عن الفراغ والغرور؛ إذ يندر أن يوجد الترف في غياب العلوم والفنون، ومن المحال أن توجد العلوم والفنون بدون ترف. أعلم أنّ فلسفتنا، الخصبة على الدوام بالحِكم المأثورة، تزعم، ضدّ ما أثبتته التجربة في كلّ العصور، أنّ الترف زينة الدّول؛ لكن وبغضّ النظر عن وجوب القوانين المحدّدة للإنفاق في الكماليات، هل يمكنها أن تنكر أنّ الأخلاق الحسنة ضرورية لبقاء الدول العظمى، وأنّ الترف مناقض تماما للأخلاق الحميدة ؟ كون الترف هو علامة الثراء، بل كونه أيضا يزيد في الثراء: فماذا ينبغي استنتاجه من هذه المفارقة الجديرة بأيّامنا هذه ؟ وما هو مصير الفضيلة إذا وجب الإثراء مهما كان الثمن ؟ ما فتئ رجالات السياسة يتحدّثون في القديم عن الأخلاق والفضيلة؛ أمّا رجالاتنا نحن فلا يتحدّثون إلاّ عن التجارة والمال. يقول لك بعضهم إنّ رجلا ينتمي إلى قطر ما يساوي ثمنه الثمن الذي قد يباع به في مدينة الجزائر؛ وباتّباع هذا النمط من الحساب، يعلمك الآخر بوجود بلدان لا يساوي فيها الإنسان شيئا، وبلدان أخرى يساوي فيها أقلّ من صفر. إنّهم يقوّمون البشر كما لو كان البشر قطيعا من الماشية. وفي رأيهم أنّ قدر الإنسان في الدولة يكون بقدر ما يستهلكه. وهكذا فقد



تكون قيمة **السيباريسي**[1] الواحد بقدر ثلاثين **لاكديمونيا**[2]. فاحزروا إذن أيّ هاتين الجمهوريتين، **اسبرطة** أم **سيباريس**، وقعت تحت نير ثلّة من الفلاّحين، وأيّهما هزّت أركان **آسيا** وأرعدتها.

فسلطنة **سيروس**[3] قد تمّت الإطاحة بها بثلاثين ألف رجل من طرف أمير أفقر من أدنى مرازبة الفُرس؛ **والسيتيون**[4] تصدّوا، مع أنّهم أكثر الشعوب بؤسا، لأعظم الملوك في الكون. وتنافست جمهوريتان شهيرتان على رئاسة العالم، وكانت إحداهما ثريّة والأخرى لا تملك شيئا، فكانت الغلبة لهذه. والإمبراطورية الرومانية، بعدما التهمت كلّ الثروات في الكون، وقعت بدورها فريسة أناس لا يعلمون حتّى معنى الثراء. والفرنجيون فتحوا **بلاد الغال**، والسكسونيون **إنغلترا**، درعهم الوحيد في ذلك بسالتهم وفقرهم. وقهرت عُصبة من الجبليّين المساكين غير الطامعين في أكثر من بضعة جلود خرفان، غطرسة النّمساويين، وسحقت عرش **بُرغونيا** الثريّ الرهيب بعدما كان يزرع الرعب في قلوب طغاة **أوروبّا**. وأخيرا كسر نفر من صيّادي سمك الرنكة جناح خليفة «شارل كنت»، رغم ما كان يملكه من قدرة وحكمة عظيمتين تدعمهما كلّ ثروات **الهند**. ليتفضّل رجالات السياسة بتعليق حساباتهم وليتأمّلوا هذه الأمثلة، وليعلموا مرّةً أنّ بالمال يمكن كسب كلّ شيء، ما عدا الأخلاق والمواطنين.

ما المراد إذًا، على وجه التدقيق، من مسألة الترف هذه ؟ أهو معرفة ما إذا كانت الإمبراطوريات إنّما همّها الوحيد هو أن تكون متألّقة زائلة أم فاضلة دائمة ؟ لو قلتُ متألّقة، فبأيّ ألق ؟ إنّ الميل إلى البذخ والميل إلى الشرف لا

1- نسبة إلى **سيباريس** (Sybaris) وهي مدينة بجنوب **إيطاليا**، إحدى مستعمرات **يونان الكبرى** حوالي 720 ق.م. (المترجم)

2- نسبة إلى **لاكديمونيا**، أي **إسبرطة**. (المترجم)

3- «سيروس» Cyrus : هو مؤسس الإمبراطورية الفارسية ؛ عاش في القرن السادس قبل الميلاد. (المترجم)

4- **السيتيون** Les Scythes : شعوب رُحّل من أصل هندو- أوروبي عاشت فيما بين القرنين السابع ق.م. والثالث ق.م. (المترجم)



يقترنـان أبدا داخل نفس النّفوس. كلاّ، إذ من المحال أن ترتقي نفوس أذلّتها التّرّهات إلى أيّ أمر عظيم؛ وحتّى لو كانت لها القدرة، لأعوزتها الشجاعة.

يرغـب كلّ فنّـان في أن يهلّل له، ويعتبر مديـح معاصريه أثمن جزء في جائزته. فماذا عسـاه يفعل للفوز به لو شـاء حظّه النّحـس أن يولد بين أفراد شعب وفي عصر حيث أصبح العلماء عُملة جارية ويجعلون الشباب الطائش علـى مـا يُدرج عليه مـن الأمور؛ وحيث فـرّط الرجال في ذوقهم في سـبيل قاهـرات حرّيتهم[1]؛ حيث لا يجرؤ أحد الجنسـين علـى الأخذ إلاّ بما كان مناسـبا لمقدار الجبن لدى الآخر، فتسقط أعمال رائعة من الشعر المسرحي وآيات من الأنغام والألحان ؟ ماذا عسـاه يفعل، أيا سـادتي ؟ إنّه سيحطّ من نبوغه إلى مستوى عصره، وسيفضّل تأليف أعمال مبتذلة تجلب له الإعجاب والتقديـر وهو على قيد الحياة، على تأليف روائـع لا تنال إعجاب النّاس إلاّ طويـلا بعد مماتـه. أخبِرْنا، يا «عَرْوَت»[2] الشـهير، بكم مـن الفحولة وجمال الرجولة ضٍحّيت في سـبيل ظُرفنا المزيّف، وكـم من الأمور العظيمة فوَّتَ عنك الظُّرف الخصيب بالتّرّهات.

وهكذا يفضي فساد الأخلاق، إذ ينجرّ عن الترف بالضرورة، إلى فساد الذّوق.

أمّـا إذا شـاءت الأقدار أن يوجد من بيـن أفذاذ النّاس رجـل له من رباطة الجأش ما يجعله يرفض الانصياع لعبقرية عصره والحطّ من شـأنه الشـخصي بعرض إنتاجات سـخيفة، فالويل له ! سيظلّ فقيرا معوِزا حتى النهاية وسيدخل طيّ النسـيان. أيكون كلامي من قبيل التخمين وليس نقلا عن التجربة ! أيا

1- لا أعتقد أنّ ما للنّسـاء من نفوذ هو شـرّ في ذاته؛ بل هو هديّة أهدتها لهنّ الطبيعة من أجل سعادة بني الإنسـان: فإذا دُبّرت أمورهم بوجه أفضل، أنتجوا من الخير بقدر ما يقترفونه اليوم من الآثام. لا يوجد شعور كاف بالمزايا التي قد يغنمها المجتمع لو تمّ تقديم تربية أفضل لنصف الجنس البشري ذاك الـذي يحكم النصف الآخر. سـوف يفعل الرجـال دائما ما يروق للنّسـاء؛ ولذا فإن كنتم ترغبون في جعلهم عظاما وفضلاء، عليكم بتلقين النّساء معنى العظمة والفضيلة. إنّ التأمّلات التي يطرحها هذا الموضوع والتي تطرّق لها «أفلاطون» من قبل، تستحقّ الإسهاب، بقلم جدير بالكتابة، نسجًا على منوال معلم كهذا ودفاعا عن قضيّة عظيمة كهذه.

2- لا شكّ أنّ المشار إليه هنا هو «فرنسوا ماري عروت»، المسمّى «فُلتير» (François Marie Arouet, dit Voltaire). (المترجم)



«كارل»، أيا «بطرس»، لقد حان الأوان كي تسقط من بين أيديكم تلك الريشة التي جُعلت للإضافة إلى عظمة معابدنا بما ترسمه من صور مقدّسة جليلة، أو كي تؤجَّر لتزيين لافتات مقابلة برسوم شهوانية خليعة. وأنت يا منافس «براكسيتال»[1] و«فيدياس»[2]؛ فلو كان للقدامى مِنقاشك لاستخدموه في نقش آلهة ذات جمال يجعلنا نغفر لهم هُيامهم بها؛ يا «بيغال»[3] الفذّ، ستدأب يدك على تمليط بطن تمثال صيني، أو تظلّ عاطلة عن العمل.

لا يمكن التفكير في الأخلاق دون تذكّر العصور الأولى وبساطتها. إنّها ضفّة جميلة مزدانة بأصابع الطبيعة وحدها، نجيل إليها نظرنا باستمرار وندرك ابتعادنا عنها على مضض. لمّا كان النّاس الأبرياء الفضلاء يودّون أن تكون الآلهة شاهدة على أعمالهم، كانوا يسكنون في نفس الأكواخ معا؛ لكن حالما أصبحوا أشرارا، ملّوا من تلك الرقابة المعلقة عليهم فأقصوها وأسكنوها المعابد الرائعة، ثمّ ما لبثوا أن أطردوها منها وأقاموا فيها بأنفسهم، أو قلْ إنّه لم يعُد يوجد فرق بين معابد الآلهة ومساكن المواطنين. بلغ الفساد ذروته، وبلغت الرذائل حدّها الأقصى لمّا شوهدت في مدخل قصور الأكابر فوق أعمدة من المرمر منقوشة على تيجان كورنثية.

وبينما كانت مرافق الحياة تتزايد، والفنون تكتمل، والترف يمدّ أزره، كانت الشجاعة الحقّ تَوهن، والفضائل العسكرية تندثر، وإنّ هذا لعمري من استتباعات العلوم وكلّ تلك الفنون التي كانت تمارس في ظلمات المكاتب. لمّا عاث **القوط**[4] في بلاد اليونان فسادا، لم تنج المكتبات من النيران المضطرمة إلاّ بفضل رأي أشاعه بعضهم، مفاده أنّه ينبغي أن يُترك للعدوّ الأثاث والمعدّات التي قد تُلهيه عن الممارسات العسكرية وتبقيه منشغلا بتفاهات وسفاسف الحضر. أمّا «شارل الثامن» فقد أصبح سيّدا على **تسكانا** وعلى مملكة **نابولي** وكاد مع ذلك ألاّ يستلّ سيفه؛ وعزا كلّ أفراد

1- «براكسيتال» Praxitéle نحّات يوناني عاش بين حوالي 400 و326 ق.م. (المترجم)

2- «فيدياس» Phidias : نحّات يوناني عاش بين حوالي 490 و430 ق.م. (المترجم)

3- «بيغال» Jean-baptiste Pigalle : نحّات فرنسي ولد في 1714 وتوفّي في 1785. (المترجم)

4- **القوط** Les Goths : إحدى الشعوب الجرمانية القديمة. (المترجم)



حاشيته هذه السهولة غير المنتظرة إلى أنّ أمراء **إيطاليا** ونبلائها كانوا منشغلين بتطوير نبوغهم وعلمهم أكثر من تدرّبهم على الشدّة في الحرب. وبالفعل، كما قال الرجل الحصيف الذي نقل هذين الخبرين، تُعلّمنا كلّ الأمثلة أنّ في هذا الوضع من الحرب وفي كلّ الأوضاع المماثلة تكون العلوم صالحة لثبط العزائم وتخنيثها أكثر ممّا تكون حافزا على تقويتها وتنشيطها.

ولقد اعترف الرومانيون بأنّ الفضيلة الحربية بدأت تخمد عندهم بقدر مهارتهم في الرسوم والنقوش والأواني المصوغة، وبقدر إنمائهم للفنون الجميلة؛ وكما لو كان قد كُتب لبلدهم الشهير أن يكون عبرة مستمرّة للشعوب الأخرى، فإنّ صعود **المديسيس**[1] وعودة الآداب قد حطّا من جديد وربّما إلى الأبد من تلك السمعة في القتال التي كادت **إيطاليا** تستعيدها منذ قرون قليلة.

إنّ جمهوريات **يونان** العريقة، بحكمتها الساطعة في معظم مؤسّساتها، قد حرّمت على مواطنيها تعاطي تلك المهن الهانئة الساكنة إذ تضعف الجسم وتفسده ولا تلبث أن تصيب النّفس بالوهن. إذ بأيّ صدر سيتقبّل الجوعَ والعطشَ والمتاعب والمخاطر والموت، أولئك الذين يهنون لأدنى طلب وينفرون من تحمّل أيّ عبء ؟ وبأيّ شجاعة سيتحمّل الجنود أعمالاً شاقّة لم يعتادوها بالمرّة ؟ بأيّ حماس سيسيرون سيرا حثيثا بأمر ضبّاطٍ لا يقدرون حتى على السفر على صهوة فرس ؟ لا تعارضوني بحجّة ما أصبح عليه أولئك المحاربون العصريّون من بسالة وانضباط رائع. قد يجوز مدحهم على ما أبدوه من بأس في يوم قتال، لكن أنّى لهم أن يتحمّلوا مشقّة العمل وأن يقاوموا قسوة الطقس وتقلّبات الجوّ. إذ يكفي بعض حرارة الشمس أو بعض برودة الثلج ويكفي الحرمان من بعض الكماليات حتى تميع أفضل جيوشنا في أيّام قليلة وتصير حطاما. أيّها المقاتلون الشجعان، تحمّلوا مرّةً سماع حقيقة يندر أن تسمعوها؛ أنتم أصحاب بأس، هذا أعلمه؛ فلو كنتم مع ‹حنّبعل› لقاسمتموه النّصر في **كان** و**تراسيمان**؛ ولو كنتم مع ‹قيصر› لعبرتم سويّةً نهر

1- **الميديسيس** Médicis : عائلة كبيرة من مدينة **فلورنسا**، كان لها نفوذ عظيم في عصر النهضة الإيطالية (القرنان الخامس عشر والسادس عشر). (المترجم)



الروبيكون وأسرتم سكّان البلد؛ لكن ما كان للأوّل أن يجتاز جبال **الآلب** بمساعدتكم، وما كان للثاني أن ينتصر بفضلكم على أجدادكم.

لا يقدَّر نجاح الحرب دائما بالمعارك، بل يوجد في نظر كبار القادة فنّ أرقى من فنّ ربح المعارك. قد يركض بعضهم في اتّجاه النّار ببسالة، مع أنّه ضابط فاشل جدّا: فهو يحتاج كجنديّ إلى بعض القوّة والعنفوان أكثر منه إلى مثل هذا الإقدام الذي لا يحميه من الموت؛ وهل يهمّ الدولة أن يكون هلاك جيوشها بالحمّى والبرد أو بسيف العدوّ؟

إذا كانت الثقافة العلمية تضرّ بالخصال القتالية، فهي تضرّ بالخصال الأخلاقية أكثر؛ إذ منذ نعومة أظفارنا تعمل تربية حَمقاء على تجميل فكرنا وإفساد حُكمنا. إنّي أرى، حيثما أجلت النظر، منشآت ضخمة تتمّ فيها تربية الناشئة بنفقات باهظة من أجل تلقينها كلّ شيء ما عدا واجباتها. سيصبح أبناؤكم جاهلين للغتهم الخاصة، لكن سيتحدثون بلغات أخرى لم يعد النطق بها جاريا في أيّ مكان؛ وسيتعلّمون قول أبيات من الشعر لا يكادون يفقهون معناها؛ وعلاوة على عجزهم عن تمييز الصواب من الخطأ، سيمهرون في تشويه معالمهما بالشُّبهات؛ ولن يفقهوا معنى كلمات كهذه: الشهامة، الاعتدال، الإنسانية، الشجاعة؛ ولن يرنّ في آذانهم أبدا اسم الوطن الرقيق العذب؛ وإذا جاءهم خبر الله، سيولّد فيهم الشعور بالخوف أكثر منه بالخشوع والرهبة[1]. كان أحد الحكماء يقول: «أفضّل أن يقضّي تلميذي وقته في لعبة الراحة، فعلى الأقلّ سيكون جسمه على هيئة أحسن». أعلم أنّه لا بدّ من إلهاء الأطفال، وأنّ أخشى ما يُخشى عليهم هو الفراغ. فماذا يجب إذًا أن يتعلّموا ؟ هذا سؤال جيّد بالتأكيد ! ليتعلّموا ما يجب عمله في سنّ الكهولة[2]، لا ما يجب نسيانه.

1- خاطرة فلسفية.

2- هكذا كانت التربية لدى أهالي **إسبرطة**، على حدّ رواية أعظم ملوكهم. إنّه لأمر جدير بكلّ اعتبار أن يقع، كما قال «منتاني» - في ظلّ هذا النّظام المتميّز الذي أقامه «ليكورغ»* والذي كان في الحقيقة، من فرط كماله، نظاما بشعا، رغم ما أولاه من عناية بإطعام الأطفال كما بالمهمّة الرئيسية المناطة بعهدته، وذلك في عقر دار ربّات الفنّ - إغفال ذكر المذهب: كما لو كان المطلوب، نظرا لنفور هذه الناشئة الشهمة من كلّ سلطة أخرى، هو منحها، بدلا من أساتذة في



حدائقنا مزدانة بالتماثيل، وأروقتنا باللوحات الزيتية؛ ففي رأيكم ماذا تمثّل هذه الروائع الفنّية الحائزة على إعجاب الجمهور ؟ أتمثّل الذائدين عن الوطن؟ أم تمثّل رجالا أعظم منهم بما أغدقوه من الفضائل على الوطن ؟ كلاّ ! إنّها تقدّم صورا لضياع القلب والعقل، انتُقيت من الميثولوجيا القديمة وعُرضت مبكّرا على أطفالنا المتعطّشين للمعرفة؛ عُرضت عليهم بالتأكيد ليقفوا على نماذج من الأعمال القبيحة حتى قبل أن يحسنوا القراءة.

ما السّبب في كلّ هذه التجاوزات، إن لم يكن هو التفاوت النّحس الذي أقيم بين النّاس بتمييز المواهب وتقبيح الفضائل ؟ هذا ما نجنيه بالتأكيد من كلّ دراساتنا، وهذه أخطر النتائج المترتّبة عليها. فنحن لم نعد نسأل ما إذا كان الإنسان نزيها، بل نسأل عمّا إذا كان موهوبا؛ أو ما إذا كان الكتاب

العلم، أساتذة في الشجاعة والحصافة والعدل لا غير.
لنرى الآن كيف تحدّث نفس المؤلّف عن قدماء الفرس. قال: روى «أفلاطون» أنّ الابن البكر في نظام الخلافة عندهم كان يُربّى كما يلي؛ فهو لا يُسلّم عند الولادة للنّساء، بل يُسلّم لخصيانٍ ذوي منزلة مرموقة لدى الملك، لما يتحلّون به من الفضيلة، فيعتنون بجمال جسمه وسلامته، وعند بلوغه السابعة من العمر يدرّبونه على ركوب الخيل والذهاب إلى الصّيد، فإذا بلغ السنّ الرابعة عشر وضعوه بين أيدي أربعة من القوم: أوسعهم حكمة وأكثرهم عدلا وأشدّهم اعتدالا وأعظمهم شجاعة. كان الأوّل يعلّمه قواعد الإيمان، والثاني مبادئ الحقّ، وكان الثالث يدرّبه على كبح جشعه، والرابع على ألاّ يخشى شيئا. كانوا جميعا يسعون إلى جعله صالحا، ولا أحد إلى جعله عالما.

عن «كزينوفون»**، طلب «آستياج»*** من «سيروس» تقريرا عن آخر درس تلقّاه، فأجابه: في مدرستنا شابّ طويل القامة يملك لباسا ضيّقا فأعطاه لأحد أصحابه قصير القامة وأخذ منه لباسه الأوسع. فلمّا طلب منّي المعلّم أن أكون حكمًا في هذه القضيّة، حكمت بإبقاء الأمور على حالها، إذ بدا لي الوضع مناسبا لكلا الطرفين. فعاب عليّ المعلّم ذلك، إذ وقفت عند اعتبار ما يناسب من الأمور بينما كان الأجدى أن أكون خادما للعدل الذي يقتضي ألاّ يُجرّد أحد من أملاكه. وقال إنّه عوقب، مثلما نعاقَب نحن في قرانا عندما ننسى تصريف فعل يوناني في الماضي المبهم. قد يحتاج أساتذتي إلى خطب مملّة طويلة، على النمط الاستدلالي، قبل إقناعي بأنّ مدرستهم لا تقلّ قيمة عن تلك المدرسة.

[* «ليكورغ» Lycurgue : مشرّع إسبرطي قد يكون عاش في القرن التاسع ق.م. أو في بداية القرن الثامن ق.م.، إذ لا نملك عنه رواية ثابتة صحيحة. لكن تُنسب إليه عموما جملة تشريعات مدينة إسبرطة. (المترجم)

** «كزينوفون» Xénophon : فيلسوف ومؤرّخ ومحارب يوناني ولد حوالي 430 أو 426 ق.م. ومات حوالي 355 ق.م. (المترجم)

*** «آستياج» Astyage : هو آخر الملوك الميديين ؛ و«سيروس» Cyrus هو حفيده ؛ إلاّ أنّ هذا الأخير افتكّ العرش من جدّه (حوالي 549-550 ق.م.) دون أن يفتك بحياته]. (المترجم)



مفيدا، بل ما إذا كان مكتوبا بلغة جيّدة. تُمنح المكافآت للفكر الظريف، وتبقى الفضيلة بلا مجدٍ؛ ويوجد ألف جائزة للخطب الجميلة، ولا واحدة للأعمال الجليلة. لكن ليخبرني أحدكم، هل هناك وجه للمقارنة بين المجد الذي سيغنمه أفضل مقال سيتوّجه هذا المجمع، وبين الشرف الحاصل لمن أسّس الجائزة ؟

إنّ الحكيم لا يلهث وراء المال، لكنّه لا يستهين بالمجد؛ وعندما يرى الأمجاد تـوزَّع بلا هدى، يصاب بالإحباط وتخمد فضيلته جرّاء البؤس والنسيان، بعدما كان القليل من المنافسة قادرا على تنشيطها وإفادة المجتمع منها. ذاك ما يُنتجه على أمد طويل تفضيل المواهب الظريفة على المواهب النافعة، وما تُثبته التجربة باستمرار منذ تجديد العلوم والفنون. فنحن لدينا علماء في الطبيعيات والهندسة والكيمياء والفلك، ولدينا شعراء وموسيقاريون ورسّامون، لكن لم يبق لدينا مواطنون، أو إن بقي منهم القليل فقد تشتّتوا في أريافنا المهجورة حيث يلفظون أنفاسهم الأخيرة في حالة من العَوَز الجالب للاحتقار. هذا هو الوضع الذي أصبح عليه وهذه هي المشاعر التي أصبح يغنمها منّا أولئك الذين يزوّدوننا بالخبز ويطعمون أطفالنا الحليب.

إنّي لا أنكر، مع ذلك، أنّ الشرّ لم يبلغ مبلغه. فالعناية الإلهية ـ إذ وضعت إلى جانب النباتات الضارّة نباتات بسيطة شافية، وجعلت في صُلب العديد من الحيوانات الضارية خلاصة دواءٍ لما تحدثه من إصابات وجروح ـ قد علّمت الملوك الخلفاء لها في الأرض كيف يحاكون حكمتها. وعلى منوالها نسج ذلك الملك العظيم الذي سيزداد بريق مجده جيلا بعد جيل، إذ استمدّ من كيان العلوم والفنون ذاتها -مع أنّها مصدر كلّ المفاسد- فكرة إنشاء تلك الجمعيات الشهيرة المكلّفة بائتمان وديعة المعارف الإنسانية الخطرة ووديعة الأخلاق المقدّسة على حدّ السواء، وذلك بحفظ صفاء الوديعتين واشتراط هذا الصفاء فيمن تستقبله من الأعضاء.

هذه المنشآت الحكيمة، إذ دعّمها خلَفُه صاحب الجلالة ونسج على منوالها جلّ ملوك **أوروبا**، قد تفيد على الأقلّ في كبح جماح أصحاب



الأقلام، فهم يرغبون جميعا في شرف الانتماء للأكاديميات، ولا بدّ أن يراقبوا أنفسهم حتّى يكونوا أهلا لها بما ينجزونه من مؤلّفات مفيدة وما يدأبون عليه من أخلاق حميدة؛ أخلاق تلك الجمعيات التي تقترح جوائز للاستحقاق الأدبي فتختار، للمناظرة لها، مواضيع من شأنها أن تحيي حبّ الفضيلة في قلوب المواطنين، فتبيّن بهذه الصورة أنّ هذا الحبّ سائد بينها وتقدّم للشعوب متعة جدّ نادرة وناعمة، متعة مشاهدة جمعيات علميّة تسخّر نفسها، لا فقط لتسليط أضواء المعرفة الممتعة على النوع البشري، بل أيضا لتقديم تعليمات محقِّقة للخلاص والسّلام.

لا تقابلوني إذًا باعتراض إنْ هو في نظري إلاّ حجّة جديدة. إذ لا شكّ أنّ كثرة العلاجات إنّما هي الدليل على وجوبها، وإنّا لا نبحث عن علاج لأمراض غير موجودة. لكن ما الدّاعي كي يكون هذا العلاج خاملا، لقلّة جدواه، سمة العلاجات العادية ؟ فكثرة هذه المنشآت المرصودة لخدمة العلماء تجعلها أكثر نفوذا على موضوعات العلم وأكثر قدرة على استقطاب العقول إليها. وقد يبدو، لما نوليه لهذا الأمر من الاحتياط، أنّنا أصبحنا نعاني من كثرة الفلاّحين وقلّة الفلاسفة. لا أجازف هنا بتقديم مقارنة بين الفلاحة والفلسفة: فهذا قد لا يحتمله بعضهم. لكن أسأل فقط: ما الفلسفة ؟ وعلام تحتوي كتابات أشهر الفلاسفة ؟ وأيّ دروس يلقّنها أصدقاء الحكمة هؤلاء؟ فإذا أصغيت إليهم، ألا تظنّهم جماعة من الدجّالين، في ساحة عامة، يصرخ كل واحد منهم في اتّجاه يقول: تعالوا إليّ، أنا فقط لا أخدعكم؟ بعضهم يزعم أنّه لا وجود للأجسام وكلّ ما في الأمر تمثّلات؛ والبعض الآخر أنّه لا جوهر غير المادّة ولا إلاه غير العالم؛ هذا ينكر وجود الفضائل والرذائل، ويعتبر الخير والشرّ الأخلاقيين من قبيل الأوهام؛ وذاك يعلن أنّ النّاس ذئاب يفترس بعضهم بعضا بضمير هانئ. أيا عظماء الفلاسفة ! لماذا لا تحتفظون بدروسكم المفيدة لأصدقائكم وأبنائكم ؟ قد تجنون ثمارها في الإبّان، ويزول خوفنا من وجود بعض أتباعكم في صفوفنا.

ها هم إذًا أفذاذ النّاس الذين فازوا في حياتهم بتقدير معاصريهم، وفازوا بعد مماتهم بخلود ذكراهم! وها هي القواعد الحكيمة التي تلقّيناها عنهم



والتي سنبلّغها عبر العصور إلى أحفادنا! فهل ترك الفكر الوثني للأجيال اللاحقة، بعدما أوقع عقل الإنسان في شتّى الضلالات، ما يجوز مقارنته بالآثار المخجلة التي أعدّتها لها المطبعة، في عهد **الإنجيل** ؟ إنّ الكتابات الملحدة التي ألّفها أمثال ‹لوقبس›[1] و‹دياغوراس›[2] قد فنت بفنائهما؛ إذ لم يتمّ بعدُ اختراع فنّ تخليد شذوذ الفكر الإنساني. لكن بفضل حروف الطباعة[3] ومجالات استخدامها كُتب لهواجس ‹هوبس› و‹سبينوزا› وأمثالهما البقاء أبدا. فهيّا أيّتها الكتابات الشهيرة التي ما استطاع آباؤنا تأليفها لِما كانوا عليه من جهل وخشونة؛ توجّهي نحو أحفادنا رفقة تلك المؤلّفات الأكثر خطورة، الفائحة بفساد أخلاق عصرنا، واحملي معها للعصور المقبلة تأريخا صادقا لتقدّم علومنا وفنوننا ولمزاياها. فإذا طالعوك، سيزول ارتباكهم كلّه بشأن المسألة التي نطرحها اليوم : إنّهم -اللّهم إذا كانوا أكثر منّا مخالفةً للصّواب - سيرفعون أيديهم إلى السّماء وبمرارة سيناشدون: «يا ربّ يا قدير، أنت من تملك العقول بين يديك، خلّصنا من الأنوار ومن الفنون المشؤومة الموروثة عن آبائنا، وأعد إلينا جهلنا وفقرنا وبراءتنا، فهي الخيرات الوحيدة القادرة على إسعادنا، وهي في نظرك أثمن ما تراه عندنا».

1- ‹لوقبس› Leucippe : فيلسوف يوناني قديم، لم يصلنا من آثاره شيء وكلّ ما يروى عنه أنّه عاش من 460 ق.م. إلى 370 ق.م تقريبا، وأنّه المؤسس الأوّل للمذهب الذرّي، وأنّ ‹ديمقريطس› تتلمذ عليه. (المترجم)

2- ‹دياغوراس› Diagoras : فيلسوف يوناني تتلمذ على ‹ديمقريطس› ؛ أشهر إلحاده فأُطرد من **أثينا** سنة 415 ق.م.، وتوفّي حوالي 400 ق.م. (المترجم)

3- إذا اعتبرنا الفوضى المفزعة التي أحدثتها المطبعة في **أوروبا**، وحكمنا على المستقبل بالنظر إلى تفاقم الشرّ يوما بعد يوم، نتوقّع بسهولة دأب الملوك على إقصاء هذا الفنّ المريع من ممالكهم بعدما كان دأبهم على إيراده. لقد استسلم السلطان ‹عشمت› أمام إلحاح بعض أصحاب الذّوق المزعومين ووافق على إنشاء مطبعة في **القسطنطينية**. لكن ما إن بدأ بها الطبع حتّى جاء الأمر بتحطيمها ورمي أدواتها في بئر. ويُروى أنّ الخليفة ‹عمر›، عندما استُشير بشأن مكتبة **الإسكندرية** وما يجب أن يكون مصيرها، قدّم الجواب التالي: إذا كانت مؤلّفات هذه المكتبة تتضمّن أمورا منافية للقرآن، فهي رديئة ولا بدّ من حرقها؛ وإذا كانت لا تتضمّن إلاّ ما جاء به القرآن، فاحرقوها أيضا، لأنّها زائدة. ولقد ذكر علماؤنا هذا الاستدلال بوصفه لا معقولا وفي منتهى الخلف. لكن لو افترضنا ‹غريغوار الكبير› بدلا من ‹عمر›، **والإنجيل** بدل **القرآن**، لكانت المكتبة أحرقت أيضا، ولكان ذلك أجمل عمل في حياة هذا الحَبر الشهير.



لكن إذا كان تقدّم العلوم والفنون لم يضف شيئا إلى سعادتنا الحقيقية، وإذا كان قد أفسد أخلاقنا وطال الفساد سلامة ذوقنا، فماذا عن تلك الجماعة من المؤلّفين المبتدئين الذين رفعوا الصعوبات المانعة عن معبد ربّات الفنّ والتي جعلتها الطبيعة امتحانا لقدرات من تستهويهم المعرفة؟ وماذا عن أولئك المنتحلين الملفّقين للكتب إذ لم يتواروا عن تهشيم أبواب العلم فاتحين مقدسه لغير اللائقين من السوقة والدهماء ؟ فلعلّ ما يُرجى هو لو وقع التصدّي، منذ المدخل، لكلّ العاجزين عن السّير طويلا في دروب الأدب، وتحويل وجهتهم إلى الفنون المفيدة للمجتمع. فهذا من ظلّ طوال حياته شاعرا رديئا أو مهندسا ثانويّا، كان من الجائز أن يكون صانعا بارعا للنّسيج. إنّ الذين قُدّر أن يكون لهم أتباع، لم يكونوا في حاجة إلى أساتذة. فأمثال «فيرولام» و«ديكارت» و«نيوطن»، هؤلاء الأساتذة للجنس البشري، لم يكن لهم بدورهم أساتذة، إذ من كان يقدر أن يقودهم إلى حيث حملهم نبوغهم العظيم؟ وما كان باستطاعة أساتذة عاديين أن يضيّقوا عقولهم ويضغطوا عليها كي تبقى في حدود عقولهم الشخصيّة الضيّقة. إنّ الحواجز الأولى هي التي علّمتهم بذل الجهد ودرّبتهم على تجاوز الفضاء الشاسع الذي تخطّوه. وإذا كان لا بدّ من السماح لبعض الأفراد بتعاطي العلوم والفنون، فينبغي أن تكون لهم القدرة على السّير على دربهم والتفوّق عليهم. فإلى هذا النّفر القليل تعود مهمّة بناء الصروح ورفع راية الفكر الإنساني. لكن إذا أردتم أن يكون نبوغهم بلا حدود، فلا تضعوا حدودا لآمالهم. ذاك ما يحتاجونه من التشجيع لا غير. فالنّفس تتناسب تدريجيا مع الموضوعات التي تشغلها، والمناسبات الكبرى هي التي تخلق الرجال الكبار. لقد كان أمير الفصاحة قنصلا في **روما**، وكان أعظم الفلاسفة، تقريبا، وزيرا في **انجلترا**. أتظنّون أنّ مؤلّفاتهما لن تتأثّر بوضعهما لو شغل أحدهما مجرّد خطّة أستاذ بإحدى الجامعات، وغنم ثانيهما مجرّد منحة جامعية زهيدة ؟ فعلى الملوك إذن أن يرحّبوا في مجالسهم بأقدر النّاس على نصحهم، وليتخلّوا عن ذلك الحكم المسبق القديم الذي أبدعه كبرياء الأكابر والذي يقول: إنّ قيادة الشعوب أصعب من إنارتها وهدايتها. كما لو كانت دعوة النّاس للإحسان طوعًا أهون من دعوتهم قسرًا ! فليفتحوا بلاطهم لأفذاذ العلماء ويقيموا لهم مقاما رفيعا. وليمنحوهم الجائزة الوحيدة التي تليق بهم، وهي أن يسهموا،



لما يحظون به من ثقة واعتبار، في إسعاد الشعوب بتلقينها مبادئ الحكمة. آنذاك فقط ستظهر قدرة الفضيلة والعلم والسلطة، إذ تحرّكها جميعا روح المنافسة الشريفة وتشتغل كلّها معًا في سبيل تحقيق سعادة بني الإنسان. لكن طالما بقيت القوّة على حدة، وأنوار الحكمة على حدة، فإنّ العلماء سيفكّرون نادرا في أمور عظيمة، والأمراء سيقدمون نادرا على أفعال جميلة، وستظلّ الشعوب دنيئة فاسدة شقيّة.

أمّا نحن الرعاع، إذ لم تمنّ السماء علينا بمثل هذه المواهب العظيمة ولم تهيّئنا لمجدٍ كهذا، لنمكث في عتمتنا، ولنكفّ عن السّعي وراء شهرة تفلت منّا ولا تغطّي أبدا، في الأحوال الراهنة، ما أنفقنا من أجلها، حتّى لو كنّا نملك كلّ السندات التي تتيح نيلها. فما الدّاعي للبحث عن سعادتنا في رأي الغير إن كنّا نجدها في أنفسنا ؟ لنفوّض إلى غيرنا مهمّة تلقين الشعوب واجباتها، ولنقتصر على القيام بواجباتنا نحن بالوجه الكامل، فلسنا بحاجة إلى المزيد من المعرفة.

أيّتها الفضيلة ! أنتِ العلم الجليل الذي تنشده النّفوس البسيطة، فهل من الضروري كلّ هذه المعاناة وكلّ هذه العدّة لنيلك ؟ أليست مبادئك منقوشة في كلّ القلوب، وألا يكفي المرء أن يعود إلى نفسه ويصغي لصوت ضميره، في صمت من الأهواء، حتّى يدرك قوانينك ؟ هذه هي الفلسفة الحقّ، فلنرضى بها ! ومن غير أن نحسد أولئك المشاهير الخالدين في جمهورية الأدب على ما نالوه من الفخر والعزّ، دعونا نرسم بيننا وبينهم ذلك الفاصل المجيد الذي كان يظهر في الماضي القديم بين شعبين عظيمين: إذ كان أحدهما يحسن القول، والآخر يحسن العمل.



ج. ج. روسّو

مقال في الاقتصاد السياسي

ترجمة : جلال الدّين سعيد




مكتبة
الفكر الجديد

إكونوميا (Economie) أو اقتصاد (أخلاقي وسياسـي)، تُشتقّ هذه الكلمة مـن **أُويْكوس** (oikos)، أي المنزل، **ونوموس** (nomos)، أي القانون، ولا تعني في الأصل غير التدبير المنزلي المحكم والمشروع، من أجل الخير العام لكافّة الأسـرة. ثمّ اتّسع معنى هذا اللفظ ليشمل تدبير تلك الأسرة الكبيرة التي هي الدولة. وللتمييز بين المعنيين، يقال في الحالة الأخيرة اقتصادًا عامّا أو سياسـيّا، وفي الحالـة الأخرى يقال اقتصادًا منزليّا أو خاصّـا. يتعلّق الأمر في هذا المقال بالاقتصاد السياسي العام، وبشأن الاقتصاد المنزلي انظر باب: **ربُّ الأسرة**.

لئـن وُجد بين الدولة والأسـرة مـن العلاقات بقدر ما يزعمـه الكثير من المؤلفيـن، إلاّ أنّـه لا يترتب على ذلك أنّ قواعد السـلوك المميزة لإحدى المجموعتين تكون ملائمـة للأخرى: فاختلاف حجمهما لا يخوّل تدبيرهما بنفس الطريقة، وسـيظلّ الفرق شاسـعا بين تدبير المنزل، حيث يكون بوسع الأب الإشـراف على كلّ شيء بنفسـه، وتدبير المدينة، حيث يكاد الرئيس لا يشـرف على شيء إلاّ بتوسّـط غيره. ولكي تصبح الأمور متكافئة، لا بدّ لمهـارات الأب وقدرته وكلّ ملكاته أن تعظم طردًا مع حجم الأسـرة، وأن تتّسـع روح السـلطان العظيم مقارنةً بروح الإنسان العادي، كاتّساع مملكته مقارنةً بما يملكه الإنسان الفرد.

ولكن كيف لتدبير الدولة أن يكون مماثلا لتدبير الأسـرة إذ تقوم على أساس جدّ مختلف ؟ إذ لمّا كان الأب جسديّا أقوى من أبنائه، وطالما كان وقوفـه إلى جانبهم أمرا ضروريا، كانت سـلطته تُعتبر حقّا على أنّها قائمة في الطبيعة. أمّا في الأسرة الكبيرة، التي يكون جميع أعضائها متساوين بالطبع، فإنّ السـلطة السياسـية، مع أنّها سلطة تحكّمية في منشـئها، إلاّ أنّها لا تقوم



على غير الأعراف والاتّفاقيات، كما أنّ صاحب السلطة لا يحكم النّاس إلاّ بما يتّفق مع القوانين. وواجبات الأب إنّما تمليها عليه مشاعر طبيعية، وبلهجة قلّما تسمح له بالعصيان. أمّا الرؤساء فليس لهم قاعدة كهذه، وليسوا ملزمين تجاه الشعب حقّا إلاّ بما وعدوه وما أصبح من حقّه أن يطالبهم به. ويوجد فرق آخر أهمّ، هو أنّ الأبناء لا يملكون شيئا عدا ما يتسلّمونه من الأب، وبالتالي فلا ريب أنّ حقوق المِلكيّة كلّها له أو تصدر عنه؛ بينما العكس هو الذي يحدث في الأسرة الكبيرة، حيث يجري التدبير العام لغاية تأمين المِلكيّة الخاصة السابقة عليها. وإنّ الهدف الرئيسي لكلّ أشغال المنزل هو حفظ أرزاق الأب وإنمائها، حتّى يستطيع يوما توزيعها على أبنائه دون إفقارهم؛ بينما لا يعدو ثراء خزانة الدولة أن يكون إلاّ وسيلة، غالبا ما أسيء فهمها، لإبقاء النّاس في حالة من السلم والرخاء. وباختصار فإنّ الأسرة الصغيرة مصيرها أن تزول وتنحلّ يوما ما إلى أسر أخرى مماثلة كثيرة؛ لكن لمّا كانت الأسرة الكبيرة قد جُعلت لتبقى وتدوم على نفس الحال، كان لا بدّ للصغيرة أن تعظم حتّى تتكاثر ؛ ولا يكفي فقط أن تحافظ الكبيرة على كيانها، بل يمكن أن نثبت بسهولة أنّ كلّ تعاظم قد يضرّها أكثر ممّا ينفعها.

ولأسباب كثيرة مستمدّة من طبيعة الأشياء، يجب أن يكون الحكم للأب داخل الأسرة. وأوّلا، لا ينبغي أن تكون السلطة متناصفة بين الأب والأم، بل يجب أن يكون التدبير واحدا، وإذا اختلفت الآراء، أن يوجد صوت مرجّح لأخذ القرار. 2° إنّ الأوضاع الشاقّة الخاصة بالمرأة، مهما هوّنّا من أمرها، تحكم عليها دائما بالمكوث، وهذا سبب كاف لخلعها من الصدارة: إذ عندما يكون القسطاس مستقيما، تكفي قشة واحدة كي ترجّح الكفّة. ثمّ إنّه من واجب الزوج أن يراقب سلوك زوجته : إذ يهمّه أن يتحقّق من كون الأطفال الذين لا بدّ له أن يعترف بهم ويرعاهم إنّما هم من صلبه حقّا. وليس للمرأة نفس الحقّ على بعلها، لأنّها لا تخشى ما يخشاه. 3° إنّ طاعة الأب واجبة على الأبناء، لما تقتضيه الضرورة أوّلا، واعترافا بالجميل ثانيا؛ فبعد أن يقضوا حاجتهم منه في النصف الأوّل من حياتهم، يجب أن يخصّصوا النصف الآخر لتوفير حاجاته. 4° وأمّا الخدم فعليهم بخدمته مقابل



مــا يبذله من العناية بهم؛ إلاّ إذا بطل الاتفاق لكونه لم يعد يناســبهم. وإنّي لا أذكر العبودية، لأنّها مناقضة للطبيعة ولا يمكن أن يبيحها أيّ قانون.

لا شــيء مــن هذا يوجد بتاتا فــي المجتمع السياســي. فعوض أن تكون مصلحــة القائد الطبيعيــة في تحقيق ســعادة الأفراد، تراه في الغالب يستمدّ سعادته من بؤسهم. وإذا كان الحكم وراثيا، كان صاحب الأمر في الغالب صبيّا يحكم رجالا؛ أمّا إذا كان انتخابيا، شــابت الانتخابات آلاف العيوب، وزالت في هذه الحالة كما في الأخرى كلّ مزايا الأبوّة. وإذا كان قائدك واحدا لا أكثر، كنتَ تحت ولاء سـيّدٍ لا شــيء يدعوه إلى أن يشــملك بعطفــه؛ أمّــا إذا كنتَ تخضع لكثيرين، كان عليــك أن تتحمّل في ذات الوقــت طغيانهــم وشــقاقهم. وباختصار، فإنّه لا مــردّ للتجــاوزات ولعواقبها المشــؤومة في كلّ مجتمع، حيث لا يكــون للمصلحة العامة وللقوانين أيّة قدرة طبيعية وحيث يكون تعرّضها باســتمرار لعدوان المصلحة الشــخصية وعدوان أهواء القائد والأعضاء.

ورغم أنّ وظائف ربّ العائلة ووظائف صاحب السلطة ترمي إلى غاية واحدة، إلاّ أنّ سُــبلهما مختلفة ؛ إنّ واجبهما وحقوقهما على درجة من الاختلاف حتّى أنّ كلّ خلط بينها قد يؤول إلى تكوين أفكار باطلة عن القوانين الأساســية في المجتمع وإلى الوقوع في أخطاء تعود بالوبال على الجنس البشري. إذ فعلا إذا كان صوت الطبيعة أفضل مرشد ينبغي أن يستشيره الأب الصالح حتى يقيم واجباته، فهذا الصوت لا يكون عند صاحب السلطة إلاّ دليلا مزيّفا لا ينفكّ يضلّله عن ذويه ويجرّه عاجلا أو آجلا إلى هلاكه وهلاك الدولة إن لم تأخذ بيــده أرقى الفضائل. وعلى ربّ العائلة أن يحذر فقط الانحلال الأخلاقي وأن يمنع الميول الطبيعية فيه من أن يصيبها الفســاد؛ لكن هذه الميول بالذات هي التي تكون مفســدة لصاحب السلطة. فذاك لا يحتاج، كي يعمل خيرا، إلاّ أن يستشــير قلبه؛ وهذا يصبح خائنا لحظة يصغي إلــى قلبه، بل عليه أن يحترز حتّى من عقله، ويجب عليه ألاّ يتوخّى قاعدة أخرى غير قاعدة العقل العمومي، ألا وهي القانون. وعلى هذا فإنّ الطبيعة قد أوجدت كثرة من أرباب العائلات



الصالحيـن، لكن هيهات أن تكون الحكمة الإنسـانية أوجدت منذ نشـأة العالم عشرة من الرجال القادرين على رعاية أمثالهم.

بنـاء علـى كلّ مـا تقدّم، فقـد صَدق مـن ميّز بيـن الاقتصـاد العمومي والاقتصـاد الخاص؛ وبما أنّ الدولة والعائلة لا تشـتركان في أمرٍ عدا أنّه من واجب رئيسـيهما أن يجلبا لهما السعادة، فإنّهما لا تلائمهما نفس القواعد من السلوك. رأيتُ أنّ هذه السطور القليلة قد تكفي لقلب النسق المقيت الذي دأب الفـارس ‹فيلمر›[1] على إقامته في كتـاب عنوانه **بترياركـا**، الذي أقام له رجلان شهيران شرفا عظيما إذ ألّفا كتُبا في دحضه[2] : ومع ذلك فهذا الخطأ قديـم جدّا حتى أنّ ‹أرسـطو› رأى وجوب محاربته بأسـباب يمكن الاطّلاع عليها في الباب الأوّل من كتاب **السياسة**.

أرجـو كذلك من قرّائـي أن يميّزوا جيّدا بين الاقتصـاد العمومي الذي سـأتحدّث عنه والذي أسـمّيه الحُكم، والسـلطة العليا التي أسـمّيها سيادة ؛ ويتمثّل هذا التميز في كون أحدهما يملك الحق التشـريعي ويكون مُلزما أحيانا لجسـد الأمّـة ذاته، بينما لا يملك الآخر سـوى القـدرة التنفيذية ولا يمكنه أن يُلزم غير الأفراد. انظر **السياسة والسيادة**.

ليُسـمح لي مؤقّتا باستخدام مقارنة شائعة تنقصها الدقّة من أكثر من وجه، غير أنّها قد تجعل خطابي أقرب إلى الفهم.

يمكن أن يُنظر إلى الجسـد السياسـي، إذا ما اعتبر كفرد، على أنّه جسم عضويّ حيّ شـبيه بجسم الإنسان. فالسلطة العليا تمثّل الرأس، وتمثّل القوانين والتقاليـد الدمـاغ، وهو مبـدأ الأعصاب ومقـرّ الذهـن، والإرادة، والحواس

1- ‹روبرت فيلمر› Robert Filmer : فيلسـوف إنغليزي ولد سنة 1590 ومات سنة 1653؛ دافع بكلّ حميّـة عن الحكم الملكـي القائم، وألّف الكتاب المذكـور هنا، **بترياركـا** *Patriarcha*، حيث يستخلص السلطة السياسية من نظام السلطة الأبوية.

2- هـذان الرجـلان هما ‹جايمـس تيـرال› (James Tyrrel, 1642-1718) في كتابه **الأبوية ليست المَلكيـة** (Patriarcha non Monarchia) و‹جـون لوك› (John Locke, 1632-1704) في رسـالتيه السياسيتين عن الحكم المدني (1690).



التي يمثّل الحكّام والقضاة أعضاءها ؛ وتمثّل التجارة والصناعة والفلاحة الفم والمعدة إذ يُعِدّان القوت العام ؛ والماليّة العامة هي الدّم الذي يدفعه اقتصاد حكيم، وظيفته وظيفة القلب، ليوزّع الطعام والحياة في كافّة البدن ؛ والمواطنون هم الجسم والأطراف التي تحرّك الآلة وتحييها وتشغّلها، والتي ما أن يصيبها جرح في بعض أجزائها حتّى ينتقل الشعور بالألم إلى الدماغ، متى كان الحيوان في حالة من الصحّة.

إنّ حياة هذا وذاك هي الذات التي يشترك فيها الكلّ، والإحساس المتبادل، والتلاؤم الباطني بين الأجزاء كلّها. أيكفّ التواصل، وتزول الوحدة الصورية، ولا يبقى بين الأجزاء المتجاورة سوى علاقة تلاصق؟ آنذاك يموت الإنسان، أو تنحلّ الدولة.

فالجسد السياسي إذًا هو أيضا كيان أخلاقي يملك إرادة ؛ وهذه الإرادة العامة، إذ تسعى باستمرار إلى حفظ الكلّ والجزء وراحتهما، وإذ هي مصدر القوانين، إنّما هي بالنسبة إلى كلّ أعضاء الدولة، بالنظر إليهم وإليها، قاعدة العدل واللاّعدل. ولنقُلْ إنّ هذه الحقيقة تبيّن مدى وجاهة عديد المؤلّفين الذين وَصفوا بالحضّ على السرقة تلك الحجّة الدقيقة التي كانت تُلزم أطفالَ **لاكديمونيا** بالظفر بطعامهم البسيط[1]، كما لو أنّ كلّ ما يطلبه القانون قد يجوز ألاّ يكون مشروعا. راجع، في باب **الحق**، مصدر هذا المبدأ الساطع العظيم الذي يتناوله هذا المقال بالتفصيل.

1- قال «كزينوفون» في كتابه عن **جمهورية اللاكديمونيين** (II، 1-8) : «...وأمَر [«ليكورغ»، الملك] من جهة أخرى بألاّ يقع إطعامهم إلاّ كمّية محدودة حتّى لا يثقلهم الشبع (...). لكن، وكيلا يضنيهم الجوع، سمح لهم، لا بتناول ما يزيد عن حاجتهم دونما جهد، وإنّما باختلاس بعض الأشياء ممّا يساعدهم على مقاومة الجوع. ولا أحد منّا يجهل أنّه لم يَسمح لهم بتدبّر أمرهم في الحصول على ما يقيم أودهم عجزًا منه عن توفير حاجياتهم. ثمّ إنّه من الواضح أنّ من يُقدم على السرقة لا بدّ له أن يسهر اللّيل ويتحيّل في النّهار ويتربّص الدوائر بالآخرين ويضع مراقبين في كلّ مكان. لا شكّ أنّه علّمهم كلّ هذا كي يجعل منهم جنودا أفضل وأكثر قدرة على التزوّد بالضروري. قد يُقال لي : إذا كان يَستحسن السرقة، فلماذا كان يشبع ضربا كلّ من تمّ القبض عليه ؟ السبب هو، بالتأكيد، أنّ في كلّ مجالات التعليم، لا بدّ من معاقبة الفرد الذي لا يحسن الطاعة. وهؤلاء الأطفال الذين يُقبض عليهم يعاقَبون لأنّهم لصوص فاشلون».



وتجدر الإشـارة إلى أنّ قاعدة العدل هذه، وهي صالحة بالنسـبة إلى كلّ المواطنيـن، قد تكون مذنبة مع الأجانب ؛ وسـبب ذلك بيّـنٌ : إذ أنّ إرادة الدولة، مع أنّها إرادة عامّة بالنسـبة إلى أعضائها، لا تبقى بهذا الوصف بالنسبة إلـى الدول الأخرى وأعضائها، بل تصبح في نظرهـم إرادة جزئية وفردية تقوم قاعـدة عدلها في قانون الطبيعـة، ممّا يدرجها أيضا ضمن المبدأ الموسـوم : إذ تصبح آنذاك مدينة العالم الكبرى الجسـد السياسـي الـذي يبقى قانونه الطبيعـي دائما هو الإرادة العامـة، والذي تكون مختلف دوله وشـعوبه هي أعضاؤه الفردية.

وعلى هذا التمييز بالذات الذي يُطبّق على كلّ مجتمع سياسـي وأعضائه، تترتّب أكثر القواعد كونيّةً وأشـدّها وثوقا إذ بفضلها نقيّم جودة الحكم أو رداءته، وعموما نقيّم مدى أخلاقية كلّ الأعمال الإنسانية.

يتركّـب كلّ مجتمع سياسـي مـن مجتمعات أصغر أخـرى، من أنواع مختلفة، لكلٍّ منها مصالحه وقواعده ؛ لكن هذه المجتمعات التي يدركها كلّ واحد لكونها تملك شـكلا خارجيا مسموحا به ليست هي الوحيدة الموجـودة فعلا في الدولة ؛ فكلّ الأفراد الذين تجمعهم مصلحة مشـتركة يكوّنـون معا مجتمعات دائمـة أو زائلة، قد لا تكون قدرتهـا بارزة إلاّ أنّها قدرة حقيقية، وتشـكّل الملاحظة الجيّدة لعلاقاتهـا المختلفة معرفةً حقيقيةً بالأخلاق. إنّ كلّ هذه الجمعيات الضمنية أو الشـكلية هي التي تغيّر بطرق مختلفـة مظاهر الإرادة العامة بتأثير مـن إرادتها الخاصة. ويكون دائما لإرادة هذه المجتمعات الجزئية ضربان من العلاقات ؛ فهي تكون إرادة عامة بالنسبة إلى أعضاء الجمعية، وتكون إرادة خاصة بالنسبة إلى المجتمع الكبير، فغالبا ما تراها مسـتقيمة من المنظور الأوّل فاسـدة من المنظـور الثاني. فقد يكون بعضهم كاهنا ورعا، أو جنديّا باسلا، أو طبيبا جادّا، ويكون مع ذلك مواطنا طالحـا. وقد تكون بعض المداولات في صالـح المجموعة الصغيرة وضارّة جـدّا بالمجموعـة الكبيرة. لا شـكّ أنّ المجتمعات الجزئيـة تخضع دائما للمجتمعـات التـي تحويها وأنّه لا بدّ من طاعة هذه قبـل تلك، وأنّ واجبات المواطن سـابقة علـى واجبات المستشـار، وواجبات الإنسـان على واجبات



المواطن : إلاّ أنّه، للأسف، تكون المصلحة الشخصية دائما على نقيض الواجب، كما أنّها تتعاظم بقدر ما تكون الجمعية أكثر ضيقا والالتزام أقلّ قداسة ؛ وهذا دليل قاطع على أنّ الإرادة الأكثر عموما هي كذلك الأكثر عدلا، وأنّ صوت الشعب إنّما هو صوت الربّ حقّا.

ولا يترتب على ذلك أنّ المداولات العمومية تكون دائما عادلة ؛ فقد لا تكون إذا تعلّق الأمر بالشؤون الخارجية ؛ ولقد ذكرتُ السبب. وبناء عليه فقد يجوز لجمهورية مُحكمة التدبير أن تشنّ حربا ظالمة. ومن الجائز أيضا أن يمرّر مجلسُ بلدٍ ديمقراطي قرارات سيّئة وأن يُدين الأبرياء : لكن هذا لن يحدث، ما لم يتمّ إغواء الشعب بمصالح فردية باستطاعة بعض الرجال البارعين، بما لديهم من التأثير والفصاحة، أن يجعلوه يستبدل بها مصالحه. وإذّاك فشتّان بين المداولة العمومية والإرادة العامة. فلا يعارضني أحدٌ إذًا بحجّة الديمقراطية الأثينية، لأنّ النظام في **أثينا** لم يكن قطّ ديمقراطيا، بل كان أرستقراطيا وطاغيا جدّا، ساده العلماء والخطابيون. تأمّلوا جيّدا ما يحدث في أيّ مداولة، وسترون أنّ الإرادة العامة تكون دائما في خدمة الصالح العام، إلاّ أنّه غالبا ما يحدث في السرّ انشقاق وتحالف خفيّ له أغراض خاصة تجعله يتملّص من الميل الطبيعي للمجلس. آنذاك ينقسم الجسد الاجتماعي حقّا إلى أجساد أخرى يكون لأعضائها إرادة عامة، تكون حسنة وعادلة بالنظر إلى هذه الأجساد الجديدة، غير عادلة وسيّئة بالنظر إلى الكلّ الذي تنشقّ عنه.

ترون بكم من السهولة نفسّر بفضل هذه المبادئ التناقضات الظاهرة في سلوك العديد من النّاس، إذ يبدون في غاية النزاهة وحيرة الضمير من منظور معيّن، ومخاتلين مخادعين يدوسون بأقدامهم أكثر الواجبات قداسة مخلصين حتّى الموت لالتزاماتٍ هي في الغالب غير شرعية، من منظور آخر. وهكذا فإنّ أكثر النّاس فسادا يُحيّون دائما بوجه ما المعتقدات العامة، وحتى قطّاع الطرق أنفسهم (مثلما أشرنا في فصل **القانون**)، مع أنّهم يعادون الفضيلة في المجتمع الكبير، إلاّ أنّهم يهيمون بتمثالها داخل كهوفهم.



عندما أقمتُ الإرادة العامة مبدأً أوّليًا للإقتصاد العمومي وقاعدةً أساسية للحُكم، لم أرَ من الضروري أن أنظر بصورة جدّية فيما إذا كان الحكّام ينتمون إلى الشعب أم الشعب إلى الحكّام، وما إذا كان ينبغي أن نأخذ بالاعتبار، في الشؤون العامة، مصلحة الدولة أم مصلحة الرؤساء. لقد حُسمت هذه المسألة منذ القديم، من جهة بصورة عمليّة، ومن جهة أخرى بالعقل؛ وعموما فمن الجنون المطْبق أن ننتظر ممّن يكونون في الواقع أسيادا أن يفضّلوا مصلحة أخرى غير مصلحتهم الشخصية. وبالتالي حريٌّ بنا أن نقسّم الاقتصاد العمومي مرّة أخرى إلى شعبيٍّ وطاغ. فالأوّل هو اقتصاد كلّ دولة يوجد فيها بين الشعب والرؤساء مصلحة واحدة وإرادة مشتركة؛ والثاني يوجد بالضرورة حيثما يكون للحكومة والشعب مصالح مختلفة وإذّاك إرادات متعارضة. وإنّ قواعد هذا الأخير مرسومة بالتفصيل في الوثائق التاريخية وفي أهاجي «ماكيافلّي». أمّا الأخرى فلا وجود لها إلاّ في كتابات الفلاسفة الذين يجرؤون على المطالبة بحقوق الإنسانية.

I - القاعدة الأولى والأهمّ بالنسبة إلى الحكومة الشرعية أو الشعبية، أي التي تسعى إلى خير الشعب، إنّما هي إذًا، كما قلتُ، أن يكون الاقتداء بالإرادة العامة في كلّ أمر؛ لكن للاقتداء بها لا بدّ من معرفتها، وخاصة لا بدّ من تمييزها عن الإرادة الفردية، بدءًا بإرادتنا نحن؛ وليس من السّهل دائما تحقيق هذا التمييز، ولا يمكن أن ننتظر في سبيله أضواء كافية إلاّ من لدن أعظم فضيلة. وبما أنّ الإنسان حتّى يريد لا بدّ أن يكون حرّا، فالصعوبة الأخرى، وهي ليست أقلّ، تتمثّل في ضمان الحرّية العامة وسلطة الحكومة معًا. فتّشوا عن الدواعي التي حملت النّاس المتّحدين برغائبهم المتبادلة في المجتمع الكبير إلى المزيد من الاتّحاد ضمن مجتمعات مدنية، ولن تجدوا داعيا آخر غير تأمين ممتلكات كلّ عضو وحياته وحرّيته بفضل حماية الجميع: ولكن كيف نرغم النّاس على الدّفاع عن حرّية بعضهم دون المساس بحرّية بعضهم الآخر؟ وكيف نوفّر الحاجات العامة دون المسّ بالملكية الخاصة لأولئك الذين نرغمهم على الإسهام في الأمر؟ مهما كانت السفسطة التي ستزيّنون بها كلّ هذا، فليس من شكّ أنّه إذا أمكن قهر إرادتي، لن أعود حرّا، وإذا استطاع أحد أن يمسّ أملاكي، لن أظلّ صاحبها. هذه المعضلة،



إذ كانت تبدو بلا حلّ، تمّ تجاوزها مع الأولى وذلك بفضل أرقى وأجلّ المنشآت الإنسانية، بل بفضل وحي سماويٍّ علّم الإنسان كيف يحاكي في هذه الدنيا القرارات الإلهية الخالدةً. فأيّ فنّ عجيب فتح الطريق لإخضاع النّاس من أجل جعلهم أحرارا ؟ ولوضع أملاكهم وسواعدهم وحتّى حياتهم تحت تصرّف الدولة دون إرغامهم ودون مشاورتهم ؟ ولكبح إرادتهم برضاهم؟ ولجعلهم يصادقون على ما يرفضون ؟ ولإرغامهم على معاقبة أنفسهم متى أقدموا على ما لم يريدوه ؟ كيف لهم أن يطيعوا وألاّ يحكمهم أحدٌ، وأن يخدموا وألاّ يوجد عليهم سيّدٌ ؛ وأن يخضعوا في الظاهر مع أنّهم أحرار ولا أحد يفقد من حرّيته إلاّ ما يكون فيها مضرّا بحرّية غيره ؟ هذه العجائب إنّما هي من إنتاج القانون. فإلى القانون وحده يدين البشر بالعدل والحرّية. وهو الذي، كعضو خلاص لإرادة الجميع، يجدّد قيام المساواة الطبيعية بين النّاس على أساس الحقّ. فهذا الصوت السماوي هو الذي يملي على كلّ مواطن مبادئ العقل العمومي، وهو الذي يعلّمه كيف يتصرّف وفق قواعد حُكمه الخاص وكيف لا يتناقض مع نفسه. وهو وحده الذي ينبغي أن تُعطى له الكلمة عندما يمارس الرؤساء حُكمهم ؛ إذ حالما تُستبعد القوانين ويسعى امرئ ما إلى إخضاع امرئ آخر لإرادته الشخصية، فهو يخرج توّا من الحالة المدنية ويضع نفسه تجاهه في وضع طبيعي خالص حيث لا شيء يستوجب الطاعة عدا الضرورة.

إنّ أوكد مصالح القائد، وكذلك أكثر واجباته لزوما، هو أن يسهر إذًا على احترام القوانين التي يتوكّل بها والتي تمثّل قاعدة كامل سلطانه. وإذا كان لا بدّ أن يجعل الآخرين يمتثلون لها، فلا بدّ من باب أولى أن يمتثل لها هو ذاته إذ ينعم بكلّ فضلها. ذلك أنّه قُدوة عظيمة، حتّى أنّه لو رضي الشعب بتكبّد خروجه عن القانون، فالأفضل أن يمسك هو عن الانتفاع بهذا الامتياز الخطير الذي سرعان ما سيسعى آخرون إلى اغتصابه بدورهم، وغالبا ما يكون ذلك على حسابه. وفي الواقع، لمّا كانت كلّ التزامات المجتمع متبادلة بطبعها، فإنّه لا يمكن للمرء أن يضع نفسه فوق القانون دون أن يفرّط في مزاياه، ولا أحد يكون مدينا لكلّ من يزعم أنّه ليس مدينا لأحد. ولهذا السبب ذاته لن يُعفى أحد من القانون أبدا، مهما كانت صفته، في الحكومة



المُحكمة التنظيم. وحتّى المواطنون الذي اشتهروا بخدمة الوطن فلا بدّ من مجازاتهم بالمجد والشرف وليس أبدا بالامتيازات : لأنّ الجمهورية تكون على قاب قوسين من الانهيار حالما يرى أحدهم متعة في عدم إطاعة القوانين. لكن لو تبنّى النّبلاء أو العسكريون أو طبقة أخرى من طبقات الدولة مثل هذه القاعدة، آل كلّ شيء إلى الهلاك دونما علاج.

تتوقّف قوّة القوانين على حكمتها الخاصة أكثر ممّا تتوقّف على قسوة وزرائها، وتستمدّ الإرادة العمومية معظم وزنها من العقل الذي أملاها : لذلك يرى ‹أفلاطون› من باب الاحتياط المفيد جدّا أن يقع دائما وضع توطئة معلّلة في مقدّمة المناشير تبيّن عدلها واستعمالها. وبالفعل فإنّ القانون الأوّل هو أن نحترم القوانين : فصرامة العقاب علاج باطل، اخترعه أصحاب عقول ضيّقة كي يعوّضوا بالرّعب ذلك الاحترام الذي عجزوا عن تحصيله. ولقد جرت ملاحظة أنّ البلدان التي تكون فيها العقوبات أكثر قساوة، تكون العقوبات فيها أيضا أكثر تواترا ؛ بحيث لا تنمّ قسوة العقاب إلاّ على كثرة المخالفين، وعندما يُعاقَب على كلّ شيء بنفس الشدّة، يضطرّ المذنبون إلى اقتراف جرائم للإفلات من العقاب على أخطائهم.

ولكن رغم أنّ الحكومة ليست سيّدة القانون، إلاّ أنّ مزيّتها في حفظه وفي الحضّ بألف طريقة على عشقه. إنّ براعة الحكم لا تتمثّل في أكثر من هذا. فعندما تكون القوّة حليفنا، ليس من المهارة أن نبثّ الرعب في جميع النّاس، وليس منها الكثير أن نستعطف قلوب النّاس؛ ذلك لأنّ التجربة علّمت الشعب، منذ قديم الزمان، أن يأخذ في الاعتبار كلّ الشرور التي لم يمارسها قادته ضدّه، وأن يعشقهم كلّما لم يكرهوه. ويمكن للغبيّ المُطاع، شأنه شأن غيره، أن يعاقب الجرائم : أمّا رجل الدولة الحقيقي فهو يستطيع الوقاية منها، وإنّ سلطانه الجلل يشمل إرادة الأفراد أكثر ممّا يشمل أعمالهم. فلو كان يستطيع أن يجعل كلّ النّاس يفعلون الخير، لما بقي له ما يفعله، ولكانت رائعة أعماله أن يظلّ متفرّغا. لا جرم أنّ أعظم ما يبرع فيه القادة هو وضع قناع على سلطتهم حتّى تكون أقلّ بشاعة، وقيادة الدولة بكلّ سلام حتّى أنّها تبدو في غير حاجة إلى قادة.



صفــوة القــول إذًا أنّــه لمّا كان الواجــب الأوّل للمشــرّع يتمثّل في جعل القوانين موافقة لــلإرادة العامة، فإنّ القاعدة الأولى للاقتصاد العمومي هي أن تكون إدارة الأمور موافقة للقوانين. وقد يكفي، حتّى لا تقع الدولة في سوء التدبير، أن يتدبّر المشــرّع كما ينبغي أمر ما يقتضيه المكان والمناخ والتربة والأخــلاق والجيرة وكلّ علاقات أفراد الشــعب التي هو مطالب بتأسيســها. ولســنا نتغاضى عن العدد اللامتناهي من الجزئيات المتعلّقة بالتسيير والتدبير، باعتبارهــا موكولة إلــى حكمة صاحب الأمر : وإنّما لهــذا الأخير قاعدتين معصومتين يُجيد بهما التصرّف في هذه الأوضاع، إحداهما روح القانون الذي ينبغي أن يحســم القرار في الحــالات التي لم يتمّ توقّعهــا، والثانية هي الإرادة العامة، باعتبارها مصدر كلّ القوانيــن وتكملتها، والبديل عنها الذي ينبغي أن يستشــار دائما في حــال غيابها. قد يقول بعضهم : كيف ســنعرف ما هي الإرادة العامــة فــي الحالات التي لــم تقل فيها كلمتها ؟ هل ســنجمع الأمّة كلّها كلّما حدث طارئ ؟ حتّى أنّ جمعها ليس مرغوبا فيه، لِعدم اليقين من أنّ قرارها ســيكون معبّرا عن الإرادة العامة ؛ ولِتعذّر هذه الطريقة لدى شعب غفيــر ؛ ولعــدم وجوبها إلاّ نــادرا عندما يكون الحكم على أســاس الإرادة الطيّبــة : ذلك أنّ القادة يعلمــون كفاية أنّ الإرادة العامــة تكون دائما في صفّ الطائفة الأكثر خدمة للصالح العام، أي الأكثر إنصافا ؛ بحيث يكفي المــرء أن يكون عادلا فقط حتّى يكون واثقا من اتّباعه للإرادة العامة. وهي غالبا ما تســعى إلى البروز إذا تمّ اســتفزازها علانية، رغــم كبحها المريع من طرف الســلطة العامــة. إنّي أبحث عن أقرب الأمثلة التي يمكن النســج على منوالهــا في وضــع كهذا. ففي **الصّين**، يســلك الأمير دائما وفــق مبدأ إدانة ضبّاطه في كلّ الخصومات التي تنشــأ بينهم وبين الشــعب. فهل يغلو ســعر الخبــز في إحدى الولايات ؟ يُزجّ آنذاك بالمعتمَد في السّــجن ؛ وهل تنشــأ فتنة في ولاية أخرى ؟ يتمّ عزل الوالي، ويُســأل كلّ موظّف كبير عن كلّ شــرّ يحدث في مقاطعته. ليس معنى ذلــك أنّ القضيّة تُرفع أمام المحكمة : فالحُكــم فيها متوقّع بناء على تجربة طويلة ؛ ويندر أن توجد مظلمة لا بدّ من رفعهــا ؛ وإنّ الإمبراطور، إذ يكون على يقيــن من أنّ الصخب العام لا يرتفع أبدا بدون داعٍ، يفرز دائما، ضمن صيحات الشــغب التي يعاقبها، الشــكاوي المشروعة إذ يعالجها.



جميلٌ جدّا أن يسود النظام والسلام كافّة أنحاء الجمهورية ؛ وجميلٌ جدّا أن تنعم الدولة بالهدوء ويتمّ احترام القانون ؛ لكن لو وقفنا عند هذا الحدّ، لبقي كلّ ذلك سرابا أكثر منه واقعا، ولو اقتصر صاحب الأمر على جلب الطاعة، لوجد صعوبة جمّة في كسبها. وإذا كان من الجيّد أن يُستخدم النّاس على نحو ما هم عليه، فمن الأفضل كثيرا جعلهم على نحو ما يُحتاج أن يكونوا عليه ؛ إنّ السلطة المطلقة الأشدّ هي التي تلِج باطن الإنسان وتؤثّر في إرادته بقدر ما تؤثّر في أفعاله. ولا ريب أنّ الشعوب تصبح على مرّ الأيّام ما يريدها الحاكم أن تكون : محاربين ومواطنين ورجالا إذا أراد، ورعاعا وأوباشا إذا طاب له ذلك ؛ وكلّ راعٍ يحتقر رعاياه إنّما هو يُلحق بنفسه العار، إذ بذلك يكشف أنّه لم ينجح في جعلهم جديرين بالتقدير. فاصنعوا رجالا إن كنتم تريدون قيادة الرّجال ؛ وإن كنتم تريدون طاعة القوانين، فاجعلوهم يحبّونها، واجعلوا القيام بما يجبُ متوقّفا على مجرّد التفكير في وجوب القيام به. هكذا كان فنّ الحكم لدى القدامى، في تلك العصور الغابرة حيث كان الفلاسفة يمدّون الشعوب بالقوانين ولا يستعملون سلطتهم إلاّ لجعلهم حكماء وسعداء. وإذّاك كثرت القوانين المقيّدة للنفقات المفرطة، والأحكام المتعلّقة بالأخلاق، والقواعد العمومية المقبولة أو المرفوضة بكامل العناية. وحتّى الطغاة أنفسهم لم يفُتهم هذا الجانب الهام من التدبير، فكنتَ تراهم يدأبون على إفساد أخلاق عبيدهم دأب الحكّام على إصلاح أخلاق مواطنيهم. إلاّ أنّ حكوماتنا الحديثة، إذ تعتقد أنّها أتمّت كلّ شيء عندما تكون استخلصت الأموال، لا تتصوّر حتّى أنّه من الضروري أو الممكن السّير حتّى هذه النقطة.

II – القاعدة الجوهرية الثانية للاقتصاد العمومي، وهي لا تقلّ أهمّية عن الأولى. أتريدون للإرادة العامة أن تتحقّق ؟ اجعلوا كلّ الإرادات الفردية تنتمي إليها ؛ وبما أنّ الفضيلة لا تعدو أن تكون إلاّ في هذا التطابق بين الإرادة الفردية والإرادة العامة، فإنّه يمكن اختصار القول كما يلي : اجعلوا الفضيلة تسود.



لو أغشى الطموح على بصر رجال السياسة بصورة أقلّ، لتبيّنوا مدى امتناع تدبير شؤون أيّ إدارة وفق روح مؤسّستها، ما لم يكن ديدنها هو قانون الواجب؛ ولأحسّوا بأنّ أعظم حافز للسلطة العمومية إنّما يوجد في قلوب المواطنين، وأنّه لا شيء يمكن أن يعوّض الأخلاق في المحافظة على الحُكم. وإذا كان الرجال الصالحون دون سواهم هم الذين يُجيدون سنّ القوانين، فالحقيقة أنّ الرجال الصالحين دون سواهم هم الذين يحسنون طاعتها أيضا. إنّ الذي ينجح في إسكات ضميره، سرعان ما يستخفّ بالعقاب؛ فقد يكون العقاب أقلّ صرامة، وقد لا يستمرّ، وقد يؤمَل الإفلات منه؛ ومهما كانت الاحترازات، فإنّ الذين ما أن يتحقّقوا من عدم القصاص حتّى يأتوا السيّئات، لا تعوزهم الطّرق لتفادي القانون أو الإفلات من العقاب. وعلى ذلك فبما أنّ كلّ المصالح الفردية تتّحد ضدّ المصلحة العامة إذ لم تعُد مصلحة أحد، فإنّه يكون للرذائل العمومية من القوّة لاستفزاز القوانين أكثر ممّا يكون للقوانين لقهر الرذائل؛ فينتقل أخيرا فساد الشعب والقادة إلى الحكومة، مهما كانت حِكمتها: إنّ أبشع تجاوز هو التظاهر بطاعة القوانين من أجل خرقها بأمان. فسرعان ما تصبح أفضل القوانين أشدّها وبالاً: كان من الأفضل مائة مرّة ألاّ توجد، إذ تبقى هي الحيلة الأخيرة في غياب كلّ حيلة. في وضع كهذا، لا فائدة ترجى من إصدار القرارات والأحكام الواحدة تلو الأخرى، إذ كلّ ما سيحدث هو تسريب تجاوزات جديدة دون إصلاح القديمة. فكلّما أكثرتم من القوانين، جعلتموها عرضة للاحتقار؛ وكلّ المراقبين الذين تُنصِّبون إنّما هم مخالفون جُدد مصيرهم أن يقاسموا القدامى أو أن ينهبوا على انفراد. وسرعان ما يصبح جزاءُ الفضيلة جزاءً للّصوصية، ويغدو أحطّ النّاس أعظمهم شأنًا؛ وكلّما عظم شأنهم، زادت دناءتهم؛ فتتلطّخ مراتبهم بالعار وتتهتّك أعراضهم. فإذا ابتاعوا أصوات القادة أو وصاية النّساء، فلكي يبيعوا بدورهم العدالة والواجب والدولة؛ وإنّ الشعب الذي لا يرى أنّ رذائله هي السّبب الأوّل في مصائبه يهمس ويصرخ بأنين: «إنّ مصدر بلائي كلّه أولئك الذين أدفع لهم ثمن وقايتي منه».

آنذاك يضطرّ القادة إلى الاستعاضة عن صوت الواجب الذي لم يعُد يخاطب القلوب، بصيْحة رعب أو خديعة مصلحة وهميّة يخاتلون بها بَراياهم. وآنذاك يلجؤون إلى كلّ تلك الحيل الصغيرة الحقيرة التي يُسمّونها مبادئ



الدّولة وأسرار الديوان. فيستخدم أعضاء الحكومة كلّ ما تبقّى من بأسها في تدمير وإزاحة بعضهم بعضا، بينما يقع إهمال المصالح العامة أو لا يقع تحقيقها إلاّ بقدر ما تقتضيه المصلحة الشخصية أو بحسب توجيهها لها. وأخيرا فإنّ السياسيين الكبار يبذلون كلّ حذقهم في افتتان من يحتاجون من النّاس، حتّى أنّ كلّ واحد من هؤلاء يظنّ أنّه بصدد خدمة مصلحته الشخصية بينما هو في الواقع يخدم مصلحتهم ؛ قلتُ مصلحتهم، سيّما أنّ مصلحة القادة الحقيقية تتمثّل في قهر الشعوب من أجل إخضاعها، وفي إتلاف ثرواتها من أجل الاستحواذ عليها.

أمّا إذا أحبّ المواطنون واجبهم، وعكف أرباب السلطة العمومية بإخلاص على إنماء هذا الحبّ، قدوةً لهم ورعايةً، فإنّ كلّ المصاعب ستضمحلّ، وستتيسّر إدارة الأمور بما يُغني عن ذلك الفنّ المدلهمّ المُلغز بسواده. لن يتحسّر أحد على تلك العقول الرحبة، الخطرة جدّا والمعجَب بها جدّا، وعلى كلّ أولئك الوزراء الكبار الذين اختلط مجدهم بأحزان الشعب ؛ ستغدو الأخلاق العامة بديلا عن عبقرية القادة ؛ وكلّما سادت الفضيلة، تقلّصت الحاجة إلى المواهب. وحتّى الطموح فإنّه سيتحقّق بالواجب أكثر ممّا بالاغتصاب : فالشعب، إذ هو واثق من أنّ قادته لا يسهرون إلاّ على سعادته، يُغنيهم، مراعاةً لهم، عن السهر على توطيد نفوذهم ؛ ويبيّن التاريخ، في ألف موضع، أنّ السلطة التي يمنحها الشعب لأولئك الذين يحبّهم ويحبّونه، إنّما هي سلطة مطلقة مائة مرّة أكثر من كلّ طغيان المغتصبين. ليس معنى هذا أنّه على الحكومة أن تخشى استعمال نفوذها، وإنّما أن تستعمله على وجه الشرع ليس إلاّ. ونجد في التاريخ ألف مثال عن قادة جبناء أو طموحين، أهلكهم كبرياؤهم أو رخاوتهم، لكن لا نجد أحدا لحقه ضررٌ لكونه كان منصفا. لكن لا يجب الخلط بين الإهمال والاعتدال، ولا بين اللّطف والضعف. لا بدّ أن يكون المرء قاسيا، حتّى يكون عادلا : فأن تتحمّل الشرّ الذي يحقّ لك قمعه وتقدر على قمعه، معناه أنّك شرّير أنت نفسك.

لا يكفي أن نقول للمواطنين كونوا طيّبين ؛ يجب أن نعلّمهم كيف هكذا يكونون ؛ ولئن كانت القدوة هي الدّرس الأوّل، فهي ليست الطريقة



الوحيدة التي ينبغي استخدامها ؛ إنّ حبّ الوطن لهو أنجع الطّرق، إذ كما سبق أن قلتُ، يكون الإنسان فاضلا عندما تتّفق إرادته الجزئية في كلّ أمر مع الإرادة العامة، وإنّا بطيبة خاطر نريد ما يريده النّاس الذين نحبّ.

يبدو أنّ العاطفة الإنسانية تضعف وتتبخّر عندما تشمل كامل الأرض، وأنّنا لا نتأثّر بمصائب **اليابان** أو **بلاد التّتار** مثلما نتأثّر بمصائب شعب أوروبّي. فلا بدّ من الحدّ والتقليص بوجه ما من دائرة الاهتمام والرحمة كي تنشط هذه العاطفة. لكن لمّا كان ميْلنا هذا لا يعود بالفائدة إلاّ على أولئك الذين نتعايش معهم، فطيّبٌ أن تحصل الإنسانية المحصورة بين المواطنين على قوّة جديدة بفضل التعوّد على رؤية بعضهم بعضا والفائدة المشتركة التي تجمعهم. وبالتأكيد فإنّ أعظم أعمال الفضيلة قد نتجت عن حبّ الوطن : فهذا الشعور الحارّ اللّطيف الذي يقرن قوّة حبّ الذات بجمال الفضيلة، يمنح العاطفة الإنسانية من الطاقة ما يجعلها، دون أن يفسدها، أعظم العواطف بطولة. هذا الشعور هو الذي أنتج الأعمال الخالدة التي يبهر بريقُها بصرَنا الضعيف، وأنتج الرجال العظام الذين تُعَدّ فضائلهم العريقة من قبيل الأساطير مُذ غدا حبّ الوطن موضوع سخرية. لا تتعجّبوا ؛ فإنّ فَوْرَة القلوب الرقيقة تبدو من قبيل الوهم لكلّ من لم يشعر بها ؛ وإنّ حبّ الوطن، إذ هو مائة مرّة أحرّ من حبّ العشيقة وألذّ، لا يُدرك أيضا إلاّ باختباره : لكن من السهل أن نلاحظ في كلّ القلوب التي يُلهبها، وكلّ الأعمال التي يُلهمها، تلك الحميّة الجليلة الجيّاشة التي بدونها تفقد أنقى الفضائل بريقَها. لنتجرّأ على المقابلة بين ‹سقراط› نفسه و‹كاتون›[1] : فأحدهما كان فيلسوفا أكثر، والآخر مواطنا أكثر. وعلى إثر سقوط **أثينا**، لم يجد ‹سقراط› وطنا آخر غير العالم كلّه ؛ أمّا ‹كاتون› فقد حمل وطنه باستمرار في عُمق فؤاده، فلم يكن ليحيا لغيره ولم يكن ليبقى من بعده. إنّ فضيلة ‹سقراط› فضيلة أكثر النّاس حكمة ؛ أمّا ‹كاتون›، فهو يبدو، بين ‹قيصر› و‹بومبي›[2]، كالإله

1- ‹كاتون› Caton : رجل دولة وكاتب روماني، عاش من 234 ق.م. إلى 149 ق.م.؛ شغل خطّة مراقب عام سنة 184 ق.م. وكان جادّا وقاسيا حتّى أنّه رُفع له تمثال نُقش عليه : «إلى ‹كاتون›، الذي هذّب الأخلاق».

2- ‹يوليوس قيصر› Jules César : إمبراطور روماني عظيم، عاش من سنة 100 ق.م. إلى سنة 44 ق.م.



بيــن الكائنات الفانية. أحدهما يعلّم نفرا من الأفراد ويحارب السوفســطائيين ويموت في ســبيل الحقيقة، والآخر يدافع عن الدولــة والحرّية والقوانين ضدّ غــزاة العالم ثمّ يغادر الحيــاة عندما لا يبقى له وطن يخدمه. قد يكون التلميذ الجدير بـ‹سقراط› أفضل أهل عصره، وقد يكون المنافس الجدير بـ‹كاتون› أعظم النّاس في عصره. قد تُحقّق فضيلة الأوّل سعادته، بينما يبحث الثاني عن سعادته في سعادة الجميع. وقد نتعلّم من أحدهما، بينما نقتاد بالآخر. ويكون اختيارنــا على هذا الأســاس لا غير، إذ لئن كان مــن المحال أبدا أن نكوّن شعبا من الحكماء، فليس من المحال أن نكوّن شعبا من السعداء.

أنريد أن تكون الشــعوب فاضلة ؟ لنبدأ بتلقينهــا حبّ الوطن. لكن أنّى لها أن تحبّه إن كان لا يمثّل في نظرها أكثر ممّا يمثّل في نظر الأجانب، وإن كان لا يمنحها ســوى ما لا يســتطيع رفضه لأحد ؟ وقد يكون الأمر أكثر سوءا إذا كانت لا تتمتّع حتّى بالأمن المدني، وإذا كانت أملاكها وحياتها وحرّيتها تحت تصرّف العظماء فلا تستطيع أو لا يحقّ لها الاستجداء بالقوانين. فــإذّاك تراها تخضع لواجبات الحالة المدنيــة ولا تتمتّع حتّى بحقوق الحالة الطبيعية ولا تســتطيع استخدام قواها للذّود عن نفسها، بحيث تكون في أسوإ وضــع يمكن أن يوجد فيه أناس أحرار، فــلا يكون للفظ الوطن عندها غير دلالة بشــعة أو مثيرة للســخرية. لا تظنّنّ أنّه يمكن جــرح ذراع أو قطعه دون أن ينعكــس الألم فــي الرّأس ؛ وليس أقلّ عبثا أن تســمح الإرادة العامة لأيٍّ كان مــن أفراد الدولة بأن يــؤذي غيره أو يحطّمه، من أن يوجّه إنســان عاقل أصابعه نحــو عينيه ليفقأهما. إنّ أمن الفرد يرتبــط بالاتئلافية العمومية لدرجة أنّ كلّ اســتخفاف بضعف الإنســان قد يؤول إلى انحــلال الاتّفاقية بموجب الحق، وذلك لو هلك في الدولة مواطن واحد كان بالإمكان إنقاذه، ولو سُــجن واحد فقط تجنّيا، ولو خُسر نزاعٌ واحدٌ جوْرا صريحا : لأنّه إذا تمّ خرق الاتّفاقيات الأساسية فإنّنا لا نرى أيّ حقّ وأيّ مصلحة ستمسك على الشعب وحدتــه، اللّهم إذا كان لــه ذلك بفضل القوّة فقط التي تتســبّب في انحلال الحالة المدنية.

‹بومبــي› Pompée : جنــرال ورجل دولة روماني كبيــر، عاش من 106 ق.م. إلى 48 ق.م. ؛ تقاســم السلطة مع ‹قيصر› و‹كراسوس›.



فعـلا، أليـس ما تتعهّد به الأمّة في مجموعها هو السّـهر على حفظ أسـوأ أفرادها بنفـس العناية التي تحفظ بها كلّ الآخرين ؟ أليس خلاص المواطن غاية مشـتركة، شأن خلاصِ الدولة ؟ فلو قيل لنا إنّه من المستحسن أن يفنى الواحد في سـبيل الجميع، لأعجبت بهـذه الحكمة إذا نطق بها وطنيٌّ فاضل يضحّـي بحياته طوعًا وبدافـع الواجب من أجل خلاص بلـده ؛ أمّا إذا كان المقصـود أنّه يجـوز للحكومة أن تضحّي بإنسـان بريء مـن أجل خلاص المجموعـة، فإنّ هـذه الحكمة في نظـري كريهة أكثر مـن أيّ حكمة ابتدعها الطغيان، وهي أكثر بطلانا من كلّ ما يمكن عرضه، وأشـدّ خطرا من كلّ ما يمكن التسـليم بـه، والأكثر مناقضة، بصورة مباشـرة، لقوانين المجتمـع الأساسـية. فبدل أن يكـون من واجب واحد فقـط أن يهلك في سـبيل الجميع، يسـخّر الجميع أملاكهم وأرواحهم للدّفـاع عن كلّ واحد منهم، بحيث يكـون ضعف الفرد دائما تحت حماية القـوّة العامة، وتكون الدولة وصيّة على كلّ فرد. وإذا طرحتم، جدلا، من الشـعب فردا تلو الآخر، ألِحّوا على أصحاب هذه الحِكمة كي يشـرحوا بصورة أفضل ما يقصدونه بجسـد الدولة، وسترونهم يختزلونه في آخر الأمر في نفرٍ قليل من النّاس ليسوا بالشعب، وإنّما هم القائمون به الذين، بعدما تعهّدوا فرادى بالتضحية في سبيله، أضحوا يزعمون أنّه عليه هو أن يضحّي في سبيلهم.

أتريـدون أمثلـة عمّـا يجب علـى الدولة مِـن حمايـةٍ لأفرادهـا واحترام لأشـخاصهم؟ لا تبحثوا عنهـا إلاّ عند أكثر أُمَم الدنيا مجدًا وشـجاعةً، وإنّ قيمة المرء لا تدرَك إلاّ لدى الشعوب الحرّة. لكَم كانت جمهورية **إسبرطة** تشـعر بالحيرة كلّما تعلّق الأمر بمعاقبة مواطـن مذنب. وفي **مقدونيا**، كان لحياة الإنسـان من الأهمّية بحيث لم يكن الملك «إسكندر العظيم» يجرؤ، رغـم جبروته، على إعدام مجرم مقدونيّ بلا رحمـة حتّى يقف المتّهم للدفاع عن نفسه أمام مواطنيه ويقاضونه بأنفسهم. أمّا الرومانيون فقد امتازوا عن كافّة شـعوب الدّنيا بمـا كان يلقاه الأفراد من مراعاة الحكومة لهم، وبانشـغالها الدقيق باحترام الحقوق المصونة لكافّة أفراد الدولة. لا شيء كان أقدس من حياة بسطاء المواطنين ؛ وكان الحكم على أحدهم يستوجب اجتماع كافّة الشعب ليس إلاّ : فلا مجلس الشيوخ ولا القناصلة، بسموّهم وجلالتهم، كان



لهم الحقّ في ذلك، وكانت جريمة المواطن والحكم المسلّط عليه، لدى أعظم شعب في العالم، مأساة عمومية ؛ لذا كان من الصعب إراقة الدماء مهما كانت الجناية، حتّى أنّ قانون **بُرسيا** (Loi Porcia) حوّل الحكم بالإعدام إلى حكم بالنّفي لصالح كلّ من يرغب في البقاء مع خسارته للوطن الوديع. كان حبّ المواطنين بعضهم لبعض يخيّم على **روما** وجيوشها، وكان اللّقب الروماني مصدر شرف واحترام لحامله إذ كان ينمّي شجاعته ويستحثّ فضيلته. كانت قُبّعة المواطن المتحرّر من العبودية وكان الإكليل المدني لمَن أنقذ حياة غيره أفضل ما يشدّ النظر في مواكب النّصر ؛ وممّا يلاحظ أنّ من بين الأكاليل التي كانت تُستعمل أيّام الحرب تمجيدا للأعمال الجليلة، كان الإكليل المدني وإكليل النّصر فقط يتكوّنان من أعشاب وورق، بينما كانت الأكاليل الأخرى من مجرّد ذهب. هكذا كانت **روما** فاضلةً، وهكذا أصبحت سيّدةً على العالم. أيّها القادة الطموحين ! إنّ الراعي يحكم كلابه وقطعانه، وهو لا يعدو أن يكون أخسّ النّاس. فإذا كان جميلا أن نحكم، فإنّ الذي يطيعنا هو الذي يمكن أن يمجّدنا. فاحترموا إذًا أهل وطنكم وستصبحون محلّ احترام ؛ احترموا الحرّية وستزداد قدرتكم كلّ يوم : لا تتجاوزا حقوقكم أبدا، وقريبا تجدونها بلا حدود.

إذًا فليَكن الوطن أُمّا مشتركة لكلّ المواطنين، لتكن المزايا التي ينعمون بها في بلدهم سببا في ردّ الجميل له، لتسمح لهم الحكومة بنصيب كاف من التدبير العمومي حتّى يشعروا بأنّهم في وطنهم، ولتكن القوانين في نظرهم ضامنة للحرّية العامة لا غير. إنّ هذه الحقوق تنتمي إلى كافّة النّاس ؛ ولئن كانت إرادة القادة السيّئة لا تجهر باعتدائها عليها، إلاّ أنّها قد تُبطل مفعولها تماما. وإنّ القانون الذي يُستخدم بتعسّفٍ يكون بين أيدي القويّ سلاحًا للهجوم ودرعًا ضدّ الضعيف، وتظلّ حجّة المصلحة العامة أخطر وباء قد يصيب الشعب. ولعلّ أكثر ما يجب وأشدّ ما يعسر في مجال الحكم إنّما يتمثّل في توخّي النزاهة الشديدة في نشر العدل، وخاصة في حماية الفقير من طغيان الغنيّ. ويكون معظم الشرّ قد حصل بعدُ عندما يبدأ التفكير في الدّفاع عن الفقراء وردع الأثرياء. إنّ القوانين لا حول لها ولا قوّة إلاّ في الأحوال المتوسّطة ؛ إذ تكون عاجزة سواء ضدّ كنوز الثريّ أو ضدّ



عـوَز الفقير ؛ فالأوّل يتحاشــاها، والثاني يفلت منها ؛ أحدهما يحطّم النّســيج، والآخر يتخلّله.

ينبغي إذًا أن يكون شــغل الحكومة الشــاغل الوقاية من حصول تفاوت مفــرط بين الثــروات، ليس بافتــكاك الأملاك من أصحابهــا، وإنّما بمنع الجميع من وســائل تكديســها، ولا ببناء المستشــفيات للفقراء، وإنّما بحفظ المواطنين من الفقر. أن يتمّ توزيع المتساكنين بصورة غير متكافئة على تراب الدولة، فيُحشــرون في مكان بينما تبقى الأماكن الأخرى مهجورة، وأن يتمّ تشــجيع الفنون الترفيهية والصناعية على حســاب الحِرف الشاقة المفيدة، وأن يقع التخلّي عن الفلاحة لصالح التجارة، وأن تصبح الجباية ضرورية بسبب سوء التصــرّف في أموال الدولة، وأخيرا أن يبلغ الارتشــاء أقصاه، حتّى أنّ الإجلال يقاس بالدّراهم والفضائل نفســها تباع بالمال : تلك هي أبرز أســباب الرخاء والفاقــة، والأخذ بالمصلحة الخاصة قبل المصلحــة العامة، والكره المتبادل بين المواطنين، وعدم مبالاتهم بالمصلحة المشــتركة، وفساد الشعب، ووَهن كلّ دواليــب الدولــة. وتلك هي بالتالي الأمراض التي يصعب الشــفاء منها متــى ظهرت، والتي ينبغــي اتّقاؤها بفضل التدبير الحكيم، في ســبيل الجمع بين الأخلاق الحميدة واحترام القوانين وحبّ الوطن والإرادة العامة الحازمة.

لكن قد تكون كلّ هذه الاحتياطات غير كافية إن لم تؤخذ من الأوّل. وأقفل هذا الباب مــن الاقتصاد العمومي بتناول ما كان عليّ تناوله في البدء. فالوطن لا يتسنّى له البقاء بدون الحرّية، ولا الحرّية بدون الفضيلة، ولا الفضيلة بدون المواطنين ؛ ســيكون لك الحظّ في كلّ شــيء إن أنشأت مواطنين، وإلاّ فلن تحصل إلاّ على عبيد أشرار، أوّلهم قادة الدولة. بيْد أنّ تنشئة المواطنين ليست شــغل يوم واحد ؛ ولإتمام تنشــئتهم كبارا، لا بدّ من تعليمهم صغارا. لينطــق أحدكم ويقول إنّ كلّ من يحكم النّاس ليس عليه أن يبحث خارج طبيعتهم عن كمال ليس في متناولهم، وليس عليه أن يسعى إلى إبادة أهوائهم، وأنّ برنامجا كهذا لا تكون الرغبة فيه أكثر من إمكانية تحقيقه. قد أوافق على كلّ هذا، ســيّما أنّ إنســانا بلا أهواء يكون بالتأكيد مواطنا فاشــلا ؛ لكن لا بدّ من التســليم أيضا أنّنا، إذ لا نعلّــم النّاس عدم المحبّة، يمكن أن



نعلّمهم حبّ شيء بدلا من آخر، وحبّ الجميل حقّا بدلا من الدميم. فمثلا لو تمّ تدريبهم باكرا على عدم اعتبار شخصهم إلاّ في علاقته بشخص الدولة، وعلى اعتبار كيانهم جزءا من كيانها، لاستطاعوا في الآخر أن يتماهوا بوجه ما مع ذلك الكلّ الأعظم، وأن يشعروا بأنّهم أعضاء من الوطن، وأن يشعروا تجاهه بذلك الحبّ اللطيف الذي يشعر به كلّ امرئ متوحّد تجاه نفسه، وأن يرفعوا نفوسهم باستمرار إلى ذلك الشيء العظيم، وأن يحوّلوا هكذا ذلك الاستعداد الخطير، الذي تنشأ فيه كلّ رذائلنا، إلى فضيلة سنيّة عالية. وإذا كانت الفلسفة تثبت إمكان هذه التوجّهات الجديدة، فإنّ التاريخ يقدّم على ذلك ألف مثال ساطع : وإذا كانت الأمثلة نادرة عندنا، فلأنّه لا أحد يعبأ بوجود مواطنين، بل لا أحد يفكّر مبكّرا في تنشئتهم. يكون قد فات الأوان كي نغيّر من ميولنا الطبيعية بعدما جرت مجراها واقترنت العادة بحبّ الذات ؛ ويكون قد فات الأوان كي ننفلت من ذواتنا بعدما يتمركز الأنا الإنساني في قلوبنا ويتعاطى ذلك النشاط الحقير الذي يمتصّ كلّ فضيلة ويكوّن حياة النّفوس الدنيئة. كيف يمكن لحبّ الوطن أن يترعرع بين هذا الكمّ من الأهواء التي تضيّق أنفاسه ؟ وماذا يبقى لأهالي الوطن من قلبٍ تقاسمه البُخل بعدُ والغرور والعشيقة ؟

يجب أن نتعلّم كيف نستحقّ العيش منذ اللحظة الأولى في الحياة ؛ وبما أنّنا نشارك في حقوق المواطنين منذ أن نولد، فلا بدّ أن تكون لحظة ميلادنا هي بداية ممارسة واجباتنا. وإذا كان هناك قوانين لسِنّ الرشد، فلا بدّ من قوانين للطفولة، تُعلِّم إطاعة الآخرين ؛ ولمّا كان لا يُترك عقل كلّ إنسان حكَما وحيدا لواجباته، لا يجب أن تُترك تربية الأطفال لعقول آبائهم وأحكامهم المسبقة، سيّما أنّها تهمّ الدولة أكثر ممّا تهمّ الآباء ؛ ذلك أنّ موت الأب، وفقا لمجرى الطبيعة، يختلس منه في الغالب آخر ثمار هذه التربية، بينما يشعر الوطن بآثارها آجلا أو عاجلا ؛ فالدولة تبقى، والعائلة تزول. ولئن أحلّت السلطة العمومية محلّ الآباء وتكفّلت بهذة الوظيفة الهامّة وأوفت بواجباتهم فكسبت حقوقهم، فإنّه لا داعي لهم للتشكّي، سيّما وأنّهم بهذه الصورة لا يغيّرون إلاّ لقبهم، بحيث يصبح لهم معًا، تحت لقب المواطنين، نفس السلطة على أبنائهم التي كانوا يمارسونها على انفصال تحت لقب الآباء، ولن تكون إطاعتهم،



متى تحدّثوا باسم القانون، أقلّ ممّا كانوا يتحدّثون باسم الطبيعة. وعلى ذلك فإنّ التربية العمومية التي تخضع لقواعد تقرّرها الحكومة، ولحكّام ينصّبهم صاحب المُلك، إنّما هي أحد المبادئ الأساسية للحكومة الشعبية أو الشرعية. فلو تربّى الأطفال في كنف المساواة معًا، ولو تشبّعوا بقوانين الدولة ومبادئ الإرادة العامّة وتعلّموا احترامها فوق كلّ شيء، ولو كانت تحيط بهم أمثلة وأشياء لا تنفكّ تخاطبهم عن الأمّ الحنون التي تطعمهم، والحبّ الذي تكنّه لهم، والخيرات التي يتلقّون منها ولا تقدَّر بثمن، والمعروف الذي ينبغي أن يشعروا به حيالها، فلا شكّ أنّهم بهذه الصورة سيتعلّمون حبّ بعضهم بعضا كالإخوة، وألاّ يريدوا أبدا إلاّ ما يريده المجتمع، وأن يستعيضوا عن لغو السوفسطائيين الباطل العقيم بأعمال رجالٍ ومواطنين، وأن يصبحوا يوما ما حُماة الوطن وأربابه بعدما كانوا طويلا أبناءه.

لن أتحدّث عن الحكّام الذين يسهرون على هذه التربية، إذ هي بالتأكيد أهمّ شغل بالنسبة إلى الدولة. ونستشفّ أنّ علامات الثقة العمومية هذه لو مُنحت بلا تروٍّ، ولو لم تكن هذه الوظيفة الجليلة، بالنسبة إلى من أوفوا بكلّ الوظائف الأخرى بجدارة، مكافأةً لأعمالهم ومنصبًا للراحة الكريمة الناعمة في شيخوختهم وقمّة للمجد، لكان المشروع كلّه لا طائل تحته وباءت التربية بالفشل ؛ إذ حيثما يفتقر الدّرس إلى حُجّة، والأمر إلى قُدوة، لا يأتي التعليم ثمرته، والفضيلة نفسها تفقد معناها إذا نطق بها من لا يمارسها. لكن ليُلقِّن أفذاذ المحاربين الذين يرزحون تحت ثقل أكاليلهم معنى الشجاعة، وليعلِّم القضاة النزهاء الذين بَرُؤت ذمّتهم في المحاكم والأرجوان[1] معنى العدل، وسيكون لأولئك وهؤلاء ورثاء فضلاء، وسينقلون عصرا بعد عصر إلى الأجيال اللاحقة خبرة القادة ومهارتهم، وشجاعة المواطنين وفضيلتهم، وتنافس الجميع على العيش والموت في سبيل الوطن.

1- الأرجوان (La pourpre) مادة يستخلص منها اللّون الأرجواني، وهو لون ذو جمال ورونق جعل الملوك والحكّام (في يونان وروما العريقتين كما في بلدان وأزمنة أخرى) يحتكرونه لأنفسهم زينةً لثيابهم وبيوتهم إلخ...



لا أعرف سوى ثلاثة شعوب مارست في الماضي التربية العمومية، الكريتيون والمقدونيون والفُرس القدامى ؛ كان نجاحها عظيما لدى الشعوب الثلاثة، وأتت بالمعجزات لدى الشعبين الأخيرين. ولمّا انقسم العالم إلى أُمم عظيمة لدرجة أنّ حُكمها بصورة جيّدة لم يعُد ممكنا، لم تعد هذه التربية مُتاحة ؛ هذا زيادة على عوامل أخرى، يسهل على القارئ أن يدركها، حالت دونها عند أيّ شعب من الشعوب الحديثة. وأشدّ ما يلفت الانتباه هو أنّ الرومانيين لم يحتاجوا إليها ؛ بيْد أنّ **روما** بقيت طوال خمسمائة سنة عبارة عن معجزة مستمرّة، لا أمل للعالم في مشاهدتها مجدّدا. إنّ فضيلة الرومانيين، إذ تولّدت عن مقتهم للطغيان وجرائم الطغاة وعن حبّهم الفطري للوطن، قد جعلت من كلّ ديارهم مدارس للمواطنين ؛ وإنّ سلطة الآباء اللاّ محدودة على أبنائهم قد خلقت من القسوة في تدبير الشؤون الفردية ما جعل الأب، إذ كان مُهابا أكثر من القضاة، مراقبا للأخلاق في محكمته المنزلية وذائدا عن القوانين.

هكذا تستطيع الحكومة اليقِظة وخالصة النيّة، إذ لا تنفكّ تحضّ الشعب على حبّ الوطن وعلى الأخلاق الحميدة أو تذكّره بها، أن تحمي مبكّرا من الشرور التي تترتّب، طال الزمان أو قصُر، عن عدم اكتراث المواطنين بمصير الجمهورية، وأن تمسك في حدود ضيّقة بتلك المصلحة الشخصية التي تغزل الأفراد لدرجة أنّ الدولة تضعف جرّاء قوّتهم ولا يبقى لها ما يُرجى من طيب إرادتهم. فحيثما وُجد شعبٌ محبٌّ لبلده، شعبٌ يحترم القوانين ويعيش ببساطة، كان الطريق سهلا لجعله سعيدا ؛ وفي الإدارة العمومية، حيث يكون للحظّ دور أقلّ ممّا يلعبه في مصير الأفراد، تكون الحكمة على مقربة من السعادة حتّى أنّهما تختلطان.

III – لا يقف الأمر عند وجود المواطنين وحمايتهم، بل يجب التفكير أيضا في معاشهم ؛ وإنّ توفير الحاجات العمومية إنّما هو استجابة بديهية للإرادة العامة، وهو الواجب الأساسي الثالث للحكومة. وكما يجب أن نفهم، فإنّ هذا الواجب لا يتمثّل في ملء مخازن الخواص وإعفائهم من العمل، وإنّما في إبقاء الوفرة في متناولهم حتّى يكون العمل دائما ضروريا للتمتّع بها



ولا يكــون بلا فائدة أبدا. وهو يمتدّ أيضا إلــى كلّ العمليات المتعلّقة ببيت المــال ومصاريف الإدارة العمومية. وهكــذا بعدما تطرّقنا إلى الاقتصاد العام في علاقته برعاية الأشخاص، بقي أن نتناول علاقته بإدارة الأملاك.

ولا يقدّم هذا الباب من الصعوبات التي ينبغي حلّها والتناقضات المطلوب رفعها أقلّ ممّا في الباب الســابق. ولا شــكّ أنّ حقّ المِلْكيّة إنّما هو أكثر حقوق المواطنين قداســة، بل إنّه بوجه ما أهمّ حتّى من الحرّية نفسها ؛ وذلك إمّا لارتباطه الشــديد بحفظ الحياة، أو لكون الأملاك إنّما اغتصابها يكون أســهل وحمايتهــا أصعب مــن اغتصاب شــخص أوحمايته، بحيــث ينبغي أن يكــون احترامنا أكثر لما يمكن ســلبه بســهولة أكثــر، أو أخيرا لكون الملكيّة هي الأســاس الحقيقي للمجتمع المدنــي والضامن الحقّ لالتزامات المواطنين : إذ لو كانت الأملاك ليست ضامنة للأشخاص، لما وُجد أهْوَن من تحاشي الواجبات وازدراء القوانين. ومن جهة أخرى، فمن الثابت أنّ حفظ الدولــة والحكومــة يتطلّب نفقــات ومصاريف ؛ ولمّــا كان كلّ من يريد الغايــة لا يمكنه أن يرفض الوســيلة، فإنّه يترتّب أنّه لا بــدّ لأعضاء المجتمع مــن الإســهام بأرزاقهم في حفظها. ثــمّ إنّه يصعب ضمــان ملكيّة الأفراد من جهــة دون مهاجمتها من جهة أخرى، ومن المحــال أن تكون كلّ القوانين المتعلّقــة بنظام التّركات والوصايا والعقود غيــر مضجرة بوجه ما للمواطنين بشأن ممتلكاتهم الخاصة، وبالتالي بشأن حقّهم في الملكيّة.

لكــن فضلا عمّــا قلته آنفاً عن التوافق الســائد بين ســلطة القانون وحرّية المواطن، هناك ملاحظة هامّة لا بدّ من ذكرها، تتعلّق بأحكام الأملاك، ومن شــأنها أن ترفــع صعوبات جمّــة. ذلك أنّ حــقّ الملكيّــة، كما بيّن «بوفنــدورف»[1]، لا يتواصل بطبعه بعــد حياة المالك، إذ حالمــا يتوفّى تخرج أملاكه من حوزته. وعلى ذلك فإنّ إقرار شــروط تصرّفه فيها إنّما هو توسيعٌ لحقّه وليس تشويها كما يبدو في الظاهر.

1- «بوفندورف» Samuel von Pufendorf : فيلســوف ومــؤرّخ ورجل قانون ألماني، عاش من 1632 إلى 1694، وهو أحد أقطاب مدرسة الحق الطبيعي. أهمّ كتاب ألّفه هو : **الحق الطبيعي وحق النّاس** De Jure naturae et gentium (1672).



ورغم أنّ سـنّ القوانيـن المنظِّمة لحقّ الأفراد في التصـرّف في أملاكهم الخاصة يكون من مشـمولات صاحب السـلطة، فعموما مـا تفيد روح هذه القوانين التي ينبغي أن تسـهر الحكومة على تطبيقها بأن تبقى الممتلكات، خلَفا عن سـلف، في دائرة العائلة قدر الإمـكان وألاّ تُرتهن. ويوجد لذلك سـبب ملموس يخدم صالح الأبناء، إذ يكون حقّهم في التملّك بلا جدوى إن كانوا لا يرثون شـيئا عن أبيهم، ولأنّهم فضلا عن ذلك غالبا ما يسهمون بعملهـم في كسـب أرزاق الأب فيكونون شـركاء معه فـي حقّه. لكن هناك سـبب بعيد آخر لا يقلّ أهمّية، وهو أنّه لا شيء يكون أشدّ وبالاً على الأخـلاق وعلى الجمهورية من التغيّرات المسـتمرّة التي قد تطرأ على أحوال المواطنيـن وثرواتهـم ؛ وتكون هـذه التغيّرات حجّة ومصدرا لشـتّى البلابل القالبة والمشوّشة لكلّ الأوضاع، فإذا بالذين تربّوا لأجل غاية يجدون ضالّتهم فـي غاية آخـر، فلا الذين يصعدون ولا الذين ينزلون يسـتطيعون السّـير على مقتضـى القواعد والأضـواء الملائمة لوضعهم الجديـد، ولا حتّى أن يلتزموا بواجباته. أنتقل إلى موضوع الماليّة العمومية.

لو حَكم الشـعب نفسـه بنفسـه ولم يوجد أيّ وسـيط بيـن إدارة الدولة والمواطنين، لكان عليهم أن يسهموا فقط في النفقات المشتركة متى اقتضى الحال، حسب الحاجات العمومية وحسب قدرات الأفراد الماليّة ؛ وبما أنّه لن يغرب عن بال أيّ واحد أبدا اسـترجاع الأموال العامّة واسـتخدامها، فإنّها لن يطالهـا لا تحيّلٌ ولا تجاوزٌ : لن تصبح الدولة أبدا مثقلَة بالدّيون، ولا الشـعب منهَكا بالضرائب، أو على الأقلّ سـيجد في الشـغل القارّ مواساة على قساوة الضريبـة. إلاّ أنّ الأمور لا تجري بهذه الصورة، ومهما كانت الدولة محدودة فـإنّ المجتمع المدني يكون علـى درجة من الكثرة بحيـث لا يمكـن أن يحكمـه كلّ أفراده. فلا بـدّ أن تمرّ الأموال العموميـة بالضرورة بين أيدي القادة، الذين يملكون جميعا، فضلا عن مصلحة الدولة، مصلحة شـخصية، وهي ليست آخر ما يُنتصت إليه. وأمّا الشعب من جهته، إذ يدرك جشع القادة ونفقاتهـم المفرطة أكثر ممّا يـدرك الحاجات العمومية، فهـو يتذمّر ممّن يُجرِّدونه من الضروريات ويزيدون إلى كماليات غيره ؛ وبعدما يغتاظ إلى حدٍّ ما من هذه التصرّفات، لن تسترجع ثقته أيّة إدارة مهما كانت نزاهتها. وبالتالي



فإذا كانت المساهمات نابعة من الإرادة، كان إنتاجها صفرا، وإذا كانت إجبارية، كانت غير شرعية ؛ إنّ معضلة تأسيس إقتصادٍ حكيم وعادل تتمثّل في هذا الخيار الأليم : إمّا أن نترك الدولة تهلك، أو أن نتعدّى على حقّ الملكيّة المقدّس إذ هو عُمدتها.

أوّل ما ينبغي أن يقوم به مؤسّس الجمهورية، بعد أن يضع القوانين، هو البحث عن رصيد ماليّ كاف للإنفاق على القضاة وغيرهم من أصحاب الرّتب والمناصب، كما للنفقات العمومية. يُطلق على هذا الرصيد إيراريوم (rariumœ) أو بيت المال إذا كان يتألّف من المال، وأملاكا عمومية إذا كان يتألّف من الأراضي ؛ وهذا أفضل كثيرا من الآخر لأسباب يسهل فهمها. وكلّ من يفكّر مليّا في هذا الموضوع لا يسعه إلاّ أن يشاطر رأي «بودان»[1]، الذي كان يرى في الأملاك العمومية أفضل الطرق نزاهة وأمنا لتدبير حاجيات الدولة ؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ أوّل ما راعاه «روميليس»[2] في تقسيم الأراضي هو تسخيره ثلثها لهذا الغرض. أعترف بأنّ الأملاك، إذا ساءت إدارتها، قد لا تُنتج شيئا يُذكر، لكن ليس من طبيعة الأملاك أن تُساء إدارتها.

قبل أيّ استعمال، يجب أن يقرَّر الرصيد أو يصادَق عليه من قِبل مجلس الشعب أو مجلس ولايات البلد، وأن يحدِّد المجلس بعد ذلك سُبل استعماله. وعلى إثر هذه الاحتفالية التي تجعل الرصيد غير قابل للتصرّف فيه، تتغيّر هكذا طبيعته وتصبح محاصيله مقدّسة لدرجة أنّ تحويل أدنى قدر منه على غير مجراه إنّما ذلك يُعَدّ، لا فقط أكثر السرقات شناعة، بل أيضا جناية على الملك. عارٌ كبير لحق روما يوم كانت نزاهة مراقب الماليّة «كاتون»[3]

1- «جان بودان» Jean Bodin : فيلسوف ورجل سياسة وقانون فرنسي، عاش من 1529 إلى 1596، وأصدر سنة 1577 كتاب **ستّة مباحث في الجمهورية** (Les Six Livres de la République) حيث ينظّر للحكم الملكي المطلق ويدعو للفصل بين الدّين والدولة.

2- «روميليس» Romulus : مؤسس مدينة روما في القديم، ولعلّه مجرّد شخصية أسطورية.

3- «كاتون» Caton : رجل دولة وكاتب روماني، عاش من 234 ق.م. إلى 149 ق.م.؛ شغل خطّة مراقب عام سنة 184 ق.م. وكان جادّا وقاسيا حتّى أنّه رُفع له تمثال نُقش عليه : «إلى «كاتون»، الذي هذّب الأخلاق».



موضـــوع تعليـــق، ويوم احتاج إمبراطـــور، كان بصدد مكافـــأة مطرب ماهر ببعض الريـــالات، أن يضيف أنّ هذا المال من خزينـــة عائلته وليس من خزينة الدولة. لكن إذا كان أمثال «غالبا»[1] قلّة، فأين ســـنبحث عن أمثال «كاتون» ؟ وإذا كفّت الرذيلة عن أن تكون مصدر عار، فمن هم القادة الذين ســـيمنعهم ضميرهـــم من النّهل من المداخيل العمومية المتروكة تحت تصرّفهم، والذين لن يوظّفوا منها لأنفســـهم نصيبا، مازجين بيـــن تبذيرهم الباطل الفاضح ومجد الدولة، بين وســـائل توسيع نفوذهم ووسائل توســـيع عظمتها ؟ ففي هذا الفرع الحسّـــاس من الإدارة تكون الفضيلة وحدهـــا الأداة الناجعة، وتكون نزاهة الحاكـــم الحائل الوحيد دون وقوعـــه في التقتير. إنّ دفاتـــر وكلاء الأعمال وكلّ ســـجلاّت حســـاباتهم لا تصلح لفضح خيانتهم بقدر ما تصلح لسترها ؛ ولا يكون الإنسان الحذر أسرع أبدا في تصوّر احتياطات جديدة، ممّا يكون المحتال فـــي مراوغتها. اُتركوا إذًا الدفاتـــر والأوراق، وضعوا الماليّة بين أيادٍ آمنةٍ ؛ فتلك هي الطريقة الوحيدة لإدارتها بإخلاص.

وبعدمـــا يتمّ رصد الأموال العمومية، يتولّى رؤســـاء الدولـــة إدارتها بصورة قانونيـــة ؛ ذلك أنّ إدارتها جزء لا يتجزّأ مـــن الحُكم، وجزء جوهري مع أنّه دائما متغيّر: فتأثيره يزداد طردًا مع تناقص تأثير الذرائع الأخرى ؛ ويجوز القول إنّ الحكومـــة تكـــون قد بلغت أقصى درجة من الفســـاد عندمـــا لا يبقى لها محـــرّك آخر غيـــر المال : ولمّا كانـــت كلّ حكومة تميل باســـتمرار إلى الارتخاء، فإنّ هذا الســـبب وحده يبيّن لماذا يتعذّر على كلّ دولة البقاء ما لم تتطوّر مداخيلها دون انقطاع.

ويكون أوّل إحســـاس بضرورة هذا التطوّر علامـــة أولى على الاضطراب الداخلي للدولة : ولا يفوت المدير الحصيف، إذ يفكّر في إيجاد المال لســـدّ الحاجة الحاضرة، أن يتقصّى السبب البعيد لهذه الحاجة الجديدة : شأن البحّار الذي يرى المياه تغمر ســـفينته فلا ينســـى، بينما يشـــغّل المضخّات، أن يبحث أيضا عن الثقب ويسدّه.

1- «غَالبا» Galba : إمبراطور روماني عاش من سنة 3 ق.م. إلى سنة 69 بعد الميلاد.



ويترتّب على هذه القاعدة أهمّ مبدأ للإدارة الماليّة، وهو السّهر بعناية أكثر على تحسّب الحاجات بدلا من مضاعفة المداخيل ؛ إذ مهما بلغ الجهدُ، فإنّ النّجدة إذ تحلّ ببطء بعدما يحصل الشرّ، تترك الدولة دائما في وضع أليم : فبينما يقع التفكير في معالجة عيبٍ، يظهر عيبٌ آخر في الحال، وتُنتج الموارد نفسها عيوبا جديدة، فتُثقل الدّيون في الآخر كاهل الأمّة، ويُداس الشعب، وتفقد الحكومة كامل حيويّتها فتصبح لا تأتي إلاّ القليل بالمال الكثير. وأعتقد أنّ هذا المبدأ العظيم هو مصدر الخوارق التي شهدتها الحكومات القديمة، إذ كانت تأتي الكثير بشحّها وتقتيرها ممّا تأتيه حكوماتنا بكلّ ثرواتها ؛ ولعلّ من هنا يُشتقّ المعنى العامّي للفظ الاقتصاد، إذ يُقصد به التدبير الحكيم لما نملكه، أكثر منه وسائل كسب ما لا نملكه.

وبقطع النظر عن الأملاك العمومية التي تعود بالنّفع على الدولة بقدر ما يتحلّى مديروها بالنزاهة، فلو كانت لنا معرفة كافية بكامل قوّة الإدارة العامّة، سيّما عندما تقتصر على الطرق الشرعية، لاندهشنا ممّا للرؤساء من حيَل لسدّ كلّ الحاجات العمومية دون المسّ بممتلكات الأفراد. فبما أنّهم أرباب التجارة في الدولة، فلا شيء أهون عليهم من تسييرها بما يستجيب لكلّ شيء، وفي الغالب دون أن يظهر تدخّلهم في الأمر. إنّ توزيع الموادّ الغذائية والأموال والسّلع بمقادير عادلة، حسب الزمان والمكان، إنّما ذلك هو سرّ الماليّة الحقيقي، وهو مصدر ثرائها، شريطة أن يشيّع مُديروها نظرهم بعيدا، وأن يقبلوا أحيانا بخسارة ظاهرة قريبة من أجل أرباح طائلة حقيقية في زمن لاحق بعيد. وعندما نرى حكومة تدفع معاليم بدلا من قبضها، في سبيل تصدير القمح أعوام الوفرة وتوريده أعوام القحط، نكاد لا نصّدق بذلك ما لم نشهد الأمر بأعيننا، وقد نعزوه إلى الرومانيين لو كان حدث في القديم. لنفرض أنّه يتمّ، تحسّبا للمجاعة أعوام القحط، إقامة مخازن عمومية، فكم هو عدد البلدان التي لن تصبح فيها صيانة مثل هذه المؤسسات النافعة جدّا تعلّةً لإقرار ضرائب جديدة ؟ ففي **جنيف**، تمثّل هذه المخازن، القائمة على إدارة حكيمة تصونها، موردا عموميا في سنوات القحط، ومورد الدولة الرئيسي في



كلّ زمــان. **أليت وديتات**[1]، ذاك هو النّقــش العادل الجميل الذي نقرأه على واجهة المبنى. فللحديــث هنا عن النظام الاقتصادي لحكومة جيّدة، غالبا ما صوّبت نظري تجاه هذه الجمهورية : سعيدا بأن وجدت هكذا في وطني مثال الحكمة والسعادة اللّتين أودّ رؤيتهما سائدتين في كلّ بلد.

لو تأمّلنا كيف تزداد حاجيات الدولة، لتبيّنا أنّ شــأنها في الغالب هو شأن الأفراد تقريبا، أي أنّ ذلك لا يحدث بموجب ضرورة حقيقية بقدر ما يحدث بسـبب تفاقم الرغبات الباطلــة، وأنّ في الغالب لا تتــمّ الزيادة في المصاريف إلاّ تعلّــةً للزيادة في المحاصيل ؛ حتّــى أنّ الدولة قد تجني ربحا أحيانا متى لم ترغـب في الإثراء، وحتّى أنّ ثراءها الظاهر قـد يكلّفها في الواقع أكثر ممّا يكلّفهــا الفقر ذاتــه. صحيح أنّ ما يتمنّاه بعضهم هو إبقاء الشــعوب في تبعيّة أكثر، وذلك بإعطائهم باليد اليُمنى ما أُخذ منهم باليُسرى، فهذه السياسة هي التي توخّاها «يوسف» مع المصريين ؛ إلاّ أنّ هذه السفسطة الباطلة تعود بالوبال على الدولة باعتبار أنّ المال لا يعود إلى نفس الأيدي التي خرج منها، وباعتبار أنّ مثل هذه المبادئ لا تُثري إلاّ الكسالى الذين يسلبون الرجال الصالحين.

ومن أشدّ أسباب هذه الزيادة بروزا وخطورة، الميل إلى الغزو. فهذا الميل، إذ يتولّد عادة عن طموح آخر غير الذي يُعلن عنه، لا يكون على نحو ما يبدو عليه دائما، كما أنّ ســببه الحقيقي ليس هو الرغبة الظاهرة في توســيع الأمّة بقدر ما هو الرغبة الخفيّة في الزيادة من ســلطة الرؤســاء بالداخل، بالزيادة في عدد الجنود وبمناسبة انشغال أذهان المواطنين بشؤون الحرب.

لكن ما يبدو مؤكّدا جدّا على الأقلّ هو أنّه لا يوجد شعبٌ بائس مُداس أكثر من الشعوب الغازية، وأنّ نجاحاتها لا تزيد إلاّ في بؤسها : وإن لم يعلّمنا التاريــخ ذلك، فإنّ العقل يكفي لإثبــات أنّ الدولة كلّما عظُمت أصبحت نفقاتهــا طــردًا مرتفعة وباهظة ؛ لأنّــه يجب على كلّ المقاطعات أن تســاهم بوحداتها العسكرية، على حساب الإدارة العامة، فضلا عمّا تنفقه كلّ مقاطعة على إدارتها الخاصة كما لو كانت مستقلّة. زِدْ أنّ كلّ الثروات تنشــأ في

1- **أليت وديتات** Alit et Ditat : «يُغذّي ويُثري».



مكان وتُستهلك في آخر، ممّا يُفقد التوازن بين المنتوج والمستهلَك ويُفقر العديد من البلدان ليُثري مدينةً واحدةً.

ويوجد سبب آخر، مرتبط بالسابق، لتزايد الحاجيات العمومية. فقد يحدث في فترة من الفترات أن يعرض المواطنون عن المصلحة المشتركة ويكفّوا عن الذّود عن الوطن، وأن يركَن الحكّام إلى تسيير رجال من المرتزقة بدلا من الأحرار، وإن كان ذلك لمجرّد استخدام الأوّلين، في الظرف المناسب، لإخضاع الآخرين. هكذا كانت دولة **روما** في أفول الجمهورية وتحت حكم الإمبراطوريين ؛ ذلك أنّ كلّ انتصارات الرومانيين الأوائل، كما انتصارات ‹الإسكندر›[1]، قد تحقّقت بفضل مواطنين باسلين كانوا على استعداد لبذل دمائهم في سبيل الوطن، لكن ليس لبيعها أبدا. كان ‹ماريوس› أوّل من جلب العار للفيالق في حرب ‹يوغرطة›[2] إذ أدمج فيها المعتَقين والمتشرّدين ومرتزقة آخرين. أضحى الطغاة أعداء للشعوب التي كانوا تكفّلوا بإسعادها، فكوّنوا فِرقا منظّمة للحماية من الأجانب في الظاهر، لكن لقهر أهل البلد في الواقع. ولتكوين هذه الفرق، كان لا بدّ من إخلاء الأراضي من فلاّحيها، ممّا أثّر على جودة الحاصلات الزراعية، وممّا جعل صيانتها تستوجب من الضرائب ما زاد في سعرها. كان هذا الاختلال الأوّل دافعا لتذمّر الشعوب، فكان لا بدّ من مضاعفة فِرق الجنود لقمعها، ومن تعميق البؤس بالتالي ؛ وكلّما زاد اليأس، كان لا بدّ من الإضافة إليه، درءًا لاستتباعاته. ومن جهة أخرى فإنّ هؤلاء المرتزقة، إذ كانوا يُقدَّرون على أساس الثمن الذي يبيعون به أنفسهم، كانوا يفخرون بمذلّتهم، ويحتقرون القوانين التي كانت تحميهم وإخوتهم الذين كانوا يطعمونهم، فظنّوا أنفسهم أقرب إلى المجد بالحوْم حول ‹قيصر› ممّا بالدّفاع عن **روما** ؛ كانوا يطيعون طاعة عمياء، رافعين خناجرهم على

1- ‹الإسكندر› : هو ‹إسكندر المقدوني› أو ‹إسكندر العظيم›، أحد أشهر الغزاة الذين شهدهم التاريخ، عاش من 356 ق.م. إلى 323 ق.م.

2- ‹كايوس ماريوس› Marius Caius : جنرال ورجل دولة روماني، عاش من 157 ق.م. إلى 86 ق.م. وعُرف بالإصلاحات التي قام بها في صلب الجيش الروماني.
‹يوغرطة› Jugurtha : ملك نوميدي، حفيد ‹ماسينيسا› ؛ وُلد في 160 ق.م. ومات في 104 ق.م. ؛ عُرف بمقاومته الشديدة للرومانيين.



مواطنيهم، رهنَ الإشارة لذبحهم جميعا. قد لا يصعب أن نبيّن أنّ ذلك كان أحد الأسباب الرئيسية في خراب الإمبراطورية الرومانية.

إنّ اختراع المدفعيّة والحصون قد أرغم ملوك **أوروبا**، في أيّامنا هذه، على إعادة استخدام فِرق الجنود المنظّمة للمحافظة على مواضعهم ؛ وحتّى لو كانت الدوافع تتّسم بمشروعية أكثر، فإنّ ما يُخشى هو أن تكون النتيجة على نفس الدرجة من الشؤم ؛ إذ لا بدّ في كلّ الحالات من إخلاء الأرياف من سكّانها من أجل تكوين جيوش وحاميات ؛ ولا بدّ، لرعايتها، من الدّوس على الشعوب ؛ ومنذ زمنٍ، أخذت هذه المشآت الخطِرة في التكاثر السريع في كلّ ربوعنا، حتّى أنّ كلّ ما يمكن توقّعه هو إقفار **أوروبا** قريبا، وهلاك شعوبها عاجلا أو آجلا.

ومهما كان الأمر، فإنّ ما تجدر ملاحظته هو أنّ مثل هذه المنشآت تقلب بالضرورة النظام الاقتصادي الحقيقي الذي يستمدُّ مدخولَ الدولة الرئيسي من الأملاك العمومية، ولا تترك سوى المورد الوخيم للجبايات والضرائب، وهو ما بقي لي تناوله.

يجب أن نتذكّر هنا أنّ أساس الميثاق الاجتماعي إنّما هو المِلكيّة، وأنّ شرطه الأوّل هو أن يظلّ كلّ واحد ينعم في سلام بما يملكه. لا شكّ أنّ العهد نفسه يُلزم كلّ فرد، على الأقلّ بصورة مضمرة، بأن يُسهم في الحاجات العمومية ؛ لكن لمّا كان هذا الالتزام لا يضرّ بالقانون الأساسي، وعلى اعتبارأنّ الذين يدفعون الضرائب يعترفون بصدق الحاجة إليها، فإنّا نرى أنّ هذا الإسهام، كي يتّصف بالشرعية، لا بدّ أن يكون إراديّا، ليس بصورة فردية كما لو كان يجب الحصول على موافقة كلّ مواطن وكما لو كان عليه أن يسهم فقط بما يحلو له (فهذا يناقض مباشرة روح الحِلاف والاتّحاد)، وإنّما بناء على إرادة عامّة وعلى تعدّد الأصوات، كما على تعريفة تناسبية لا تترك مجالا لتعسّف الضريبة.



هذه الحقيقة التي تنصّ على أنّ الضرائب لا يمكن أن تقرَّر بصورة شرعيّة إلاّ بعد مصادقة الشعب أو ممثّليه، إنّما أقرّها عموما كلّ الفلاسفة وفقهاء القانون الذين اشتهروا بعلمهم في مجال الحقّ السياسي، دون استثناء «بودان» نفسه. ولئن وضع بعضهم مبادئ مخالفة في الظاهر، إلاّ أنّهم، فضلا عمّا يسهل أن نراه من دوافع شخصية حملتهم على ذلك، يضعون من الشروط والقيود ما يجعل الأمر لا يختلف بتاتا في الواقع : إذ كون الشعب يستطيع أن يرفض، أو كون الملك ليس عليه أن يفرض، فهذا الأمران سيّان بالنظر إلى الحقّ؛ وإذا كان الأمر يتعلّق بالقوّة لا غير، فلا جدوى إطلاقا من تأمّل ما يكون مشروعا وما لا يكون.

وإنّ الضرائب التي تُجبى من الشعب نوعان : بعضها عينيّة تُجبى على الأشياء، وبعضها شخصيّة تُفرض على كلّ فرد. ويطلق على هذه وتلك الجباية أو الإتاوة : تُسمّى إتاوة عندما يحدِّد الشعب مقدار ما يُخرجه، وتُسمّى جباية عندما يُخرج كامل مبلغ الضريبة. ونقرأ في كتاب **روح الشرائع**[1] أنّ الضريبة على الأفراد أخصّ بالعبودية، والضريبة العينيّة أكثر مواءمة للحرّيّة. وقد لا نرتاب في ذلك إذا كانت حِصص الأفراد في الضريبة متساوية، إذ تكون مثل هذه الضريبة في غاية عدم التناسب ؛ فروح الحرّية إنّما تكمن في احترام النِّسب بكامل الدقّة. وتكون الضريبة على الأفراد مناسِبة تماما لمواردهم، شأن الضريبة التي يطلق عليها في **فرنسا** اسم الضريبة الرأسيّة، باعتبارها هكذا ضريبة عينيّة وشخصيّة معًا ؛ فهي أكثر الضرائب عدلا، وبالتالي أكثرها ملاءمة لأناس أحرار. ويبدو احترام هذه النِّسب، أوّل الأمر، في غاية السهولة، إذ لمّا كانت تتعلّق بالمهنة التي يقوم بها كلّ واحد في الدّنيا، فإنّ البيانات تكون دائما عمومية ؛ غير أنّه، فضلا عن التملّص ممّا لا مناص منه، بدافع الشحّ والدّيْن والتزوير، فإنّه يندر أن تُحسب في تلك البيانات كلّ العناصر التي ينبغي احتسابها. أوّلا، يجب اعتبار نسبة المقادير إذ تفرِض، عند تكافؤ الأمور، أن يدفع من كان يملك عشرة أضعاف ما يملكه غيره، عشرة أضعاف ما يدفعه. وثانيا، لا بدّ من اعتبار نسبة الاستعمال،

1- هو كتاب «منتسكيو» Montesquieu, *De l'esprit des lois* (1748)



أي التمييز بين ما هو ضروري وما هو من الكماليات. فمن كان لا يملك سوى الضروري، لا واجب عليه بالدّفع إطلاقا ؛ أمّا الذي يملك ما يزيد عن حاجته، فقد تطال ضريبته، إذا اقتضى الأمر، كلّ ما يزيد على الضرورة. لعلّه سيقول، بالنظر إلى منصبه، إنّ ما يكون زائدا على الحاجة عند الإنسان الأدنى إنّما هو ضروري بالنّسبة إليه ؛ لكن هذه أكذوبة : لأنّ شريف القوم يملك ساقين اثنين، شأنه شأن راعي البقر، ويملك بطْناً واحدا، ليس أكثر منه أيضا. ثمّ إنّ ما يراه ضروريا إنّما هو يفيده في منصبه بدرجة قليلة جدّا حتّى أنّه لو تنازل عنه لغرض شريف لزاد احترام النّاس له. قد يسجد الشعب أمام وزير يذهب إلى المجلس على قدميه بعد ما باع عربته الفاخرة بدافع ملحٍّ من الدولة. وأخيرا فإنّ الدولة لا تطلب البهاء من أحد، ولا تكون اللّياقة حجّة ضدّ الحقّ أبدا.

هناك نسبة ثالثة يقع إهمالها دائما، مع أنّها ينبغي أن تكون الأولى في الحسبان، هي نسبة الفوائد التي يجنيها كلّ واحد من الكنفدرالية الاجتماعية، التي تحمي جدّا أملاك الثريّ الشاسعة، وتكاد لا تترك الشقيّ يتمتّع بالكوخ الذي بناه بيدَيْه. أليست مزايا المجتمع كلّها من نصيب العظماء والأثرياء ؟ أليسوا وحدهم من يشغل الوظائف المُربِحة ؟ أليسوا وحدهم دون سواهم موضوع كلّ عطف وكلّ استثناء ؟ أليست السلطة العمومية كلّها في خدمتهم ؟ وإذا احتال رجل ذو شأن على دائنه أو قام بأعمال نصب أخرى، ألا يكون دائما بمأن من القصاص ؟ وإذا أشبع غيره ضربا بالعصا واقترف أعمال عنفٍ، بل إذا اغتال وقتل، ألا يقع إخماد هذه الأمور، فإذا مرّت ستّة أشهر دخلت طيّ النسيان ؟ أمّا إذا تمّ سلبه هو بالذات، تحرّكت في الحال الشرطة برمّتها، ويا ويْل الأبرياء الذين سيَشتبِه فيهم. أيمرّ بمكان غير آمن؟ ها أنّ الحرس يحيطون به من كلّ جانب. أينكسر جُزع كرسيّه ؟ ها أنّ الجميع يهرعون لنجدته. أيحدث ضجيج أمام بيته ؟ ينطق بكلمة واحدة فيسود الهدوء. أتزعجه الزحمة ؟ يقوم بإشارة فيصطفّ الجميع. أيسدّ طريقه سائق عربة ؟ ها أنّ رجاله يبرحونه ضربا ؛ فأن يُسحَق خمسون من المترجّلين الصالحين القاصدين إلى شؤونهم أهوَن من أن يتأخّر موكب شخص تافه فارغ. كلّ هذه المراعاة لا تكلّفه فلسًا واحدًا، فهي حقّ الإنسان الثريّ،



وليسـت جزاء الثراء. أمّا الفقير، فما أبعدَ صورته عن هذه ! فعلى قدر ما تدينُ له الإنسانية، يبخل عليه المجتمع : توصد في وجهه كلّ الأبواب، وإن كان من حقّه أن يفتحها جميعا ؛ وإذا تمّ إنصافه أحيانا، كان ذلك بمشـقّة أكثر من مشـقّة غيره الذي يفوز بالعفو ؛ وإذا وُجـد عمل مرهق، أو كان لا بدّ من اقتـراع جيـش وقتيّ، وقع الاختيـار عليه ؛ وفضلا عمّا يحملـه من عبء، تراه يحمل دائما عبء جاره الثريّ الذي يحظى بالإعفاء منه ؛ إذا أصابه أقلّ حادث، ابتعد عنه الجميع ؛ وإذا انقلبت عربته المسـكينة، فعوض أن يلقى المساعدة، تراه محظوظا لو نجا من إهانات عملاء دوقٍ[1] شـابٍّ وتهافتهم عليه ؛ وباختصار فإنّه لا يلقى أيّ مسـاعدة مجانية متى احتاج لهـا، لأنّه لا يملك ما يدفعه في المقابل ؛ وقد يُكتب له الضياع لو شـاء حظّه النّحس أن يكون طاهِر الذّيْل، وأن يكون له جارٌ واسع الذّراع وابنةٌ حسناء.

ولا بدّ من الانتباه إلى أمر آخر لا يقلّ أهمّية، وهو أنّ تعويض خسائر الفقراء يكون أصعب من تعويض خسـائر الأثرياء، وعناء الكسـب يشـتدّ طردًا مع شـدّة الحاجة. إنّنا لا نأتي شيئا من لا شيء : ويصدق ذلك في الأعمال مثلما يصدق في الطبيعيات ؛ فالأموال تولّد الأموال، وقد يكون ربح البَستول[2] الأوّل أشـقّ أحيانـا من ربح المليـون الثاني. وهناك ما هو أدهـى: وهو أنّ كلّ ما يدفعه الفقير لا يسـترجعه أبدا، بل يعود إلـى الغنيّ ويبقى عنده ؛ ولمّا كانت حصيلة الضرائب تعود، إن عاجلا أو آجلا، إلى الأشـخاص الذين يشاركون في الحكم أو المقرّبين منه دون سواهم، فإنّ مصلحتهم تكون في مضاعفتها، وإن كانوا يدفعون حصّتهم.

لنلخّـص في أربـع كلمات التعاقد الاجتماعي بيـن كلا الطرفين. **فأنت تحتـاج لـي، لكوني غنيّـا ولكونك فقيـرا؛ فلنتّفـق إذًا على أمرٍ: سأسـمح بأن ينالك شـرف خدمتي، بشـرط أن تقدّم لـي القليل الذي بقي لـكَ، مقابل العناء الذي سأتكبّده في تولّي أمرك.**

1- دوق Duc : لقب شرف في فرنسا وبعض بلدان أوروبا.

2- بستول Pistole : عُملة ذهبيّة أوروبية.



لو رتّبنا كلّ هذه الأمور جيّدا، لتبيّنّا أنّ تقسيط الضرائب بطريقة عادلة ومتناسبة حقّا يفترض ألاّ يكون دفع الضريبة فقط على أساس أملاك المكلَّفين، بل أيضا على أساس اختلاف أوضاعهم وزيادة أملاكهم على الحاجة. عمليّةٌ جدُّ هامّة وجدُّ شاقّة يقوم بها كلّ يوم عددٌ من الموظّفين النّزهاء العارفين بالأرثمطيقا، لكن ما كان لـ«أفلاطون» و«منتسكيو» أن يقوما بها دون أن يرتعدا ويطلبا من السّماء مزيدا من العلم والنزاهة.

وهناك عيْبٌ آخر للضريبة الشخصية، يتمثّل في شدّة وطأتها وقسوة جبايتها، ممّا يحول دون جدواها، لأنّه أهون على المرء أن يتملّص من جدْول المكلَّفين وأن ينجو بنفسه من التتبّعات، من أن يفعل ذلك بممتلكاته. ومن بين كلّ الجبايات الأخرى، كانت الجباية على الأراضي أو الجباية العينيّة تُعتبر دائما الأكثر إفادة في البلدان التي تُعنى بموفور الإنتاج وضمان التغطية أكثر ممّا بأقلّ مضايقة للشعب. ولم يخْشَ بعضهم حتّى أن يقول إنّه لا بدّ من إثقال كاهل الفلاّح كي ينهض من كسله، وإنّه لن يحرّك ساكنا ما لم يكن مطالَبا بدفع أيّ شيء. إلاّ أنّ التجربة تكذّب هذه القاعدة السخيفة لدى كلّ شعوب العالم : إذ في **هولندا وإنغلترا**، حيث يدفع المزارع القليل جدّا، وفي **الصّين** حيث لا يدفع شيئا يُذكر، تتمّ زراعة الأرض على أحسن وجه. وعلى العكس، كلّما أُثقل كاهل الفلاّح طردًا مع ما أنتجه حقله، تركه بائرا أو وفّر منه بالضبط ما يقيم أوْده. ذلك أنّ الذي يخسر ثمرة جُهده، يكون رابحا متى لم يجتهد ؛ ووضعُ غرامةٍ على العمل إنّما هذه طريقةٌ جدُّ غريبة للقضاء على الكسل.

وينتج عن الضريبة على الأراضي أو على القمح، سيّما إذا كانت مفرطة، ضرران فظيعان لدرجة أنّهما يتسبّبان، مع مرور الزمن، في خراب كلّ البلدان التي تُجبى فيها وفي إخلائها من سكّانها.

يترتّب الضرر الأوّل عن عدم تداول النّقود، لأنّ التجارة والصناعة تجلبان للعواصم كلّ أموال الرّيف ؛ وبما أنّ الضريبة تقضي على النّسبة التي قد لا تزال بعدُ موجودة بين حاجيات الفلاّح وسعر القمح عنده، فإنّ المال يأتي



دائما ولا يعود أبدا ؛ وكلّما زادت المدينة ثراء، زاد البلد بؤسا. وتنتقل حصيلة الضرائب من أيدي الأمير أو المُتاجر بالأموال إلى أيدي الفنّانين والتجّار ؛ أمّا المزارع، إذ لا يغنم منها أبدا سوى مقدار ضئيل، فهو ينهك من دفع نفس المعلوم دائما وقبض الأقلّ باستمرار. كيف تريدون أن يعيش إنسانٌ يملك أوْردة ولا يملك شرايين، أو تحمل شرايينه الدّم إلى القلب وتتوقّف قبل بلوغه بمسافة قليلة ؟ قال «شردان»[1] إنّ حقوق الملك على المؤونة، في **بلاد فارس**، كانت تُدفع له من ذات المؤونة ؛ وعلى حدّ شهادة «هيرودوت»[2]، لقد جرت هذه العادة في نفس البلد حتّى «داريوس»[3]، وهي قد تساعد على اتّقاء الشرّ الذي تحدّثتُ عنه. لكن أكاد لا أصدّق أنّ الملك يصله أدنى جزء من الحاصلات، وأنّ القموح لا تتعفّن في المطامير، وأنّ النّار لا تتلف معظم المخازن، اللّهمّ إذا كان الأمناء والمديرون والموظّفون وحرّاس المخازن في **بلاد فارس** نوعا آخر من البشر غير الذين يوجدون في كلّ مكان.

ويترتّب الضرر الثاني عن فائدة وهميّة تترك الشرّ يتفاقم قبل أن يقع التفطّن ليه. وهي أنّ القمح مادّة غذائية لا ترفع الجبايةُ من سعرها في البلد الذي يُنتجها، ورغم أنّها مادّة ضرورية تماما إلاّ أنّ كمّيتها قد تنقص دون أن يرتفع ثمنها ؛ ممّا يجعل الكثير من النّاس يموتون جوعًا بينما لا يزال ثمن القمح رخيصا، وممّا يترك عبء الضريبة على كاهل الفلاّح وحده إذ لا يستطيع أن يطرحها من سعر البيع. ولا بدّ أن نحذر من الخلط بين الضريبة العينيّة، والحقوق المسجّلة على كلّ البضائع إذ هي التي ترفع في سعرها، وهي تُدفع من طرف الشاري، لا من طرف التّاجر. ذلك أنّ هذه الحقوق، مهما ارتفعت، إنّما هي مع ذلك إراديّة، ولا يدفعها التّاجر إلاّ على قدر ما يشتريه من البضائع؛ وبما أنّه لا يشتري إلاّ على قدر ما يبيعه

1- «جان شردان» Jean Chardin : عاش من 1643 إلى 1713، وهو كاتب ورحّالة فرنسي معروف خاصّة بما رواه عن رحلاته إلى **بلاد فارس** وإلى غيرها من بلدان المشرق.

2- «هيرودوت» Hérodote : مؤرّخ يوناني عاش من 484 ق.م. تقريبا إلى حوالي 425 ق.م.، وينظر إليه على أنّه المؤرّخ الأوّل.

3- «داريوس» Darius : كان ملكا عظيما للإمبراطورية الفارسية. عاش من حوالي 550 ق.م إلى حوالي 486 ق.م.



بالتفصيل، فهو الآمر والنّاهي. أمّا الفلاّح، إذ يكون مرغما، سواء باع أو لم يبع، على دفع معاليم ثابتة الآجال على الأرض التي يزرعها، فهو لا يستطيع انتظار أن تُحدَّد لموادّه الأسعار التي يُريد ؛ وحتّى إن لم يبعها ليقوم بأوْده، فهو سيضطرّ لبيعها كي يدفع الضريبة، بحيث أنّ ضخامة الضريبة هي التي تجعل أحيانا سعر الموادّ بخسًا.

لاحظوا أيضا أنّ موارد التجارة والصناعة، عوض أن تساعد أكثر على تحمّل الضريبة بما توفّره من المال، فهي تجعلها مكلّفة أكثر. ولن أؤكّد قطُّ على أمر بديهيّ جدّا، هو أنّ كمّية المال في الدولة، إن قلَّت أو عَظُمت، وإن جعلت الدولةَ محلّ ثقة أقلّ أو أكثر في الخارج، لا تغيّر مع ذلك بأيّ حال من الأحوال من ثروة المواطنين الحقيقية ولا تزيد أو تنقص من راحتهم. غير أنّي سأقدّم هاتين الملاحظتين الهامّتين : الأولى هي أنّه، باستثناء الحالة التي يكون فيها للدولة سِلع فوق الحاجة وتكون وفرة المال ناجمة عن تصديرها إلى الخارج، تكون المدن التجارية هي وحدها التي تنعم بهذه الوفرة، بينما يزداد الفلاّح فقرا ؛ والثانية هي أنّه، لمّا كان ثمن كلّ الأشياء يرتفع طردًا مع تكاثر الأموال، كان لا بدّ أيضا أن ترتفع الضرائب بالمقارنة معها، بحيث يثقل كاهل الفلاّح دون أن تزداد موارده.

ولا بدّ أن نفهم أنّ الضريبة على الأراضي إنّما هي ضريبة حقيقية على محاصيلها. ولكن كلّ واحد يُسلّم بأنّه ليس أخطر من ضريبةٍ يدفعها الشاري على القمح : فكيف لا نرى أنّ الشرّ يكون أعظم مائة مرّة إذا كان المزارع نفسه هو الذي يدفع هذه الضريبة ؟ أليس هذا تهجّما على أسباب عيش الدولة؟ أليس هو العمل على إقفار البلد عاجلا، وبالتالي على خرابه آجلا؟ إذ لا تشكو الأمّة قطُّ جذبا أسوأ من جدب النّاس.

إنّ من مشمولات رجل الدولة الحقيقي دون سواه، عندما يعتبر قاعدة الضرائب، أن يرقى بنظره إلى ما هو أرفع من مرام الماليّة، وأن يحوّل الأعباء المكلِّفة إلى لوائح من التدابير المفيدة، وأن يجعل الشعب يتساءل ما إذا كانت مثل هذه الإنشاءات لا ترمي إلى خير الأمّة أكثر منها إلى جبي الضرائب.



وإنّ الرسوم المفروضة على توريد السِّلع الأجنبية التي يرغب فيها السكّان دون أن يكون البلد بحاجة إليها، وعلى تصدير سلعٍ من نوابت البلد ليس له منها ما يزيد على الحاجة، غير أنّ الأجانب لا يمكنهم الاستغناء عنها، وعلى ما تُنتجه الفنون غير النافعة والمُربحة جدّا، وعلى النشاطات الترفيهية الصِّرفة التي تقام في المدن، وعموما على كلّ الكماليات، إنّما هي تفي بكامل هذا الغرض المزدوج: فمثل هذه الضرائب التي تخفِّف عن الفقير وتُثقِّل على الثريّ هي التي ينبغي أن تمنع التفاوت المتفاقم بين الثروات، واستعباد الأثرياء لحشود من العُمّال والخُدّام بلا فائدة، وتكاثر العاطلين في المدن، وهجر الأرياف.

ويجدر أن تكون المعادلة بين سعر الأشياء والرسوم المفروضة عليها بما يجعل الأفراد لا يتغلّب عليهم الجشع ولا يتحيّلون طمعًا في الأرباح الطائلة. ويجب أيضا الحؤول دون سهولة التهريب، وذلك بتفضيل السِّلع التي يكون إخفاؤها أصعب. وأخيرا ينبغي أن يدفع الضريبةَ الشخصُ الذي يستعمل الشيء الذي فُرض عليه رسمٌ، لا بائع الشيء، وإلاّ كان حجم الرسوم التي يتولاّها هذا الأخير سببا في إغرائه ودافعا للتحيّل. هذا ما جرت به العادة في **الصّين**، هذا البلد من العالم حيث توجد أكثر الضرائب ارتفاعًا وأفضلها إيفاءً: فالبائع لا يدفع شيئا، والشاري وحده يفي بمعلوم الرسم، ولا يترتّب على ذلك لا تذمّر ولا تمرّد؛ وبما أنّ الموادّ الضرورية للحياة، كالأرز والقمح، معفاة تماما من الضريبة، فإنّ الشعب لا يشعر بالضَّيم إطلاقا، والضريبة لا ترصد إلاّ ميسوري الحال. ثمّ إنّ كلّ هذه الاحتياطات لا يجب أن يُمليها الخوف من التهريب، وإنّما سعيُ الحكومة إلى حماية الأفراد من إغراءات الأرباح اللاّ مشروعة التي، بعد أن تجعل منهم مواطنين فاشلين، سرعان ما تحوّلهم إلى أناس لئام.

لتُفرَضْ ضرائب مرتفعة على الكسْوَة والعُدَّة والمَرايا والثُّريّات والأثاث والقُماش والمُذهبات، وعلى ساحات القصور وحدائقها، وعلى العروض بكلّ أنواعها، وعلى المِهن عديمة الفائدة كالبهلوان والمُغنّي والمُهرّج، وباختصار على جُملة موضوعات الترف واللّهو والفراغ التي تجلب الأنظار، والتي يتعذّر عليها أن تتحقّق في الخفاء إذ يقتضي استعمالها الظهور والجلاء، وإذ تكون



بلا فائدة لو كانت لا تقبل المشاهدة. ولا تقلقوا من كون هذه الأمور تعود إلى اختيارات اعتباطية ولا تقوم على حاجة ضرورية قطعا : إذ تكون معرفتنا بالنّاس ضيّقة للغاية إذا اعتقدنا أنّهم، متى أغراهم الترف مرّة، لن يستطيعوا أن يتخلّوا عنه أبدا ؛ بل تراهم يزهدون في الضروري مائة مرّة ويفضّلون الموت جوعًا على أن يلحقهم العار. وتصبح الزيادة في الإنفاق سببا جديدا لدعمه عندما يغدو التباهي بالثراء يستمدّ مكسبه من سعر الشيء ورسوم الضريبة. طالما وُجد أثرياء، فإنّهم سيرغبون في التميّز عن الفقراء، ولن تجد الدولة موْردا أقلّ تكلفة ولا أكثر أمانا من الذي يقوم على هذا التمييز.

ولنفس السبب، لن تتأذّى الصناعة من نظام اقتصاديٍّ يُثري ماليّة الدولة، ويُنشّط الفلاحة مع التخفيف عن الفلاّح، ويُقرّب رويدا رويدا كلّ الثروات من ذلك الكَفاف الذي يمثّل القوّة الحقيقية للدولة. لا أنكر أنّ الضرائب قد تجعل بعض العادات الوقتيّة تمرّ بسرعة، لكن لن يكون ذلك أبدا إلاّ لتعويضها بأخرى تكون مُربحة للعامل وغير مُفلسة لخزينة الدولة. وباختصار، فعلى افتراض أنّ تَوجّه الحكومة المستمرّ يتمثّل في فرض كلّ الضرائب على فائض الثروات، فإنّ الحاصل لا يتجاوز أحد أمرين : إمّا أنّ الأثرياء سيكفّون عن نفقاتهم الزائدة ويقتصرون على نفقات مفيدة تعود بالربح للدولة ؛ وهكذا يكون لقاعدة الضرائب وقعٌ هو وقع أفضل القوانين المُقيِّدة للنفقات المفرطة؛ وبنقصان نفقات الأفراد تنقص نفقات الدولة بالضرورة ؛ ومع أنّ خزينة الدولة سترى مداخيلها هكذا تقلّ، إلاّ أنّ دفوعاتها ستقلّ أكثر ؛ وإمّا أنّ الأثرياء لا يضعون حدّا لتبذيرهم، فتجد خزينة الدولة في الجباية المَورد الذي تريده للقيام بحاجات الدولة الحقيقية. في الحالة الأولى، تغتني خزينة الدولة بسبب ما تشهده من نقص في نفقاتها ؛ وفي الحالة الثانية، تزداد غنىً بسبب نفقات الأفراد الباطلة.

نضيف إلى كلّ هذا تمييزا هامّا في مادة الحقّ السياسي، ينبغي على كلّ حكومة أن تعيره اهتماما شديدا وألاّ تبقى حريصة على أداء كلّ شيء بنفسها. لقد قلتُ إنّ الضرائب التي تُفرض على الأشخاص وعلى الأشياء الضرورية إطلاقا، إذ تمسّ مباشرة بحقّ الملكيّة وبالتالي بالأسّ الحقيقي



للمجتمع السياسي، تكون مصدرا دائما لنتائج وخيمة، إن لم يقع فرضها بموافقة الشعب أو ممثّليه موافقة صريحة. لكن يكون الأمر مختلفا بالنسبة إلى الرسوم التي تُفرض على الأشياء التي يمكن الامتناع عن استعمالها ؛ ذلك أنّ الفرد لا يكون مرغما تماما على الدّفع، وبالتالي يكون إسهامه إراديّا ؛ بحيث يكون الرضاء الفردي لكلّ واحد من المكلّفين بديلا للرضاء العام، بل يفترضه حتّى بوجه من الوجوه ؛ إذ لماذا سيعارض الشعب ضريبة تُفرض فقط على من يريد دفعها ؟ يبدو لي من الثابت أنّ كلّ ما لا تبطله القوانين ولا تحرّمه الأخلاق، ويمكن مع ذلك للحكومة أن تمنعه، فإنّه يمكنها السّماح به مُقابل رسم معيّن. فعلى سبيل المثال، لو كان بإمكان الحكومة أن تمنع استعمال العربات الفاخرة، فإنّه يمكنها من باب أولى أن تفرض ضريبة على العربات الفاخرة، وهذه طريقة حكيمة ومفيدة لذمّ استعمالها دون منعه. وبالتالي يمكن أن يُنظر إلى الضريبة على أنّها نوع من الغرامة، تعويضا عن التجاوز الذي تُعاقِب عليه.

قد يعارضني بعضهم فيقول إنّ الذين يسمّيهم «بودان» دجّالين، أي أولئك الذين يفرضون الضرائب أو يختلقونها، بما أنّهم ينتمون إلى طبقة الأثرياء فإنّهم لن يعملوا على مراعاة الآخرين على حساب مصالحهم الخاصة ولن يتكلّفوا الضرائب تخفيفا عن الفقراء. لكن لا بدّ من الضرب بمثل هذه الأفكار عرض الحائط. إذ لو كان المَلك، في كلّ أمّةٍ، يفوِّض الحُكم في الجماهير لأولئك الذين يكونون في وضع عداوة معها، فلا فائدة إذّاك من البحث فيما ينبغي عليهم فعله لكي يجلبوا لها السعادة.





ج. ج. روسّو

محاولة في أصل اللغات

ترجمة : محمد محجوب




مكتبة
الفكر الجديد

« Tâchons de suivre dans nos recherches l'ordre même de la nature, j'entre dans une longue digression sur un sujet si rebattu qu'il en est trivial, mais auquel il faut toujours revenir, malgré qu'on en ait, pour trouver l'origine des institutions humaines »

«فلنعمل على أن نسـاير في بحوثنا نظـام الطبيعة ذاته. وإني لمقدم هنا على اسـتطراد طويل في موضوع قد أكل عليه الدهر وشـرب حتى صار مبتـذلا. ومع ذلك، فلا بد من الرجوع إليـه دائما، حتى نقف على أصل المؤسسات الإنسانية».

(ج.ج.روسّو)
محاولة في أصل اللغات




مكتبة
الفكر الجديد

تصدير المترجم

ما الذي يمكننا قوله في حدود التصدير الضيقة عن المقاربة الروسوية لأصل اللغات في المحاولة التي نقترح اليوم تعريبا لها؟ سنقتصر على نقطتين اثنتين، لعلهما تكونان مدخلا ييسر الولوج إلى نص ‹روسّو› أو يخفف على الأقل مما يقارن الالتقاء الأول به من صدمة مضاعفة: التباس غرضه وغربة عبارته. فنسأل عن موضوع المحاولة وعن وحدة قصدها العام وذلك سعيا إلى إدراك مدى تأثير «التداخل المشكلي» على العلاقة بين مسألة «سلطان الموسيقى على القلوب» ومسألة «أصل اللغات»، ثم إدراك مدى تأثير التداخل المشكلي بين هاتين المسألتين باعتبارهما مسالتين تقنيتين، أو باعتبارهما مسألتين مختصتين، على الأقل، من جهة، والمسألة العام أو المسألة الفلسفية لأصل المجتمعات، ولمدى ارتباط بنياتها بلغتها.

ذلك أنه تأتلف في محاولة ‹روسّو› في أصل اللغات أوجه عدّة وأبعاد مختلفة من فكره: فهو الفيلسوف، متسائلا عن وضع اللغة واصلها، وعن بنية المجتمعات وطبعها، وهو كذلك الفنان المجادل في الرّسم التصويري والمحاكاة الموسيقية من حيث إثر جمالها في القلوب: فكيف تتوحّد هذه المقاصد إذن، بحيث تؤدّي إلى طرح مشكل أصل اللغات في علاقة حميمة بأصل المجتمعات، وتؤدّي إلى تصوّر التعبير اللغوي في علاقة حميمة بالتعبير الفني موسيقى ورسما؟

بين البحث عن وسائل تبليغ أفكارنا، كتخطّ لحدود العزلة وخروج من عدم الحاجة، والطغيان على المجال الخاص الذي تتركه الحياة المدنّية



للآخـر، من خلال الاقناع كخلق للحاجـة، تمتدّ المحاولة في أصل اللغات، حاكية بذلك قصة المجتمع وعارضة من مشـاهد تكوّنه ما يكاد يلهيك عن اللّغات وأصلها. فهلاّ تكون إذن محاولة في أصل المجتمعات من خلال المنشور اللغوي؟ ولكن مثل هذا المسعى يستلزم أن يكون المنشور اللغوي قد ناله بعد من التحليل والتركيب ما حصل به على مشروعيته المرجعية التي يقـدر بها علـى أن يمثل منظورا أو منظارا يمكن تسـليطه على الموضوعات المختلفة. ولكن شيئا منكل ذلك لم يحصل بعد.

فهـل يكـون الكتاب إذن محاولة في النظر إلـى أصل اللغات من خلال منشـور أصـل المجتمعات، مثـل هذا المسـعى يقتضي أن يكون المنشـور المجتمعـي قـد ناله ما لم ينل المنشـور اللغوي، بحيث أصبح لـه من التقاليد ما يؤهله لكي يكون منظارا يسـلّط على الظاهرة اللغوية، منشـئها وتاريخها ولعاقتها بغيرها من الظواهر.

وإنّ المرء لا ميل إلى الانخراط في صفّ هذا الافتراض الثاني، إذ تؤكّده عدّة إثباتات، لعل أهمها ذاك الذي يعمد به ‹روسّـو› إلى الإجابة عن السـؤال المتعلق بأصل المؤسّسات الإنسانيّة: «وإنّي لمقدم هنا على استطراد طويل، في موضوع قد أكل عليه الدّهر وشرب حتى صار مبتذلا؛ ومع ذلك فلا بدّ من الرّجوع إليه دائما، حتى نقف على أصل المؤسسات الإنسانية».

يتحدّد هذا الموضوع إذن على أنه المرجع والشاهد والحكم، في كل ما يتعلّق بالمؤسّسات الإنسـانيّة عامّة، وبالمؤسسة اللغوية على وجه الخصوص. ولكـنّ الاتصـال بهذا المرجع والعـودة إليه لا تتمّ ضمـن المحاولة إلا على وجه الاسـتطراد. ولعل الشـأن في الاسـتطراد أنّ ما له من الشـرعية لا يفوق مـن بعض الوجوه ما للشّـجون التي للحديث. فـإن كان ذلك، فإن المرور بمنعطـف «المجتمعات الأولى» لا يكون إلا اصطناعـا لا خير فيه. ولكنّ الأمر على خلاف ذلك. فلا ابتذال الموضوع ولا طول الاستطراد بمغنيين لنا عن الانصراف إلى أصل المجتمعات. بل يظلّ الوقوف على أصل المؤسّسات



الإنسـانية بما فيها المؤسّسـة اللغوية مرهونا بالتذكيـر بمعطيات قد «أكل عليها الدّهر وشرب».

بذلـك تنبنـي المحاولة في أصـل اللغات قولا يتضمن فـي كل أجزائه إشارة إلى منجز، ويتدرّج شوقا إلى أصل الأصل، من أجل المرور به. فيكون الفصلان التاسـع والعاشـر أوّلي الفصول وآخرهـا، ونقطة انطلاقهـا ومآلها، متوسـطين بذلك مسـار الفصول العشـرين، لكأنهما من كل واحدة منها المدخل والمخرج. ولا يكون الاسـتطراد سـاعتها شـجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه، بل قصد شوق تنشدّ إليه الرّحال:

فأولى المشاهد مشهد الشوق ومشهد الحاجة، إذ يطلّ منهما المتوحد على الغير إطلالة الذي «تملّكـه الرّعب» فحاجته نفي الآخر، وهمّه الابتعاد عنه، ولكـنّ حدّه الطبيعة. لا تتولّـد اللغات إذن من الحاجات الطبيعية، «فمن غير المعقول أن يكون مما يفرّق بينهم ما يجمعهم».

وثاني المشـاهد مشهد الشـوق إلى الاخر، حبا أو كرها، شفقة أو غضبا. فحاجة الإنسـان هي الاخر وهمّه الفعل فيه. وما بغير هذا الوجه تتولّد اللغات: «إن كلّ الأهـواء تقرّب بين الناس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش علـى التباعد. فلا الجوع ولا العطش انتزاعا منهـم أوّل التصويتات، بل الحبّ والكره، والشفقة والغضب. إن الثمار لا تفلت من أيدينا، فيمكننا أن نتغذى بها من غير كلام، كما أننا في صمت نطارد الفريسـة التي نقتاتها، ولكن، إذا مـا أردنا التأثير في قلب شـاب، أو صدّ معتد أثيم، فـإن الطبيعة تملي علينا نبرات وصرخات وأنّات».

تبدو اجتماعية الإنسان إذن محدّدة لنطقه باللغة. ولكن هذه الاجتماعية لا تحقق من كل شـروط اللغة إلا أحدها، بل تقتضي اللغة أن يصاحب اجتماع الناس تولّد للأهواء والعواطف. ذلك أنّ الحاجات الطبيعية، إذ ما افترضنا أنها قـادرة على تجميع النـاس، وهو ما ليس دائما مؤكّدا، لا تولّد من اللغات إلا لغة الإشارة. أما لغة الصوت فلا تتولد إلا متى فاض القلب بالعواطف. لذلك



يحكــي تولد الــكلام تولّد الهــوى، ولذلك أيضا يحكــي تبلّد الكلام تبلّد الهوى: فإذا تاريخ اللغات تاريخ تضاؤل حيويتها وتناقض شــاعريّتها، وإذا المجاز الأخّاذ الذي كان فيها قد أمســى حقيقة حادّة، وإذا الفكر الحالم قد أضحى فكرا مستنيرا يحكم على أحلامه الأولى بأنها أخطاؤه الأولى.

ولعــل هذا التبلّد قد بلغ قراره في الكتابة، إذ تقلب على اللغات عبقريّتها، فــلا يبقى فيها من طاقة التعبير شــيء، بل يتحــول كل ذلك إلى وضوح في المعنى ودقة في الأفكار. هكذا ينتقل إيحاء نبرة النّطق إلى صمم نبرة الرّسم وبكمها، فما عادت تحمل من حياة اللغة إلا ذكراها، ولكنها ذكرى ميّتة:

«إذا المرء أضحى كلّ شيء يقوله كما لو كان يكتبه، لم يغد إلا قارئا يتكلّم».

هكــذا آلت نغميّة اللغات الحديثة إلــى علامات نغميّة منقطعة عن الواقع النغمــي، وهو ما يدلّ على أنها قد أضحت لغــات مكتوبة، بل وأنها حتى في نطقها مكتوبة، «فلو تكلّم يهود اليوم بالعبريّة لما فهمهم أجدادهم».

ولكنّ تتبّع أثر هذا الضياع التاريخي للغة لا يمكــن أن يغني عن التساؤل عن أصلها بل لعل ذلك التســاؤل هو وحده الكفيل بأن يهدينا إلى فهم آلية هــذا الضياع. فالفصلان التاســع والعاشــر، يتوليان تحديــد التكون الطبيعي للغات الشمالية والجنوبية، وهو ما تعلن عنه نهاية الفصل الثامن عندما تؤكد: «فلنعمــل على أن نســاير فــي بحوثنا نظــام الطبيعة ذاتــه !» لذلك تحكي الفصــول الثمانية الأولى قصة تباعد اللغة عن الطبيعــة. وذلك هو بالذات ما قصدنا. عند بداية هذا التصدير إذ قدّمنا أن اســتطراد الفصلين التاسع والعاشر «ليس شــجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه، بل قصد شــوق تنشدّ إيه الرحال». ذلك أن العود إلى أصل تكوّن اللغات شــمالا وجنوبا قد ورد في المحاولة في وقت قد بلغ فيه وصف ضياع اللغة اخر ما آلت إليه هذه الظاهرة، فهل من الصدفة أن ينتهي الفصل الســابع بالتلويح إلى أبرد اللغات كلّها؟ ان العــود إلى الأصل الغابر قد تمّ في زمن ســجّل فيه الحاضر من الحضور ما لم



يعد معه الماضي إلا أشـلاء مـن الذكريات. فلعل كثافة هذا الغياب (الذي للماضي) قد شـحذت من الشـوق ما اشـتدّ به عزما على الوجهة الأولى. فإذا «القول في الأصل» ينتظم ساعة الأصل بعيد عن الذكر، عظم ما كان دفينا عمل الشوق !

ولكن ما يصوّره القسـم الثاني من الكتاب (الفصول من 12 إلى 19) هو تباعد الموسـيقى عن الطبيعة، فنسـأل: هل يتعلق الأمر بمجرّد سرد لحكاية الموسيقى؟ وما مدى العلاقة بين هذه الحكاية وحكاية ضياع اللغة؟

«إنّ القصص الأولى والخطب الأولى والنّواميس الأولى قد كانت شعرًا. فلقـد وُجد الشّـعر قبل النثر. ذلك ما حدث فعـلا لأنّ الأهواء تكلّمت قبل العقل. وكذلك كان شأن الموسيقى. فلم يكن ثمّة في البداية من موسيقى إلاّ النّغم ومن النّغم غير ما يحدثه الكلام من تنوّع الصّوت». فإذا كان القول في الموسـيقى (أي في النّغم وفي المحاكاة الموسـيقيّة) قـد ورد في عنوان المحاولـة كمجرّد موضوع من موضوعاتها: (محاولة في أصل اللّغات، وفيها يتحدث [أيضًا] عن النّغم وعن المحاكاة الموسيقيّة)، فإنّ الفصل الثّاني عشر يسوّي بينه وبين القول في اللّغات، من خلال المماهاة بين كيفيّة انحطاطهما. فإذا الموسـيقى اللّغة واللّغة الموسيقى ! «هل كان من العجب أنّ أوّل النّحاة قد أخضعوا صناعتهم إلى الموسيقى، وأنّهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين؟ انّ لغة ليسـت لهـا إلاّ المقاطع والتصويتات لا تملك إذن إلاّ نصـف ثروتها. صحيح أنّها تؤدي أفـكارا ولكنّها إذا ما أرادت أن تؤدّي مشاعر أو صورًا احتاجت مع ذلك إلى إيقاع وأصوات أي إلى نغم».

هكذا تتوالى مشاهد قصّة الموسيقى عارضة تبدّد ثروتها من خلال انقطاعها عن التصوير والمحاكاة وانشـغالها بالتّصاوت والاصطناع. وذلك هو معنى الجدل العنيد بين ‹روسّـو› و‹رامو› حول «سـلطان الموسـيقى على القلوب»، أنغمـيٌّ هو أم تصاوتيٌّ. وراء ذلك الجدل جدلٌ فـي الطّبيعة الاصطناع، وبين حيويّة العواطف وتلقائيتها من جهة وبرودتها القاتلة من جهة أخرى.



ولكـنّ الأهمّ من كلّ ذلك، هو أنّ وراء قصة الأصل والضياع التي هي قصّة اللّغة والموسـيقى، ثمّة قصّة «الإنســان» و«الجثّة». فهلاّ وجب ســاعتها أن تكون المحاولة عرضا لقصّة الإنســان من خلال المنشــور اللّغوي أي من خلال منشور التّعبير بوجوهه التّصويريّة المختلفة، التّصوير اللّغوي، والتصوير الموسيقي، والتّصوير بالرّسم، إلخ؟

لا نريد أن نختم هذا التصدير السّريع، قبل أن نذكّر بأنّ كلّ ترجمة إنّما هــي محاولــة لا نطاق النصّ في لغــة غير لغته، ولكن انطلاقا من شــيء يظلّ شــيئه هو لا شيئا آخر. ولذلك فهي عمل لا تنفكّ تتنازعه مقتضيات الأمانة، وذلــك لا للحفاظ على المعني فحســب، فذلك أضعــف الإيمان، ولكن للحفاظ كذلك على «المناخ» الأســلوبي وعلى «العوارض» التعبيريّة التي قــد لا يكــون لها كبير أثر في المعنى المباشــر، ولكن ما أعظم ما يكون أثرها وما أعظم ما تكــون مناصرتها لمجهودات النّفاذ إلى بنية النّصّ العميقة لذلك، فلقد يعمد البعض ممّن ألفوا التســرّع فــي الفتوى إلى أن يعيب على هذا النصّ لجوءه إلى تعابير قد لا تتماشى مع خفّة عبارة هذا العصر. ولكن، «على قدر أهل العزم تأتي العزائم...» فلقد كان علينا أن نختار بين أن نغالي في إخضاع ‹روسّو› إلى مقتضيات عصرنا أو أن لا نغالي.

مهما يكن من أمر، فإنّنا لا نشــكّ قطّ، فــي أنّ هذا العمل مُلاقٍ من لدن قرّائه عينا وســطّا بين عين الرضى وعين الســخط؛ فحسبه أن يحظى من تلك العين بما قد يُصلحُ من شــأنه أن قُدّر له أن يتدارك أمره، أو من شــأن صاحبه أن هو أقدم على مغامرة أخرى.

محمد محجوب



تنبيه خاصّ بهذه الطبعة

لقد صدرت هذه التّرجمة مرّة أولى عن الدار التونسية للنشر، في تونس، سنة 1984، ونفدت من السّـوق نفادا كاملا. ولذلك فالمركز الوطني للترجمة يعيد اليوم إخراجها للناس بناء على توصية فريق ترجمة الآثار الفلسـفية وبعد أن تفضّل بمراجعتها الأسـتاذ القدير جلال الدين سعيد، وأن أصلحنا بعض ما اعتراها من الهنات الشكلية في طبعتها المشار إليها.

وتجدر الإشـارة إلى أنّ مقالـة **المحاولة** ظلت في الأصل الفرنسـي تكتب وتتعهد من سنة 1754 تاريخ وضع خطوطها العامة إلى سنة 1781 تاريخ صدورها ضمـن المجلد الثالث من أعمال «روسّـو» المنشـورة بعد مماتـه. ويكاد يجمع الدارسون على أنها اكتملت سنة 1761. وقد اعتمدنا نحن النشرات التالية :

- Rousseau : *Essai sur l'origine des langues*, éd. par Ch. Porset, Ducros, Bordeaux, 1968
- Rousseau : *Essai sur l'origine des langues*, Préface et commentaire par Jean-louis Schefer, Presses Pocket, 1990
- Rousseau : *Essai sur l'origine des langues*, Intr. Notes et bibliographie par Catherine Kintzler, GF- Flammarion, Paris, 1993.




مكتبة
الفكر الجديد

محاولة في أصل اللّغات

(وفيها يتحدّث عن النّغم وعن المحاكاة الموسيقيّة)




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأول

في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا

يميز الكلام الإنسان عن الحيوانات. وتميّز اللّغة الأمم بعضها عن بعض، فلا تعرف نسبة إنسان ما إلاّ بعد أن يتكلّم. ويحمل الاستعمال والحاجة كلّ امرئ على أن يتعلّم لغة بلاده. ولكن ما الذي يجعل تلك اللّغة هي لغة بلاده لا لغة بلاد أخرى؟ انّ الإجابة عن ذلك تقتضي الرّجوع إلى سبب ما، يرتبط بالمكان، ويكون سابقا على العادات عينها: فالكلام بما هو أوّل مؤسّسة اجتماعيّة، إنّما يدين بشكله إلى أسباب طبيعيّة.

فما ان تَعرّف بعضهم على بعض كائنا حاسّا ومفكّرا وشبيها به حتّى دفعه الشّوق وحاجةُ إبلاغه مشاعرَه وأفكاره إلى البحث عن وسائل ذلك الإبلاغ. وهذه الوسائل لا تُستمدّ من غير الحواسّ، إذ هي الآلات الوحيدة التي يمكن بها للمرء أن يؤثّر في غيره. وهاهي العلامات الحسية تُجعل إذاً للتعبير عن الفكر. إنّ الذين اخترعوا اللّغةَ لم يستخدموا هذا البرهان. ولكن حدسهم أوحى لهم بنتيجته.

إنّ عامّة الوسائل التي نقدر بها على التأثير في حواسّ الغير تنحصر في اثنتين هما الحركة والصّوت، ويكون فعل الحركة إمّا مباشراً باللّمس أو غير مباشر بالإشارة. ولمّا كان حدّ الفعل الأوّل طولَ السّاعد، فإنّه لا يمكنه التّبليغُ عن بعد، في حين يمتدّ الثّاني بقدر ما يمتدّ شعاع البصر. وهكذا لا يبقى إلاّ البصر والسّمع عضوين من أعضاء اللغة منفعلين بين أناس مشتتين.



ولئــن كانت لغة الإشــارة ولغة الصّــوت طبيعيّتين على حدّ ســواء، فإنّ الأولى أيســر (من الثّانية) وأقلّ خضوعا للمواضعات. فإنّ ما يمثل إلى أبصارنا من الأشــياء أكثر ممّا يبلغ منها إلى مســامعنا، والأشــكال أشــدّ تنوّعا من الأصوات، كما هي أشــدّ تعبيرا وأكثــر إيحاء في أقلّ وقتا. فمن الحب جاء الرسم كما يقال. ومنه الكلام أيضا ولكن بأقلّ سَعدا. وها هو مزدريه لفرط مــا هو غير راض عنه. فانّ له من أســاليب التّعبير ما هو أحيا؛ ألا فلكم شــيئا تقول لحبيبها تلك التي ترســم في لذّة قصوى خياله ! ولكم كان يلزمها أن تستخدم من الأصوات لو عبّرت عن حركة العصا تلك !

إن إشــاراتنا لا تعني غير حيرتنا الطّبيعيّــة. ولكنّي لا أريد أن أتحدّث عن تلك الإشــارات. فالأوروبّيون، دون ســواهم، يومئون عنــد الكلام: لكأنّ كلّ قوّة ألســنتهم قد آلت إلى ســواعدهم. ويزيدون عليها قوّة الرّئتين. وكلّ ذلــك لا يجديهم نفعا. ففي حين يتخبّط الفرنســي ما أمكنه، ويشــبع هامته تعذيبــا بكثرة ما يقول من الكلام، ينحّي التّركــي غليونه عن فمه هنيئة ثمّ يتمتم بكلمتين ويجهز عليه بجملة واحدة.

لقد نسينا فنّ الإشارات منذ أن تعلّمنا الإشارة: تماما مثلما أنّنا بالكثير من كتب النحو الأنيقة لم نعد نفقه رموز المصريين. فإنّ القدماء لم يألفوا التعبير بالألفاظ عن أحرّ ما كانوا يقولونه، بل بالإشــارات : ما كانوا يقولنه ولكن كانوا يبدونه.

فلتفتحــوا كتب التّاريخ القديم، لتجدُنّها تعجّ بهذه الأســاليب من البرهنة التي تخاطب العيون فلا يفوتها أبدا أن تخلّف من الآثار ما هو أوثق ممّا تخلّفه الأقــوال التي كان بالإمكان إبدالها بها. إن الشّــيء، إذا ما عُرض علينا قبل التكلّم عنه، يهزّ الخيال هزّا، ويثير حبّ الاطّلاع ويســتولي على القلب شــوقا وارتقابا لما ســيقال. ولقد لاحظت أنّ الايطاليين وســكان مســتعمرات روما يجدون فيما تعوّدوه من ســبق الإشــارة عندهم على القول، وسيلة يجعلون بها النّاس أحســن استماعا إليهم بل وأشدّ التذاذا بذلك. ولكن أبلغ اللّغات هي تلــك التي الإشــارةُ فيها قد قالت كلّ شــيء من قَبل الــكلام. أفلم يكن



‹تاركينيوس› [Tarquin] و‹ثرازيبولس› [Trasibule] وهو يقطَع رؤوس الخشخاش، و‹الإسكندر› وهو يجعل ختمه على فم نديمه، و‹ديوجينس› [Diogène] وهو يتجوّل أمام ‹زينون› [Zénon]، أفلم يكن هؤلاء يعبّرون بأحسن من الكلمات ؟ فأيّ دور من الكلام قد كان يعبّر مثلما عبّروا عن تلك الأفكار بعينها؟ وهاهو ‹داريوس› [Darius] وقد توغل بجيشه في **اسكوثيا** يصله من ملك **الاسكوث** ضفدعة وعصفور وفأر وخمسة سهام، هديّة يسلّمها الرّسول في صمت ثمّ ينصرف. ولكنّ خطابه الفاجع قد فهم، فلم يزل أوكد على ‹داريوس› من الرّجوع إلى بلاده كيفما أمكنه. فلتعوّضوا هذه الرّموز برسالة: لَيَتَضاءَلُنَّ هولها بقدر ما يتعالى تهديدُها. إنْ هي إلا هذرٌ، وما كان ‹داريوس› إلاّ مستخفًّا بها.

عندما عزم ‹لاوي أَفرائيم› [Le lévite d'Ephraïm] على أن يثأر لموت زوجته، فإنّه لم يكتب إلى قبائل بني اسرائيل؛ بل قسّم الجثّة إلى اثنتي عشرة قطعة وأرسل بها إليهم. فلمّا أن رأوا ذلك المشهد، أسرعوا إلى السّلاح صراخا بصوت واحد: «**كلاّ، ما كان مثل هذا أبدا في اسرائيل، من يوم أن خرج آباؤنا من مصر إلى اليوم**». وأُبيدت قبيلة بنيامين[1]. فلو كان ذلك اليوم لتقلّبت القضيّة بين المرافعات والمجادلات، وربّما الفكاهات، ولتأجّلت إلى غير نهاية، ثمّ لظلّ أبشع الآثام بدون جزاء. كذلك نذكر ‹شاول› [Saül] الملك حين عاد من الحرث، فقطّع ثيران محراثه قطعا عديدة، ثم استخدم رمزا مماثلا ليحمل به بني إسرائيل على أن يخفّوا لنجدة مدينة **يابيش** [Jabés]. إنّ أنبياء اليهود ومشرّعي اليونان، قد كانوا بما يقدّمونه غالبا من الأشياء المحسوسة للشّعب، أبلغ ممّا لو خاطبوه بمقالات طويلة. وإنّ الأسلوب الذي يذكر به **أثيني** [Athénée] أنّ الخطيب ‹هيبريد› [Hypéride] برّأ **افريني** المومس من دون أن يحتجّ للدّفاع عنها بكلمة واحدة لهو كذلك فصاحة صامتة ليس يندر أثرها في كلّ الأزمان.

وهكذا فإنّنا نخاطب العيون أحسن ممّا نخاطب الآذان. فليس ثمّة من لا يشعر بصدق حكم ‹هوراسيوس› [Horace] في هذا الصّدد. بل إنّنا لنرى أنّ

1- لم يبق منها (على قيد الحياة) إلا ستمائة رجل، بلا نساء ولا أطفال.



أبلــغ الخطب هي تلك التي نضمنها أكثر مــا يمكن من الصوّر، وأن ليس للأصوات من القوّة أكثر مما لها عندما تفعل فعل الألوان.

أمّا إذا ما تعلق الأمر بأن نؤثّر في القلب ونُلهبَ العواطف، فذلك شــأن آخــر تماما؛ إنّ الانطباع الــذي يعقب الخطاب، فيكون لــه وقع مضاعف، ليخلّــف في المرء أثرا مختلفا عن ذلك الذي تخلفه فيه رؤيته للشــيء ذاته ماثــلا لحما ودما فيحيط به المــرء في طرفة عين : فلتتخيلوا وضعا جدّ عاديّ من الألم ؛ من الصعب أن يصل بكم التأثّر من مجرّد رؤية الشخص المصاب إلى حدّ البــكاء. ولكن دعوا له من الوقت ما يكفي ليحدثكم بكل ما يحس، إذاً لتجهشُــنّ لتوّكم بالبكاء. وما بغير هذا الوجه تفعل فينا مشاهد التراجيديــات فعلهــا[1]. ان التمثيلية الإيمائية التــي لا كلام فيها، هي وحدها تتركنــا في دعة. أما الخطاب الذي ليس فيه إيماء فينتزع الدّموع منّا انتزاعا. للعواطــف إيماءاتها ولكــن للعواطف أيضا نبراتها. وان هــذه النبرات التي تزلــزل علينــا الأرض، والتي لا يمكن أن نصمّ عنها آذاننا لتتســلّل منها إلى صميم القلب فتحمل إليه رغم أنفسنا الحركات التي تنتزعها وتجعلنا نحس بما نســمع. فلنستنتج إذن أنّ ما نراه من الإشــارات يزيد من دقّة المحاكاة، ولكن إثارة الاهتمام أنجع بالأصوات.

ذلك ما يجعلني أعتبر أنّه لو لم تكن لنا قطّ غير حاجات طبيعيّة لأمكننا جــدّا أن لا نتكلّم أبــدا وأن نتفاهم على التّمام بمجرّد لغة الإشــارة، ولكان بمقدورنا أن نقيم مجتمعات لا تختلف كثيرا عمّا هي عليه اليوم أو هي أصوب تدرجا نحو هدفها وأن نؤســس قوانين ونختار قادة ونخترع فنونا ونقيم التّجارة وباختصــار أن نعمل من الأشــياء بقدر ما نعمله منها بفضــل الكلام. أن لغة رســائل «**السلام**»[2] لتحمل من دون ما خشية للرقيب أسرار الغزل الشرقي عبر

1- لقــد بينــت في موضع آخر لماذا يؤثر فينا التظاهر بالأحزان أكثر مما تؤثر فينا الأحزان الحقيقية، كمثل من يبكي أثناء عرض مسرحية مأسوية في حين أنه لم يشفق في حياته على أي مسكين. ان اختراع المسرح لهو اختراع رائع يتفخ منه كبرياؤنا بكل الفضائل التي ليست لنا في الحقيقة أصلا.

2- « SALAM » هي ألوان عديدة من أبسط الأشياء، كبرتقالة أو رداء أو فحم أو غيرها من الأشياء التي يكون لارسالها معنى معروف عند المحبّين داخل البلد الطي تتداول فيه هذه اللغة.



أشـدّ الأحاريم مناعةً. وإنّ بكم الرحمـان يتفاهمون فيما بينهم كما يفهمون كلّ ما يقال لهم بالإشـارة تماما مثلما يمكن قوله بالكلام. فالسـيد «بيرير» ومـن مثله ممّن يعلمون البكم لا أن يتكلّموا فحسـب ولكن أيضا أن يعوا مـا يقولون، إنّما هم مجبورون على أن يعلّموهم قبل ذلك لغة أخرى، لا تقل تعقيدا، يمكنهم بواسطتها أن يفهموهم تلك اللغة.

ويذكر «شاردان» أن الباعة الدّلالين في جزر الهند يمسك بعضهم بأيدي البعض ويغيرون من أسـاليب تلامسـهم بحيث لا يتفطن إليهم أحد. فيعقدون بذلك كل صفقاتهم سـرا على رؤوسـي الملإ، ومن غير أن يتبادلوا كلمة واحدة. إن هؤلاء الدلالين، وإن فرضناهم عميا، صمّاً، بكماً، لن يكونوا أقلَّ تفاهما فيما بينهم : وهو ما يبين أننا نقدر بالاقتصار على أحد الحسـين اللّذيْن بهما فعاليتُنا، على أن نجعل لأنفسنا لغة.

ويظهـر من الملاحظـات عينها أن اختـراع فن تبليغ أفكارنـا ليس مدينا للأعضاء التي تخدم هذا التبليغ بقدر ما يرجع إلى ملكة تخص الإنسـان هي التـي تجعله يسـتخدم لتلك الغاية أعضاءه بل تحملـه، إذا ما انعدمت تلك الأعضـاء، على أن يسـتخدم غيرها لعين تلك الغاية. هبوا للإنسـان هيئة ما، مهمـا كانت غير مكتملة. فإنه سيكتسـب لا محالـة أقلّ أفكارا. ولكن يكفي أن يكون بينه وبين نظرائه وسـيلة مـا للتواصل يقدر بها بعضهم على الفعل وبعضهم على الأحاسـيس، حتى يتمكنوا في النهاية من أن يتبادلوا من الأفكار بقدر ما عندهم منها.

ان الهيئة التي للحيوانات لتفي بأكثر مما يحتاجه هذا التواصل. ومع ذلك فلا واحد منها اسـتعملها. فليت شـعري، هو ذا فرق مميز حقا! إني لا أشـك قـط في ان التـي تعمل من الحيوانـات وتعيش معا، لاسـيما القنادس والنمل والنحـل، تملك لغة طبيعية ما، تتواصل بها فيمـا بينها. بل ثمة حتى ما يدعو إلى الاعتقاد بأن لغة القنادس ولغة النمل إنما هي لغات إشارة ولا تخاطب إلا العيون. ومهما يكن من أمر فان هذه اللغات وتلك، بما هي طبيعية، ليسـت مكتسـبة. والحيوانـات التي تتكلم بهـا إنما تملكها منـذ الولادة. ولكن



الحيوانات نفس اللغات في كل مكان، فلا تستبدّ لها ولا تحقق فيها أدنى تقدم. أما لغة التواضع فهي لغة الإنسان وحده. هو ذا ما يجعل الإنسان يحقق تقدما في الخير أو في الشر، وما يجعل الحيوانات لا تحقق منه شيئا. إن مجرد هذا التمييز ليبدو عميق الأبعاد: ويقال أن تفسيره يكون بالرجوع إلى اختلاف الأعضاء. لكم أودّ معرفة هذا التفسير العجيب.



الفصل الثاني

في أنّ أوّل اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء.

ثمّة اذن ما يحمل على الاعتقاد بأنّ الحاجات قد أملت علينا أوّل الإشارات، وأنّ الأهـواء قد انتزعت منّـا أوّل التّصويتات. ولعلّنا، اذا ما تتبّعنا أثر الأحداث بالاعتمـاد على هذه التمييزات، ملزمون بالتّفكير في أصل اللّغات بأسـلوب مختلـف جدّا عن الأسـاليب التـي اتبعت إلى حـدّ الآن. أنّ عبقريّـة اللّغات الشـرقيّة، وهي أقدم ما هو معروف لدينـا من اللّغات، تكذّب تكذيبا مطلقا مـا نتخيله عن تكوّنها كتدرّج في التعلم. فليسـت هـذه اللّغات من المنهج والمعقول في شيء، بل هي حيّة ومجازيّة يراد إقناعنا بأنّ لغة الأوّلين هي لغات هندسيّين في حين نرى أنّها لغات شعراء.

لا بدّ أنّ ذلك هو ما كان. فإنّهم لم يبدأوا بالتّفكير، بل بدأوا بالإحساس. ويدّعي بعضهم أنّ البشر إنّما اخترعوا الكلام للتعبير عن حاجاتهم. يبدو هذا الـرّأي غير مقبـول. فإنّ المفعول الطّبيعي للحاجـات الأولى إنما كان تفريق النّـاس لا تقريب بعضهم من بعض. لقـد كان ذلك ضروريّا لأن يمتدّ النّوع وأن تعمر الأرض بسـرعة، إذ لولاه لتكدّس الجنس البشـري في ركن من العالـم ولظلّ ما بقي منه مقفرا. وينتج بوضوح مـن مجرّد ما ذكرناه أن أصل اللّغات ليس سـببه حاجات البشـر الأولى. فمن غيـر المعقول أن يكون ممّا يفـرّق بينهم ما يجمعهم. من أين يمكـن أن يكون هذا الأصل إذن؟ هو من



الحاجـات الأخلاقية ومـن الأهواء. إن كلّ الأهواء تقـرّب بين النّاس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التّباعد. فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أوّل التّصويتات، بل الحبّ والكره والشفقة والغضب. انّ الثمار لا تفلت من أيدينـا، فيمكننا أن نتغذّى بهام نغير كلام. كمـا أنّنا في صمت نطارد الفريسة التي نريد أن نقتاتها. ولكن، إذا ما أردنا التّأثير في قلب شابّ، أو صدّ معتد أثيم، فـإنّ الطّبيعة تملي علينا نبرات وصرخـات وأنّات. تلك هي أقدم الكلمات المخترعة، وذاك هو ما جعل اللّغات الأولى شادية عاطفيّة قبل أن تكون بسيطة منهجيّة. إن كلّ ما تقدّم لا يستقيم بدون تمييز. ولكنّي سأعود إليه فيما يلي.



الفصل الثالث

لابدّ أنّ اللّغة الأولى قد كانت مجازّية.

لمّا كانت الأسباب الأولى التي دفعت الإنسان إلى التكلّم هي العواطف، فإنّ تعابيرها الأولى كانت استعارات. لقد كانت اللغة المجازية هي أول ما تولد. أما الدّلالة الحقيقيّة فكانت آخر ما اهتدي إليه. فإنّ الأشياء لم تسمّ باسمها الحقيقي إلاّ عندما تمّت رؤيتها في شكلها الحقيقيّ. ففي البداية لم يتكلّم النّاس الا شعرا ولم يخطر ببالهم أن يفكّروا إلاّ بعد زمن طويل.

ولكنّي أحسّ ههنا أنّ القارىء يستوقفني ويلتمس أن أبيّن له كيف يمكن أن يكون التّعبير مجازيا قبل أن تكون له دلالة حقيقيّة، إ المجاز انّما يكون في تحوّل المعنى. وإنّي لمقرّ بذلك، غير أنّه يجب لفهمي أن تعوّض الكلمة التي ننقلها بالفكرة التي تقدّمها لنا العاطفة. فإننا لا ننقل الكلمات إلا لأننا ننقل الأفكار. فلو لم يكن ذلك لما كانت اللغة المجازية تعني شيئا. سأردّ إذن بمثال:

لو أنّ رجلا متوحّشا صادف غيره من المتوحّشين لفزع، ثمّ لحمله فزعه منهم على أن يعتبرهم أكبر منه وأقوى بحيث يطلق عليهم اسم العمالقة؛ ثمّ انّه بعد عدّة تجارب سيجد أنّ هؤلاء العمالقة المزعومين لم يكونوا أعظم منه ولا أشدّ بأسا وأن قامتهم لا تتناسب والفكرة التي كانت مرتبطة في ذهنه بكلمة عملاق: إذ ذاك سيخترع اسما يجمع بينه وبينهم كاسم الإنسان مثلا، وسيترك اسم العملاق إلى الشّيء الكاذب الذي أثار انتباهه طوال مدّة



وهمه. تلك هي الكيفيّة التي يتولّد بها المجاز قبل الحقيقة، عندما تبهرنا الأهوال وتكون الفكرة الأولى التي تقدّمها لنا غير فكرة الحقيقة. انّ ما قلته عن الكلمات والأسماء ينطبق بدون صعوبة على الجمل. لمّا كانت الصّورة الوهميّة التي يقدّمها لنا الهوى هي أوّل ما ظهر لنا فإنّ اللّغة التي تطابقها قد كانت أيضا أوّل ما اخترع ثم أصبحت تلك اللّغة مجازيّة عندما تعرّف الفكر المستنير على خطئه الأوّلي، فلم يستعمل تلك العبارات إلاّ بصدد عين الأهواء التي أنتجتها.



الفصل الرابع

في الخصائص المميّزة للّغة الأولى، وفي التغيرات التي لابدّ أنّها مرّت بها.

تخرج الأصوات البسيطة من الحنجرة بالطّبع، ويكون الفم بالطبع مفتوحا بقدر أو بآخر ولكنّ تغايرات اللّسان والحنك، وهي التّغايرات التي تحوّل النّطق، تتطلّب شيئا من الانتباه والدربة. فإنّنا لا ننجزها إذا ما لم نبتغ انجازها. إن كلّ الأطفال في حاجة إلى تعلّمها والكثير منهم لا يقدرون على ذلك بسهولة.وفي كلّ اللّغات، فإنّ أحرّ مواضع التعجّب غير منطوق بها، والصراخات والآنّات مجرّد تصويتات، أمّا البكم أي الصّمّ، فإنّهم لا ينطقون إلاّ بأصوات غير متمفصلة. بل أنّ الأب «لامي» لا يتصوّر حتّى أنّ النّاس قد كانوا يقدرون على اختراع غير تلك الأصوات لو لا أنّ الله قد تعمّد تعليمهم الكلام. فالتّمفصلات قليلة العدد ولكنّ عدد الأصوات غير محدود، ويمكن للنبرات التي تخصّها أن تتضاعف إلى ما لا نهاية له. أنّ كلّ الأصوات الموسيقية هي كذلك نبرات. صحيح أنّه ليس لنا منها في الكلام غير ثلاثة أو أربعة ولكنّ الصّينيين يملكون منها أكثر من ذلك بكثير. وفي مقابل ذلك فإنّ ما بهم من الحروف الصّوامت يقل عمّا لنا. فإن أنتم أضفتم إلى هذا المصدر من التّركيبات، مصدر الأزمنة أو الكميّة لم تحصلوا على المزيد من الكلمات فقط، بل كذلك على مقاطع متنوّعة تزيد عمّا تحتاجه أثرى اللّغات.

لست أشكّ أبدا في أنّ أولى اللغات لو أنّها مازالت حيّة لظلّت بقطع النّظر عن مفرداتها وعن قواعد تركيبها –محتفظة بخصائص أصيلة تميّزها عن



كلّ اللّغـات الأخـرى. فلا يكفي أنّ كلّ أسـاليب التّعبير في هذه اللّغة لا بدّ لها أن تكون مجازات ومشـاعر وصورا، بل ينبغي لها أن تطابق في جزئها الآلـي موضعهـا الأوّل، وأن تعرض على الحواس والذهـن ما يكاد يكون محتوما من انطباعات الهوى الذي يبتغي البلوغ إلينا.

لمّا كانت التّصويتـات الطبيعية غير متمفصلة، فإنّ الكلمات سـتكون فـي تلك اللّغة قليلة التمفصل. فبضعة من الحروف الصّوامت أذ تتخلّل تلك التّصويتات، معمّرة بذلك فجوتها، تكفي لجعلها سلسـة سـهلة النّطق. وفي مقابـل ذلك فإنّ الأصوات سـتكون شـديدة التّنّوع كما سـيضاعف تنوّع النّبرات من عدد الأصوات عينها. ستكون الكميّة والإيقاع مصدرين جديدين للتّركيب بحيث أنّ الأصوات والتّصويتات والنبرة والعدد وهي من الطبيعة لما كان فعلهـا يكاد يكفي فعل التمفصـلات وهي من التّواطؤ، فإنّنا سـنغنّي عوضا عن الكلام. أن أغلب الكلمات الجذرية سـتكون أصواتا تحاكي نبرة الأهواء أو مفعول الأشياء الحسّية: فتظهر فيها الحاكية الحسّية باستمرار.

سـيكون لهـذه اللّغة الكثيـر من المترادفات للتعبير عن الشّـيء نفسـه في نسـبه المختلفـة[1]. ليكوننّ لها القليل من الصّيـغ الظّرفيّة ومن الكلمات المجرّدة للتّعبير عن تلك النّسب عينها. ولكن ليكونّن لها من كثرة صيغ التّكبير وصيغ التّصغير ومن الكلمات المركّبة ومن أدوات التحسين الزوائد مـا تمنح به من حسـن الإيقاع للمقطوعات المتناغمة ومـن التّصريح للجمل، ليكونّن لها الكثير من مواضع اللّحن والشّذوذ. لتفرّطن في التّناسب النّحوي لتتمسّـك بعذوبة الصّوت وبالعدد والتناغم وجمـال الأصوات. ليكونّن لها عوض الأدلّة حكم، ولتقنعنّ من دون أن تسعى غلى إقناع، ولترسمنّ من دون برهان، ولتشـبهنّ اللّغة الصّينيّة من بعـض الوجوه واليونانيّة من غيرها والعربيّة من غيرها. فلتوسّـعوا هذه الأفكار إلى كلّ تفرّعاتها، ستجدون إذ ذاك أنّ كتاب **اقراطيلوس** لـ«أفلاطون» ليس من السّخافة بالقدر الذي يبدو عليه.

1- يقال أن في العربية أكثر من ألف كلمة مختلفة للتعبير عن «الجمل»، وأكثر من مائة للتعبير عن «السّيف»، إلخ.



الفصل الخامس

في الكتابة

إنّ كلّ مـن يدرس تاريـخ اللّغات وتقدّمها واجد أنّه بقـدر ما تزداد رتابة التّصويتـات تتضاعـف الحـروف الصّوامت، وأنّنا نسـتعيض عمّـا يمّحي من النّبرات وعمّا يتسـاوى من الكمّيـات بتركيبات نحويّة وتمفصلات جديدة. ولكنّ هذه التغيّرات لا تتمّ إلاّ بمفعول الزّمن. فبقدر ما تنمو الحاجات وتتعقّد الأعمال وتمتدّ الأنوار تغيّر اللّغة من طابعها فتصبح اشدّ معقوليّة وأقلّ عاطفيّة، وتعوّض المشـاعر بالأفكار وتكفّ عـن مخاطبة القلـب لمخاطبة العقل. ومن ثمّ بالذات تنطفىء النّبرة وتتعدّد المقاطع؛ فتصير اللّغة أشـدّ ضبطا وأشـدّ وضوحـا، ولكنّها تصير ايضا أفتر، وأصمّ وأبرد. يبدو لـي هذا التدرّج طبيعيّا جـدّا. ثمّـة طريقة أخرى في المقارنـة بين اللّغات وفي الحكـم على قدمها، وهذه الطّريقة تؤخذ من الكتابة، وذلك بحسـب تناسـب عكسي مع مدى اكتمـال هذا الفنّ. فبقدر ما تكون الكتابة خشـنة تكون اللّغة قديمة. إنّ الأسلوب الأوّل في الكتابة لم يكن رسم الأصوات، بل كان رسم الأشياء نفسـها، رسما مباشـرا مثلما كان يفعل المكسيكيّون، أو رسما غير مباشر مثلمـا كان يفعل المصريون قديما. وتوافق هذه الحالة (زمن) اللّغة العاطفيّة، وهـي تفترض أنّ المجتمع قد وجد بعدُ، كمـا تفترض أنّ الأهواء قد ولدت بعد بعض الحاجات.

أمّا الأسلوب الثّاني فيكون بتمثيل الكلمات والقضايا بأحرف اصطلاحيّة، وهو مـا لا يمكن انجازه إلاّ عندما يبلغ تكوين اللّغة كماله، وعندما يتّحد



شـعب برمّته في ظلّ قوانين مشتركـة: فقد توفّر بعدها هنا اصطلاح مضاعف: ذلك شأن الكتابة الصّينيّة، وذلك هو بحقّ رسم الأصوات ومخاطبة العيون.

وأمّا الأسـلوب الثّالث فيكون بتقطيع الصّـوت المتكلّم إلى عدد معيّن من الأجزاء الأساسـيّة التّصويتيّة أو التّمفصلية، بحيث يمكن اسـتخدامها في تركيب كلّ ما يمكن تخيّله من الكلمات والمقاطع. انّ هذا الأسلوب في الكتابة، وهو أسـلوبنا –لابدّ أنّه قد تخيّلته شعوب تشتغل بالتّجارة، اضطرّها كونها تسـافر إلى عديد البلـدان وكونها ملزمة بالتكلّـم بعدّة لغات، إلى اختـراع أحرف تكون مشـتركة بين كلّ اللّغات. ليس هذا بالذّات رسـما للكلام، بل هو تقطيع له.

انّ هذه الأسـاليب الثّلاثة فـي الكتابة، توافق بمقدار مـن الدّقة مختلف الحـالات الثّلاثة التي يمكـن أن نعتبر عليها الأفـراد المجتمعين ضمن أمّة: فرسم الأشياء يناسب الشعوب المتوحّشة، وعلامات الألفاظ والقضايا تناسب الشّعوب الهمجيّة والأبجديّة تناسب الشعوب المدنيّة.

لا يجـب إذن أن نعتقـد أن هـذا الاختراع الأخير دليل على إغراق الشـعب المختـرع فـي القدم بل انه ليجوز على العكس من ذلك ان يكون الشـعب الذي وجده إنّما قصد إلى تواصل أيسـر مع شعوب تتكلّم لغات أخرى، وهي شـعوب قد كانت على أيّ حال معاصرة لـه، وقد كان بإمكانها أن تكون أقـدم منه. لا يمكننا أن نقول نفس الشّـيء عن الأسـلوبين الآخرين، ولكنّي أعتـرف بأنّنا، إذا ما تقيدنا بما نعرفه من التّاريخ والوقائع، فإنّ الكتابة الأبجديّة تبدو متساوية في القدم مع أيّ كتابة أخرى. ولكنّه من غير المستبعد أن يكون الأمر راجعا إلى نقص في الآثار المتبقّية من الأزمنة التي لم توجد فيها الكتابة.

انّـه لمـا يقلّ احتماله أن يكـون أوّل من فكّروا فـي تحليل الكلام إلى علامات أساسـيّة قد حقّقوا منذ البداية تقسـيمات تامّة الدقّـة. وعندما تفطّنوا بعـد ذلك إلـى نقص تحليلهم، عمـد بعضهم، مثل اليونانيّيـن، إلى مضاعفة أحرف أبجديّتهـم، في حين اكتفى البعض الآخر بتنويـع معانيها أو أصواتها



بواسطة أوضاع أو تركيبات مختلفة. إن نقوش آثار **تشالمينار** التي صمّم لنا منها «شاردان» رسوما، لتبدو مكتوبة على هذا النّحو. فإنّنا لا نتميّز ضمنها إلاّ شكلين أو حرفين[1]. ولكنّهما يتّخذان أحجاما مختلفة وأوضاعا متعدّدة. لا بدّ أن هذه اللّغة المجهولة التي يكاد المرء يذهل من قدمها، قد بلغت آنذاك كمالها، خاصّة إذا ما اعتبرنا كمال الفنون التي يشهد لها جمال الأحرف، الصّروح الرّائعة التي توجد بها تلك الكتابات. وانّي لفي حيرة من فرط قلّة ما يذكر النّاس هذه الآثار العجيبة: فانّي لأقرأ وصفها عند «شاردان»، فما أظنّني إلاّ قد انتقلت إلى عالم آخر. يبدو لي أنّ كلّ هذا يدعو بحدّة إلى التّفكير[2].

لا يتبع فنّ الكتابة فنّ الكلام أصلا. بل هو يتبع حاجات من طبيعة أخرى، وقد تبكّر ولادتها عند الشّعوب. ويحتمل أن لا تكون تلك الحاجات قد ظهرت أصلا لدى بعض الأمم المغرقة في القدم. إننا نجهل عدد القرون التي ظلّ خلالها فنّ الحروف الهيروغليفية هو الخطّ الوحيد تقريبا لدى المصريين. ولقد قام البرهان على أنّ مثل ذلك الخطّ يمكن أن يكفي شعبا متمدّنا، ويشهد على ذلك مثال المكسيكيّين الذين كانت كتابتهم أقلّ يسرا من الكتابة الهيروغليفية.

1- يقول «شاردان»: «إن بعض الناس يندهشون من أنه يمكن بشكلين اثنين أن نعمل كل هذه الحروف. ولكني فيما يخصني لا أرى سببا لمثل هذا الاندهاش القوي، بما أن حروف أبجديتنا التي عددها ثلاثة وعشرون حرفا، ليست في الحقيقة مركبة إلا من خطين، المستقيم والدّائري. ويعني ذلك انه يمكننا أن نعمل كل الحروف التي تتكون منها كلماتنا بواسطة حرف «C» وحرف «I».

2- يبدو هذا الحرف شديد الجمال وليس فيه غموض أو همجيّة، لكأن الحروف قد طليت ذهبا، إذ ما زال يظهر في الكثير منها، وخاصة في الغليظة، أثر الذّهب. وأكيد أن عدم اتيان الهواء على ذلك التذهيب طيلة كل هذه القرون هو أمر عجيب لا يمكن تصوره. وعلى كل فلا عجب في أن عجز كل علماء العالم على فهم هذه الكتابة فهي لا تشبه أيّة واحدة مما وقع بين أيدينا من الكتابات، في حين أن كل الكتابات المعروفة إلى اليوم تتشابه إلى حدّ ما، باستثناء الكتابة الصينية وتبدو كأنّها راجعة إلى نفس الأصل. ولعلّ الأغرب في ذلك هو المجوس، الذين تبقوا من الفرس القدامي، واحتفظوا بديانتهم، ليسوا بأعرف منّا بهذه الأحرف، وليس ذلك فقط بل أن حروفهم ليست بأشبه بتلك الحروف من حروفنا. فينتج عن ذلك أن هذه الحروف هي أما من رموز القبلانية، وهو غير محتمل فهذا الحرف هو الحرف المشترك والطبيعي لهذه الآثار في كل المواضع، في حين أن رمز القبلانية ليس ثمّة غيره بعين ما له من النقش. أو أنها من القدم بحيث لا نكاد نجرؤ على قوله «وفعلا فلعل ما يجعلنا «شاردان» نفترضه من هذا المقطع هو أن هذه الحروف قد كانت منسية بعد في زمن قورش والمجوس، وأن ضآلة معرفتهم بها إذ ذاك كضآلة معرفتنا بها الآن.



انّه لمن اليسير علينا، عندما نقارن بين الابجديات القبطيّة والسريانية أو الفنيقية أن نجزم بأن إحداها متأتّية من الأخرى. وقد لا يكون من الغريب أن تكون الأبجديّة الأخيرة هي الأصل أو أنّ أحدث الشعوب قد كان علّم في هذا الصّدد أقدمها. وواضح أيضا أنّ الأبجديّة اليونانيّة متاتّية من الأبجديّة الفينيقيّة بل أنّنا لنرى أنها لا بدّ قد صدرت منها. وسواء أكان **كادموس** هو الذي جاء بها من **فينيقيا** أو أنّ غيره هو الذي جاء بها، فإنّه يبدو مؤكّدا في كلتا الحالتين أن اليونانيّين لم يسعوا إلى جلبها وأنّ الفينيقيّين قد جاؤوا بها بأنفسهم ذلك أنّهم كانوا الأوائل من بين شعوب آسيا وإفريقيا، بل وربّما الوحيدين[1] الذين تاجروا في أوروبّا، وقد جاؤوا إلى بلاد اليونان قبل أن يذهب إليهم اليونان: وهو ما لا يدلّ أبدا على أنّ الشعب اليوناني ليس كمثل شعب فينيقيا في القدم.

لم يكتف اليونانيون في البداية بتبنّي أحرف الفينيقيين، بل تبنّوا حتّى اتّجاه السّطر عندهم من اليمين إلى الشّمال ثمّ عنّ لهم من بعدد ذلك أن يخطّوا خطّ المحراث أي أن يستأنفوا السّطر تناوبا من الشّمال إلى اليمين ثمّ من اليمين إلى الشّمال[2] وأخيرا كتبوا مثلما نكتب اليوم، أي باستئناف كلّ السّطور من الشّمال إلى اليمين. ليس في هذا التقدّم من شيء إلاّ وهو طبيعيّ. فإنّ الكتابة الحراثيّة هي من دون نقاش أيسر الكتابات قراءة. بل وإنّي لمندهش من عدم إقرارها مع الطّباعة. ولكن لمّا كانت عسيرة الكتابة باليد، فلا بدّ أنّها اضمحلت عندما تعدّدت المخطوطات. غير أنه ليس يلزم من أنّه ان كانت الأبجديّة اليونانية متأتية من الأبجدية الفينيقية أن اللغة اليونانية متأتية من اللغة الفينيقية. فإن إحدى هاتين القضيتين ليست لازمة أصلا عن الأخرى. ويبدو أن اللغة اليونانية قد كانت بعد قديمة جدّا في حين أن فنّ الكتابة كان حديثا بل ناقصا عند اليونانيين. فلم يكن عندهم من الحروف، إن كان لهم منها، أكثر من ستّة عشر حرفا، وذلك إلى حدّ حصار «طروادة». ويقال إن ‹بالاماد› قد أضاف إليها أربعة وأن ‹سيمونيد› أضاف الأربعة الأخرى. إن

1- أعتبر القرطاجنّيين فينقيين، بما أنهم قد كانوا مستعمرة من مستعمرات صور.

2- فوزانياس. لقد كتب اللاتينيون في البداية كذلك. ومن ثم جاءت كلمة «Versus» حسب ‹ماريوس فيكتورينوس›.



كل هذا قد جرّنا إلى ماض بعيد بعض الشيء. وعلى العكس من ذلك فإنّ اللّغة اللاّتينيّة، وهي أحدث من اليونانيّة، قد حظيت منذ ولادتها تقريبا بأبجديّة كاملة لم يستعملها الرّومان الأول مع ذلك إلاّ نادرا، إذ أنهم لم يشرعوا إلا مؤخرا جدا في كتابة تاريخهم وأنهم لم يكونوا يسجلون خماسياتهم إلا بواسطة مسامير.

وعلى كلّ فليس ثمّة من الحروف أو من عناصر الكلام محدّدة تحديدا مطلقا. فلبعضهم أكثر ولبعضهم أقلّ بحسب اللّغات وبحسب مختلف التّعديلات التي تدخلها على التّصويتات وعلى الحروف الصّوامت. إن أولئك الذين لا يحسبون الاّ خمسة تصويتات لمخطئون كثيرا فقد كان لليونانيّين منها سبعة، وللرّومان الأول ستّة[1]. ويحتسب جماعة ‹بور روايال› عشرة منها، أمّا السّيد ‹دوكلو› فسبعة عشر. وانّي لا أشكّ قطّ في أنّه قد كان يمكننا أن نجد منها أكثر ممّا وجدنا بكثير لو أنّ العادة كانت رهّفت الأذن وروّضت الفم على مختلغ ما في وسعهما من التّغايرات فعلى قدر رهافة العضو يتفاوت ما نجده من التّغايرات بين التّصويت «A» حادّا والتّصويت «O» غليظا، أو بين التّصويت «I» والتّصويت «E» مفتوحا، الخ... ذلك ما يحسّ به كلّ واحد منّا عندما ينتقل من تصويت إلى آخر بصوت متّصل ومتدرج. فإنّه يمكننا أن نضبط كثيرا أو قليلا من تلك الدّرجات، وان نرمز إليها بأحرف خاصة، وذلك بقدر ما يكون فعل العادة فينا قد جعلنا حساسين بها. وتخضع تلك العادة لما هو مستعمل في اللّغة من أنواع الأصوات التي يألفها العضو من حيث لا يشعر. ويمكن أن يقال نفس الشّيء عن الحروف الممفصلة أو الصّوامت. لكن أغلب الأمم لم يكن ذلك هو فعلها بل أخذ بعضها أبجدية البعض الآخر ومثّل بنفس الأحرف تصويتات وتمفصلات مختلفة جدّا، ممّا يجعل المرء مهما بلغ من الدقّة في رسم الكلمات يقرأ دائما اللّغة التي ليست لغته قراءة مضحكة، اللّهم إلاّ أن يكون قد تدرّب عليها كثيرا.

---

[1] Vocales quas groece septem, Romulus sex, usus posterior quinque conmemeorat, y –I velut groeca rejecta. Mart. Capel I . III.



إن الكتابـة التي يبدو من مهامّهـا تثبيت اللّغة، هي عينها التي تغيّرها. فهي لا تغيّر كلماتها بل عبقريتها. إنها تعوّض التعبير بالدّقة. فالمرء يؤدّي مشاعره عندمـا يتكلّم وأفكاره عندمـا يكتب. فهو عند الكتابـة ملزم بأن يحمل كلّ الألفـاظ علـى معناها العامّ، ولكـنّ الذي يتكلّم ينـوّع من الدّلالات بواسـطة النّبرات، ويعيّنها مثلما يحلو له. فمـا هو يكتف من تقلّص ما كان يعوقه عـن وضوح العبارة، بل زاد ما يعطي متانتهـا. ولا يمكن للُغةٍ نكتبها فقط أن تحتفظ طويـلا بحيويّة تلك التي نتكلمها فقط. فإنما يكتب المرء التصويتـات لا النغم، غير أن النغم والنبـرات ومختلف انعطافات الصوت في اللغـة ذات النبر، هي التي تمنـح التعبير أقصى ماله من الطاقة، وهي التي تقدر على تحويل الجملة من جملة شـائعة الاسـتعمال إلى جملة لا تستقيم في غير الموضوع الذي هي فيه. أما الأسباب التي تتخذ للتعويض عن ذلك، فما هي إلاّ توسـيع من مجال اللغة المكتوبة وتمديـد لها، وهي بانتقالها من الكتب إلى الخطاب تشنّج الكلام عينه[1]. إذا المرء أضحى كل شيء يقوله كما لو كان يكتبه، لم يغد إلا قارئا يتكلّم.

1- ولعلّ الوسيلة التي تكون أحسنها والتي لا يكون فيها هذا العيب، هي التنقيط لو تركوه على حال أقل سواءا مما هو عليه. فلماذا ليس لنا مثلا نقطة النداء، في حين أن نقطة الاستفهام التي لدينا أقل لزوما بكثير. فإن مجرد التركيب ينبؤنا بما إذا كان ثمة سـؤال أم لا، وذلك على الأقل في لغتنـا. فعبارة «هل تأتي؟» وعبارة «أنت تأتي» ليسـتا نفس الشـيء. ولكـن كيف يمكن لنا أن نميّز كتابيّا بين انسـان نسمّيه وانسـان نناديه. فهذا التباس قد كانت ترفعه نقطة النداء. وعين هذا الالتباس نجده في السخرئية، عندما لا تشعرنا اللهجة بذلك.



الفصل السادس

هل من المحتمل أنّ ‹هوميروس› قد كان يعرف الكتابة.

ومهما قيل لنا عن اختراع الأبجديّة اليونانيّة، فإنّي لأظنها أحدث بكثير ممّا يظنّون. وأقيم هذا الرّأي أساسا على طبيعة اللّغة. فكثيرا ما خطر ببالي أن لا اشكّ فحسب في أنّ ‹هوميروس› قد كان يعرف الكتابة، بل وحتّى في أن الكتابة قد كانت معروفة في زمانه. ولشدّ ما يؤسفني ما تقطع به حكاية ‹بلّيروفون› ضمن الإلياذة من تكذيب لهذا الشكّ. ولمّا كان من سوء حظّي أن أكون مثل الأب ‹هاردوين› عنيدا بعض الشيء بمفارقاتي، فإني لو كنت أقلّ جهلا لوددت مدّ شكوكي إلى هذه الحكاية نفسها، واتهامها بأنها قد انتحلت من دون كبير فحص من قبل مصنّفي ‹هوميروس›. فلا يكفي أنّ المرء يكاد لا يرى في باقي الإلياذة آثارا لهذه الصناعة بل إنّي لأجرؤ على القول بأنّ **الأوديسة** بأكملها ليست إلا نسيجا من الحماقات والعبارات التي قد كان يكفيها حرف أو حرفان لتكون هباء منثورا، وذلك بعكس ما يقدّم لنا هذا النشيد كنشيد معقول بل وربما كنشيد حاذق النظم، بفرض أن أبطاله قد كانوا جاهلين الكتابة.

فلو أنّ الإلياذة قد كانت كتبت، لقلّ التّرنّم بها ولقلّ البحث عن الرّباسدة[1]، ولقلّ تكاثر هؤلاء. فليس ثمّة من بين الشّعراء من تُرنّم بشعره مثلما تُرنّم بشعر ‹هوميروس› اللّهم إلاّ "**تاس**" بالبندقية. وحتى هو فلم يَتغَنّ بشعره إلاّ العنادلة، وليسوا بقراء كبار. ثم إن اختلاف اللهجات التي يستخدمها ‹هوميروس›

1- الرباسدة جمع ربسود [rhapsode] وهو راوية محترف للقصائد الملحمية.



يمثل أيضا قرينة متينــة جدا؛ فإن اللهجات تتمايز ضمن الكلام، وتتقارب بل تندغم ضمن الكتابة، بحيث يرجع كل شيء من حيث لا ندري إلى نموذج مشترك. فإنّ الأمة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها، فلا تبقى في الأخير إلا في شكل رطانة لدى الجمهور الذي يقرأ قليلا ولا يكتب أصلا.

ولكن لمّا كان هذان النّشيدان متأخّرين عن حصار طروادة، فإنّه لا يجوز البتّة أنّ الذين قاموا بهذا الحصار من اليونانيّين قد عرفوا الكتابة وأنّ الشّــاعر الذي تغنّى به لم يعرفها. لقد ظلّ هذان النّشــيدان طويلا مكتوبين في ذاكرة النّاس فقط. ثمّ تدوينهما مؤخّرا وبمشــقّة كبــرى. فعندما بدأت بلاد اليونان، تعجّ بالكتب والشّعر المكتوب، إذ ذاك شعر النّاس بروعة شعر «هوميروس» بالمقارنة مع كلّ ذلك. لقد كان غيره من الشعراء يكتبون أمّا «هوميروس» فهو وحده قد تغنّى ولم تزل أناشيده الإلهيّة ملذوذة السماع حتّى امتلأت أوروبا بالهمج الذين أقبلوا يحكمون على ما لم يكن بوسعهم تذوّقه.



الفصل السابع

في العروض الحديث

ليس لنا من تصوّر عن لغة رنّانة متناغمة تتكلّم أنغاما كما تتكلّم أصواتا. ولعمري فإنّ المرء ليظنّ خطأ أنّ النّبرات تقوم مقام النّغم. فانّا لا نخترع النّبرات إلاّ وقد ضاع منّا النّغم وانتهى[1] وأبعد من ذلك في الوهم ما

1- يزعم بعض العلماء، خلافا للرأي العام وخلافا للدليل المستمد من كل المخطوطات القديمة، أن اليونانيين قد عرفوا في الكتابة تلك العلامات التي نسميها نبرات، وأنهم قد مارسوها. ويؤسسون هذا الرأي على مقطعين سأوردهما كما هما معا، حتى يتمكن القارئ من الحكم على معناهما الحقيقي فها هو المقطع الأول، وهو لـ«شيشرون»، من كتابه **في الخطيب** الكتابIII، رقم 44:

Hane diligentiam subsequitur modus etiam et forma verborum, quod jam vercor ne huic Catulo Vidatur esse puerile. Versus enim veteres illi in hac soluta oratione propemodum, hoc est, numeros quosdam, nobis esse adhibendos putaverunt. Interspirationis enim non defatifationis nostroe, neque libraiorum notis sed verborum est sententiarum modo, interpunctas clausulas in orationibus esse voluerunt : idque princeps Isocrates institaisse fertur, ut inconditam antiquorum dicendi consuetudinem, delectationis atque aurium causa (quemadmodum seribit dis cipulus ejus Naucrates), numeris adstringeret. Namque hoec duo, musici, qui erant quondam iidemporetoe, machinati ad voluptatem sunt versum, atque cantum, ut et verborum numero, et vocum modo, delectatione vincerent aurium satietatem. Hoec igitur duo, vocis dico moderationem, et verborum conclusionem quoad vrationis seritas pati possit, a poretica ad eloquentiam traducenda duxerunt.

وها هو المقطع الثاني، وهو لا يزيدور، من مؤلفه الاصول الكتابI، الفصل 20:

Proeterea quoedam sententiarum notoe apud celeberrimos auctores fuerunt, quasque antiqui ad distinctionem scripturarum carminibus et hostorus apposuerunt/ Nota est figura propria in litteroe modum posita ad demonstrandum unamquamque verbi sententiarumque ac versuum rationem. Notoe autem versibus appenuntur numero XXVI, quoe sunt nominibus infra scriptis, etc.

وفيما يخصني فإني ارى في ذلك ان الناسخين المهرة قد كانوا يمارسون زمن «شيشرون» فصل



نعتقده من أنّ لنا في لغتنا نبرات في حين لا نملك منها شيئا. فليست نبراتنا المزعومة إلاّ مصوّتات أو علامات كميّة، ولا تشكّل أي نوع من النّغم. ويدلّ على ذلك ما يمكن من أدائها كلّها أمّا بأزمنة متفاوتة أو بتغايرات في قرع الشّفاه واللّسان أو الحنك، وعن كلّ هذه يكون تمايز الأصوات فليس ثمّة نبرة واحدة يتمّ أداؤها بواسطة تغايرات الحنجرة التي عنها يكون تمايز الأنغام. وهكذا فإن لم تكن نبرة المدّ عندنا مجرّد صوت فهي مصوّت طويل أو هي لا شيء. ولننظر الآن في الكيفيّة التي كانت عليها نبرة المدّ لدى اليونانّيين:

يقول دونسي الهليكرناسّي انّ رفع الصّوت عند النّبرة الحادّة وخفضه عند النّبرة الغليظة قد كانا فاصلة خماسيّة. وهكذا فانّ النّبرة العروضيّة وخاصّة نبرة المدّ، قد كانت أيضا نبرة موسيقيّة يرتفع فيها الصّوت بفاصلة خماسيّة، ثمّ ينخفض فاصلة أخرى وذلك في نفس المقطع[1]. فنحن نرى بما يكفي، في هذا النّص وفيما يتّصل به، أنّ السّيد «دوكلو» ينكر وجود نبرة موسيقيّة في لغتنا، فلا يعترف إلاّ بالنبرة العروضيّة ونبرة المصوّت. وتضاف إلى ذلك نبرة الرّسم التي لا تغيّر من الصّوت شيئا ولا من النّغم ولا من الكميّة، ولكنّها تارة تشير غلى حرف مضمر كما هو الحال في نبرة المدّ وطورا تضبط ما يلتبس من معنى كلمات آحاديّة المقطع كما هو الحال في النّبرة الغليظة التي تميّز «Où» ظرف المكان عن «OU» أداة الفصل، أو تميّز «à» كأداة عن «a» كفعل. انّ هذه النّبرة لا تميّز بين هذه الكلمات الأحاديّة المقطع إلاّ بالعين، وليس ثمّة ما يميّز بينها في النّطق. وهكذا فإنّ ما يعتمده الفرنسيّون غالبا من تعريف للنّبرة لا يطابق أيّة نبرة في لغتهم.

الكلمات، وبعض العلامات التي تضاهي تنقيطنا. كما أرى فيه أيضا اختراع العدد وتفخيم النثر، المنسوب إلى ايزقراطس. ولكني لا أرى فيه أبدا العلامات المكتوبة، والنبرات: وحتى أن رايتها، فغنه لا يمكن أن نستنتج من ذلك إلا أمرا لا أناقش فيه، وهو يندرج بغير عناء ضمن مبادئ، وهذا الأمر هو أن الرومان عندما شرعوا في دراسة اليونانية، فإن النساخ قد عمدوا إلى اختراع علامات النبرات، والتشديد والغيقاع لكي يبينوا لهم وجه نطقها. ولا ينتج ن ذلك أبدا أن هذه العلامات قد كانت مستعملة لدى اليونان الذين لم تكن بهم أيّة حاجة إليها.

1- السيد «دوكلو»، ملاحظات حول النحو العام والمعقول ص: 30



وإنــي لأتصور أن الكثير من النحويين الذين تعلّمــوا أن النبرات إنما هي علامــات ارتفاع في الصّــوت أو انخفاض فيه، ســيضجّون هنــا أيضا، تنديدا بالمفارقة. وهم لفرط ما لا ينتبهون إلى التّجربة، ســيظنّون أنفسهم قادرين على أن يــؤدّوا بتغايرات في الحنجرة عين تلك النّبــرات التي لا يؤدّونها إلاّ بتغاير انفتاحات الفم وأوضاع اللّســان[1]. ولكن إليكم ما سأقوله لهم معاينة للتّجربة وجعلا لحجّتي مفحمة:

فلتناغموا بين صوتكم وتصادي بعض الآلات الموســيقيّة، ولتنطقوا على ذلك التّصادي كلّ ما يمكنكم تجميعه من الكلمات الفرنســية المتالية مهمــا اختلفت نبراتها. ولمّا كان الأمر غير متعلّق هنا بالنّبرة الخطابيّة ولكن بالنّبرة النّحوية، فليس حتّى من الضّروري ان تكون هذه الكلمات المختلفة متتابعة المعنى. ولتنظروا فيما أنتم تتكلّمون هكذا ان لم تكونوا تؤدّون على نفس ذلك الصّوت كلّ النّبرات، وذلك بنفس القدر من الوضوح والجلاء الذي قد كان يكون لكم لو أنّكم كنتم تنطقون بدون قيد وأنّكم كنتم تغايــرون طبقتكم الصّوتية. فإنّي أقول، إذا ســلّمنا بهذا الأمر وهو أمر لا يقبل النّقــاش لمّا كانــت كلّ النّبرات تؤدّي على نفس الطّبقة، فإنّها لا تشــكّل أصواتا مختلفة. ولا أتصوّر ما يمكن الردّ به على هذا القول.

إن كلّ لغــة يمكــن لنــا فيها أن نخلع عــدّة ألحان موســيقيّة على نفس الكلمــات، فليس لها أيّة نبرة موســيقيّة محدّدة إذ لو كانــت النّبرة محدّدة لكان اللّحن كذلك. فما ان يصبح الغناء تحكّميا حتّى تصير النّبرة زائدة لا طائل من ورائها.

إنّ كلّ اللّغــات الأوروبيــة الحديثــة هي في نفــس الحالــة تقريبا وحتّى الإيطالية، فإنّي لا أســتثنيها مــن بينها. فإنّ اللّغة الايطاليّة، كاللّغة الفرنســيّة،

1- وقــد يظن ان الإيطاليين يميزون بتلك النبــرة عينها مثلا é الفعل من e أداة الربط. ولكن الأول يتميز في الأذن بصوت أقوى وأشد، مما يجعل النبرة التي تطبعه نبرة صوتية. وهذه ملاحزة ما كان لكتاب بونماتيي حق في أن لا يبديها.



ليست موسيقيّة في حدّ ذاتها أصلا. ولا يرجع الفرق بينهما إلا إلى كون إحداهما قابلة للموسيقى وأنّ الأخرى غير قابلة لها.

ويؤدّي كلّ ما تقدّم إلى إثبات هذا المبدأ: أنّ كلّ اللّغات الأدبيّة لا بدّ لها بموجب تقدّم طبيعيّ أن تغيّر من طبعها، فتتضاءل قوّتها ليتزايد وضوحها وأنّنا بقدر ما تتعلق همّتنا بتحسين النّحو والمنطق، نزيد من سرعة هذا التقدّم، وأنّه لا يلزمنا لكي نسرع في جعل لغة ما لغة باردة ورتيبة إلاّ إقامة أكاديمية لدى الشّعب الذي يتكلّمها.

تعرف اللّغات المشتقّة بما فيها من الفرق بين الرّسم والنطق. فبقدر ما تكون اللّغات قديمة وأصيلة يقلّ التحكّم عن أسلوب نطقها، فيقلّ بالتّالي تعقيد الحروف المحدّدة لهذا النّطق ويقول السّيد «دوكلو» "انّ كلّ ما كان لدى القدماء من العلامات العروضيّة حتّى إذا ما افترضنا أنّه قد وقع ضبط مواطن استخدامها لم تكن تضاهي الاستعمال". أمّا أنا، فسأقول أكثر من ذلك: لقد عوّضت تلك العلامات الاستعمال. فلم يكن للعبرانيين نقط أو نبرات، ولم يكن لهم حتّى مضوّتات. وعندما أرادت الأمم الأخرى أن تشتغل بتعلّم العبريّة، وعندما تكلّم اليهود لغات أخرى، فقدت لغتهم رنّتها. فكان لابدّ لضبطها من النّقط والعلامات. ولكن ذلك أثبت معاني الكلمات من جديد أكثر ممّا أثبت نطق اللّغة. فلو تكلّم يهود اليوم بالعبريّة لما فهمهم أجدادهم.

وتقتضي معرفة اللّغة الانقليزية أن نتعلّمها مرّتين: إحداهما قراءة والأخرى نطقا. هب انّ انقليزيّا كان يقرأ ما كان شخص آخر غريب عنه يتابع (ما كان يقرأ) في الكتاب. فان هذا الأخير لن يجد أيّة علاقة بين ما يراه وما يسمعه. لم ذلك؟ لأنّه لمّا كانت انقلترا قد تعاقبت على احتلالها شعوب مختلفة، فقد ظلّت الكلمات تكتب بنفس الرّسم في حين تغيّر أسلوب نطقها كثيرا. فثمّة فرق حقيقيّ بين العلامات التي تحدّد معنى الكتابة والعلامات التي تضبط النطق. وقد يكون من اليسير جدّا أن نضع بالصّوامت وحدها لغة جدّ واضحة في الكتابة ولكنّه لا يكون بوسعنا التكلّم بها. ولعلّ في الجبر



بعضــا من هذه اللّغة. فعندمــا تكون لغة ما أوضح برســمها ممّا هي بنطقها، فتلك شــهادة على أنّها مكتوبــة أكثر ممّا هي منطوقة. ولعــلّ لغة العلماء المصريين قد كانت على هذه الحالة. كذلك اللّغات الميتة بالنّسبة لنا. أمّا اللّغات التي تشــحن بما لا يلزم من الصّوامت، فربما بدت الكتابة سابقة فيها علــى الكلام. ومن لا يظن اللغــة البولونية في هذا الوضع؟ وإذا صح ذلك، فلا بد أن تكون البولونية ساعتها أبرد اللغات كلها.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن

إختلاف أصل اللّغات عموما ومحليّا.

إنّ كلّ ما قلته إلى هذا الحدّ ينطبق على اللّغات البدائية عامّة وعلى ما يحصل في خلال مدّتها من تقدّم. ولكنّه لا يفسذر أصلها ولا اختلافاتها. فإنّ السبب الرّئيسي الذي يميّز بينها محلّي. فهو آت من المناخات التي تتولّد فيها ومن الأساليب التي تتكوّن بها. فإلى هذا السّبب يجب الرّجوع إذا رمنا تصوّر ما نلاحظه بين لغات الجنوب ولغات الشّمال من اختلاف عامّ وخصوصيّ. انّ عيب الأوروبيين الكبير هو أنّهم يتفلسفون دائما في أصول الأشياء بحسب ما يحدث حولهم. فلا يقعدون أبدا عن أن يقدّموا لنا مشهد النّاس الأوّلين إذ يسكنون أرضا قاسية قاحلة ويموتون بردا وجوعا، ويتعجّلون في أن يصنعوا لأنفسهم غطاء ولباسا. وأهم لا يرون -أينما رفعوا أبصارهم- إلا جليد أوروبا وثلوجها، فلا يخطر ببالهم أنّ النّوع البشري ككلّ الأنواع الأخرى إنّما تولّد في البلاد السّاخنة وأنّ ثلثي الكرة الأرضية لا يكادان يعرفان الشّتاء. لا بدّ من أن ننظر حولنا عندما نريد أن ندرس النّاس. ولكنّنا عندما نريد أن ندرس الإنسان مطلقا، لابدّ أن نشيّع بصرنا إلى بعيد. لا بدّ من أن نلاحظ الفروق أولا حتّى نكتشف الخصائص.

انّ الجنس البشري الذي تولّد في البلاد السّاخنة يمتدّ من بعد ذلك إلى البلاد الباردة. فهناك يتكاثر ثمّ ينسحب إلى البلاد السّاخنة. وعن هذا الوضع من الامتداد والانسحاب، تكون انقلابات الأرض ويكون اضطراب سكّانها المتواصل. فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطّبيعة ذاته. وانّي



لمقدم هنا على استطراد طويل في الموضوع قد أكل عليه الدّهر وشرب حتّى صار مبتذلا ومع ذلك فلا بدّ من الرّجوع إليه دائما حتّى نقف على أصل المؤسّسات الإنسانيّة.



الفصل التاسع

تكوّن اللّغات الجنوبيّة

لم يكن للبشـر المشتّتين على وجه الأرض في الأزمنة الأولى[1] من مجتمع إلاّ مجتمع الأسـرة، ولم تكن لهم من القوانيـن إلاّ قوانين الطّبيعة ومن اللّغة إلاّ لغة الإيماء، وبضعة أصوات غير متمفصلة[2] لم تكن تربط بينهم أيّة فكرة للأخـوّة المتبادلة. ولما لم يكن لهم في ما عـدا القوّة من حكم فقد كانوا يظنّـون بعضهم أعـداء للبعض. فضعفهم وجهلهم هما اللّـذان كانا يعطيانهم هذه الفكرة. ولمّا كانوا لا يعرفون شيئا، فقد كانوا يخافون كلّ الأشياء. لقد كانوا يهاجمون غيرهم للدّفاع عن أنفسهم. إنّ الإنسان الذي ندعه وحده علـى وجه الأرض تحـت رحمة الجنس البشـري لا بدّ أنّه قـد كان حيوانا شرسـا. لقد كان مستعدّا لأن يلحق بالآخرين كلّ الشرّ الذي كان يخشاه منهم. فإنّ الخوف والضعف هما أصل القساوة.

لا تنمـو الأهـواء الاجتماعيّة فينا إلاّ بقدر اسـتنارتنا. فلـولا الخيال الذي يحرّكها لظلّت الشفقة على كونها طبيعيّة في قلب الإنسان جامدة إلى الأبد.

1- أطلق عبارة «الأزمنة الأولى» على أزمنة تفرق الناس، بقطع النظر عن العصر البشري الذي نضبط فيه فترة ذلك التفرق.

2- ليـس أصـل اللغات الحقيقية أصلا منزليا. فلا يمكن أن تتأسـس هـذه اللغات إلا على تواطؤ أعم وأدوم. أن متوحشـي أمريكا يكادون لا يتكلمون إلا خارج بيوتهم. فكل واحد منهم يلازم الصمت في كوجه، ويتحادث إلى عائلته بالإشـارات. وهذه الإشارات قليلة التردد لأن المتوحش أقـل حيرة واقل تلهفـا من الأوروبي، ولأنه ليس لـه مثل الأوروبي من الحاجـات، وأنه يعمل على تحقيقها بنفسه.



كيف يبلغ بنا التأثّر إلى حدّ الشـفقة؟ إنّ ذلك يكون بانتقالنا خارج أنفسنا وتماهينـا مع الكائن الذي يتألّم. فإنّنا لا نتألّم إلا بمقدار ما نعتبر أنّه يتألّم. وما في أنفسنا نحسّ بالألم بل في نفسه هو نحسّ به. فليتأمّل المرء فيما يتطلّبه هذا الانتقال من المعارف المكتسبة: كيف يمكنني أن أتخيّل آلاما ليس لي أيّ تصـوّر عنها؟ كيف أتألّم لرؤية غيري يتألّم أن لم أكن أعرف على الأقلّ أنّه يتألّـم، وكيف ان كنت جاهلا بما هو مشـترك بينه وبيني؟ فمن لم يفكّر أبدا لم يمكنه أن يكون رحيما ولا عادلا ولا عطوفا، بل لم يمكنه حتّى أن يكون قاسيا وحقودا. من لا يتخيّل شيئا لا يحسّ بغير نفسه، وهو وحيد وسط الجنس البشري.

يتولّـد التّفكير عن الأفـكار إذ نقارن بينها، وكثـرة الأفكار هي التي تحملنا على ذلك. فليس بوسـع من لا يرى غير شيء واحد أن يقارن. والذي لا يرى إلاّ عددا يسيرا منها، لم يزل هو هو منذ صباه، فإنّه لا يقارن بينها أيضا، لأنّ تعـوّده رؤيتها يجرّده ممّا يلزمه من الانتباه لتفحّصها. ولكنّنا على قدر ما يسترعي انتباهنا شيء جديد، نروم معرفته، ونروم أن نقف له على علاقات بما نعرفه من الأشياء.

فإنّنـا هكذا نتعلّم اعتبار ما هو واقع تحـت أنظارنا، وهكذا أيضا تحملنا رؤية ما هو غريب عنّا على أن نتلفّت إلى فحص ما هو قريب منّا.

فلتطبّقوا هذه الأفكار على النّاس الأولين، سترون إذ ذاك علّة همجيتهم. فلأنّهم لم يروا أبدا غير ما كان محيطا بهم، فقد جهلوا حتّى إيّاه، بل لم يعرفوا بعضهم بعضا. لقد كان في أذهانهم صورة عن الأب أو عن الابن أو عن الأخ، أما عن الإنسان فلا. وكانت أكواخهم تؤرى كلّ نظرائهم. وفي حسابهم أنّ الغريب والدّابة والغول هي كلّها سواء، وما كان الكون بأسره عندهم شيئا غير ما كانوا وما كانت عائلاتهم.

مـن هنا يأتـي ما نراه مـن التّناقضـات الواضحة بين أوليـاء الأمم: كلّ تلـك الفطرة مع كلّ تلك الوحشـيّة، كلّ تلك الشّراسـة في العادات



مـع كلّ تلك الرّقة في القلوب، كل ذلـك الحبّ لعلائلاتهم مع كل ذلك البغض لنوعهم. لقد ازدادت مشاعرهم قوّة باستقرارها في أقربائهم: إذ كان كلّ مـا يعرفونه عزيزا عليهم. ولمّا كانوا أعداء لبقيّة العالم الذي لم يكونـوا يرونه، والذي كانوا يجهلونـه، فإنّهم لم يكونوا يكرهون إلاّ ما لم يكن بوسعهم معرفته.

لقـد كانت أزمنة الهمجيّـة هذه هي القرن الذّهبـي لا لأنّ النّاس كانوا متّحديـن ولكن لأنّهم كانوا متفرّقيـن. لقد كان كلّ واحد منهم، على ما يقولون، يعُدّ نفسـه سيّد كلّ شـيء. ربّما! ولكن لم يكنن منهم من كان يعـرف أو يشـتهي غير ما كان في حوزتـه. فلقد كانت حاجاتـه تبعده عن نظرائه عوضا عن أن تقربه منهم. وان شـئتم، فإنّ النّاس كانوا يهاجم بعضهم بعضـا عند اللّقاء ولكنّهم نادرا ما كانوا يلتقـون، لقد كانت حالة الحرب تسود كلّ مكان ومع ذلك فقد كانت كلّ الأرض في سلام.

لم يكن الأوّلون حرّاثين، بل كانـوا صيّادين ورعاة، ولم تكن الثّروات الأولى حقولا بل كانت قطعانا. وقبل أن يتمّ تقسيم ملكيّة الأرض لم يكن يدور بخلد أمرىء أن يفلحها. فلا فلاحة صناعة تتطلّب أدوات. والزّرع القاصد إلى الحصاد مسـعى يحتاج إلى بصيرة. انّ الإنسـان في المجتمع يسـعى إلى التّوسّـع، أمّا الإنسـان المنعزل فينطوي على نفسـه، فلا يكاد يتجاوز المدى الذي يمكن لعينه أن تبصر فيه، ويمكن ليده أن تبلغه حتّى ينقطع حقّه وتنقطع ملكيّته. فإنّ العملاق لا يدحرج الصّخرة إلى ولجة كهفه حتّى يبيت آمنا هو وقطعانه. ولكن من ذا الذي سيرعى حصائد من لا تسهر عليه القوانين.

لسـوف يعترض عليّ بـأنّ قاين قد كان حرّاثا وأنّ نوحـا قد تعاطى غرس الكـروم. وما العجب في ذلك؟ لقـد كان كلاهما وحيدا. فما الذي كانا يخشـيان؟ ومن جهة أخرى، فإنّ هذا الاعتـراض لا يزعزعني أصلا. فلقد بيّنت فيمـا تقدّم ما أعنيه بالأزمنة الأولى. وعندما أصبـح قاين هاربا فلقد اضطرّ فعلا إلـى ترك الفلاحـة. كذلك فلا بدّ أن حيـاة التّيه التي عاشـها أبناء نوح قد أنسـتهم الفلاحة. لقد كان ضروريّا أن تعمّر الأرض قبل أن تفلح. فهذان أمران



لا ينقضيان معا. لقد انقطعت الفلاحة خلال التشتّت الأوّل للجنس البشري. وظلّت كذلك إلى أن ظهرت الأسرة وتمّ للإنسان أن يأوي إلى مسكن قارّ. إنّ الشعوب التي لا تستقرّ أبدا لا يمكنها أن تفلح الأرض. ذلك هو ما كان من أمر الرّحل والعرب إذ يعيشون تحت الخيام، وذلك ما كان من أمر السيّث على عرباتهم. وكذلك ما يزال اليوم يعيش التّتر التّائهون، ومتوحّشوا أمريكا.

وبصفة عامّة، فإنّنا نجد لدى كلّ الشعوب التي نعرف أصلها أنّ أوّل الهمج قد كانوا شرهين ولا حمين أكثر ممّا كانوا فلاّحين وأكلة حبوب ويذكر لنا اليونانيون اسم أوّل من علّمهم حراثة الأرض، ويبدو أنّهم لم يعرفوا هذه الصّناعة إلاّ مؤخّرا جدّا. ولكنّهم عندما يضيفون أنّهم لم يكونوا يقتاتون قبل تريفتو ليموس إلاّ من البلوط، فإنّهم يقولون أمرا عديم الاحتمال ويكذّبه تاريخهم بالّات. ذلك أنّهم إنّما كانوا يقتاتون من اللّحم قبل تريفتو ليموس، إذ هو منعهم من أكله. ولكنّنا لا نرى مع ذلك أنّهم قد حسبوا لهذا التّحريم كبير حساب.

فلقد كانوا فيما يصفه «هوميروس» من ولائمهم، يصرعون لإطعام ضيوفهم ثورا كما نصرع اليوم خنّوصا، وانّه ليمكننا أن ندرك مدى ما كان أهل تلك الأزمنة مفترسي لحوم عندما نقرأ أنّ ابراهيم قد قدّم عجلا لثلاثة أشخاص وأنّ أومي قد أمر بطبخ جديين لعشاء أوليس، وأنّ ربيبكا قد أمرت بمثل ذلك لعشاء زوجها. فإن نحن رمنا أن نتصوّر أكلات القدامى لم يكلّفنا ذلك أكثر من أن ننظر إلى ما يأكله المتوحّشون: وقد كدت أقول ما يأكله اليوم الانقليز.

إن أوّل ما أكل من الحلوى قد كان أوّل اندماج للجنس البشري. فعندما بدأ النّاس يستقرّون، كانوا يستصلحون شيئا من الأرض حول أكواخهم. لقد كان ذلك بستانا أكثر ممّا كان حقلا. فكانت الحبوب القليلة التي



يصيبونهـا تطحن بيـن حجرين ثمّ يصنعـون منها بعض الحلويـات يطبخونها تحـت الرّماد أو الجمر أو فوق حجر حام ولا يأكلون منها إلاّ في الولائم. إن هذه العـادة القديمة التي احتف طبها لدى اليهود من خلال عيد الفصح مازال يحتفـظ بها اليوم فـي بلاد فارس وجزر الهند. فلا يـأكل المرء فيها إلا خبزا بدون خمير وهذه الرقاقات من الخبز تطهى وتسـتهلك عند كل وجبة. فلم يخطر ببال الناس أن يخمروا الخبز إلا عندما احتاجوا إلى المزيد من: ذلك أن التخمير لا يكون جيّدا عندما تكون كميّة الخبز صغيرة.

وانّـي أعلم أنّنا نجد أنّ الفلاحة قد انتشـرت بعـد منذ زمن البطاركة. ولا بدّ أنّ جوار مصر قد حمل الفلاحة إلى فلسـطين منذ زمن مبكّر. فانّ كتاب أيّـوب ولعلّه أقدم مـا يوجد من الكتب يتحدّث عن فلاحـة الحقول، ويقدّر خمسـمائة زوج مـن الثيران ضمن ثـروات أيوب. فكلمة الـزّوج هذه توحي بمشـهد الثّيران مقرونة أزواجا في العمل، بل ويثبـت الكتاب أنّ هذه الثّيران قد كانت تحرث ساعة اختطفها السبئيون. ومن الميسور أن يقدّر المرء مدى اتّساع الرّقعة التي كان يحرثها خمسمائة زوج من الثّيران.

كلّ هـذا صحيـح. ولكن لا يجـب أن نخلط بيـن الأزمان. فـانّ زمن البطاركـة الـذي نعرفه، بعيـدا جدّا عن الزمـن الأوّل. فالكتـاب المقدّس يحتسب عشـرة أجيال بين هذين الزّمنين، في تلكم القرون التي كان النّاس يعمّـرون فيها طويـلا. فما الذي تراهم فعلوه خلال هذه الأجيال العشـرة؟ انّنا لا نعرف عن ذلك شـيئا. فانّ ما كانو يعيشـون فيه من التّشـتّت ومن انعدام المجتمـع قد جعلهم لا يكادون يتكلّمـون. فأنّى لهم أن يكتبوا؟ ومن لهم -مع رتابة حياتهم المنعزلة- بأحداث يدوّنونها لنا؟

لقـد كان آدم يتكلّم، وكان نوح يتكلّـم. فليكن ! أمّا آدم فقد علّمه الله ذاتـه. وأمّا أبناء نـوح، فقد تركوا الفلاحة عندما تفرّقـوا، فاندثرت اللّغة المشتركة باندثار المجتمع الأول. ولقد كان ذلك حادثا حتّى ولو لم يوجد برج بابل أبدا. فانّا قد رأينا الأفراد المتوحّشين في الجزر الخاليات ينسون عين



لغتهم. وقلّما احتفظ أناس أقاموا بغير أرضهم بلغتهم الأولى وقد مضت عليهم أجيال عديدية، وان كانت لهم أعمال مشتركة وحياة اجتماعيّة.

ولمّا تشتّت النّاس في هذه الصّحراء الشّاسعة من العالم، سقطوا من جديد في الهمجيّة الحمقاء التي لو أنّهم ولدوا من التّراب لوجدوا أنفسهم فيها. فإذا ما تتبّعنا هذه الأفكار الشّديدة التّساوق، تيسّر لنا أن نوفّق بين سلطة الكتاب المقدّس والصّور القديمة، ولم نضطرّ إلى أن نعتبر أن تقاليد لها من القدم ما للشعوب التي خلّفتها لنا هي خرافات.

لم يكن للنّاس بدّ من أن يعيشوا في تلك الحالة من التّوحش. فأمّا أنشطهم وأمتنهم عضلات، أولئك الذين اعتادوا أن يتقدّموا غيرهم دوما، فما كان بوسعهم إلاّ أن يقتاتوا من الثّمار ومن الصيّد. فأصبحوا بذلك صيّادين غلاضا وسفاكي دماء، ثمّ تحوّلوا بمرور الزّمن إلى محاربين وغزاة ونهبة. لقد دنّس التاريخ صروحه بجرائم هؤلاء الملوك الأول. فليست الحرب والغزوات إلاّ تصيّدا للناس يغزونهم ثمّ لا يبقى لهم من بعد ذلك إلاّ افتراسهم. ذلك هو ما تعلّمه خلفاؤهم.

وأمّا السّواد الأكبر من النّاس، فقد كانوا أقلّ نشاطا وأكثر وداعة، فتوقفوا بأسرع ما أمكنهم وجمعوا بعض الماشية فروّضوها وآلفوها صوت الإنسان ليتغذّوا بها. كما تعلموا أن يرعوها وأن يجعلوها تتكاثر: وهكذا بدأت الحياة الرّعويّة.

إن صناعة الإنسان تمتدّ بامتداد الحاجات التي تولّدها. ومن بين الأساليب الثّلاثة التي مكن للإنسان أن يعيش بها، وأعني الصّيد ورعاية قطعان الماشية والفلاحة فإنّ الأوّل يعوّد البدن على القوة والمهارة والعدو كما يعوّد النّفس على الشّجاعة والحيلة. فهو يجعل الإنسان صلبا شرسا. انّ بلاد الصيّادين لا تظلّ طويلا بلاد الصّيد[1]. لابدّ من مطاردة الفريسة بعيدا. لابدّ إذن من استخدام

1- ان مهنة الصياد ليست مواتية أصلا للسكان، وأن هذه الملاحظة التي أبديت عندما سكن القراصنة جزرسان دومانغ. والسلحفاة، قد دعمتها حالة أمريكا الشمالية، فغننا لم نر ابدا أن مؤسس أمة كبيرة قد كان صيادا بصفة قارة. بل كانوا كلهم فلاحين أو رعاة. فلا بدّ إذن أن لا ننظر إلى



الأسلحة الخفيفة كالمقلاع والسّهم والرّمح. أمّا الفنّ الرعوي، وهو أبو الرّاحة وأبو العواطف المتبلّدة، فهو أشـدّ الصّناعات اكتفاء بنفسه، إذ يوفّر للإنسان من غير مشـقّة تقريبا، عيشه ولباسـه، بل يوفّر له، حتّى مأواه: فلقد قدّت خيام أوّل الرّعاة من جلود الماشـية. وما كان سـقف عرض موسى وتابوته من غير هـذا الجلـد. أما الفلاحة، وهي أبطـأ في الولادة، فتتصل بـكل الفنون: فهي تجلب الملكيّة والحكم والقوانين، كما تجلب بالتدريج الشّـقاء والجرائم التي لا يمكن عندنا فصلها عن علم الخير والشـرّ. لذلك لا يعتبر اليونانيون أن **تريفتوليمـوس** قـد كان فقـط مخترعا لفنّ نافع، بل يعتبـرون أيضا أنّه قد كان معلّما وحكيما أخذوا عنه أوّل ما كان لهم من النّظام والقوانين وعلى العكـس من ذلك يبدو أنّ موسـى لا يبارك الفلاحـة وذلك لأنّه يجعل مخترعهـا ضالاّ ويجعـل قرابينها غير مقبولـة عن الله. فـكأنّ أوّل الحرّاثين قـد أعلن فـي طباعه عن النّتائج السّـيئة لصناعته. لقد كان نظر مؤلّف سـفر التّكوين أبعد من نظر ‹هيرودوتس›.

وتتّصـل بالتّقسـيم السّـابق الحـالات الثّلاث للإنسـان من حيـث علاقته بالمجتمع. فالمتوحّش صياد والهمجيّ راع والإنسان المدني حرّاث.

وسـواء أسعينا غلى الكشف عن أصول الفنون أو عمدنا إلى ملاحظة أولى العادات، فإنّنا نرى أنّ كلّ ذلك راجع في مبدئه إلى وسائل تحقيق العيش. فما كان من بين هذه الوسـائل جامعا للنّاس، فهو محدّد بالمناخ وبطبيعة الأرض. فبهذه الأسباب أيضا يتعيّن تفسير اختلاف اللّغات وتعارض خصائصها.

لقد كانت البلاد ذات المناخات المعتدلة والأراضي الدّسمة والخصبة هي الأولى من حيث عمرانها والأخيرة من حيث تكوّن الأمم بها، وذلك لأنّه قد كان أيسر على النّاس في هذه الأماكن أن يستغنى بعضهم عن البعض، ولأن الإحساس بالحاجات التي يتولّد عنها المجتمع لا يظهر فيها إلا بعد ذلك.

الصيد كمورد عيش، بقدر ما ننظر إليه كمكمل ثانوي للحالة الرعوية.



فلتفترضوا أنّ الأرض قد خيّم عليها فصل ربيع دائم: ولتفترضوا في كلّ مكان ماء وماشية ومراعي: ولتتخيّلوا حالة النّاس إذ سوّتهم يد الطّبيعة، وقد انتشروا في كلّ ذلك. لا أتصوّر كيف يمكنهم أبدا أن يتنازلوا عن حرّيتهم الأوّلية، وأن يغادروا الحياة المنعزلة والرّعوية، وهي على مثل هذا القدر من التّلاؤم مع لا مبالاتهم الطّبيعيّة[1]، لكي يلزموا أنفسهم بما لا يلزم من العبوديّة والأشغال والشقاوات التي لا تنفكّ عن الحالة الاجتماعيّة.

ما كان على الذي أراد للإنسان أن يكون اجتماعيا إلاّ أن يجعل أصبعه على محور الكرة الأرضيّة، ثمّ أن يميله على هذا الكون. ها انّي أرى الأرض قد تغيّر وجهها بفعل هذه الحركة الخفيفة: وها أنّي أرى الجنس البشري قد تقرّر قدره وانّي لسامع صيحات الفرحة يرسلها جمع ممّن لا رشد لهم. وها أنا أرى النّاس يقيمون الصور والمدن. وهاهي الفنون تولد والقوانين والتّجارة. وهاهي الشّعوب تتكوّن فتمتدّ وتنحلّ وتتوالى كما تتوالى سيول البحر. وانّي لأرى النّاس وقد احتموا في بعض النّقاط من منازلهم، يتآكلون، ويحوّلون، ما بقي من العالم إلى صحراء موحشة، صرحا يشهد على وحدة المجتمع وعلى منفعة الفنون.

فإذا ما سعيتم إلى تحديد الأماكن التي ولد فيها آباء الجنس البشري والتي نشأت منها الشّعوب الأولى وجاءت منها الهجرات الأولى، فإنّكم لن تنطقوا بأسماء المناخات المعتدلة لآسيا الصّغرى أو صقليّة أو إفريقيا أو حتّى مصر، بل ستذكرون رمال كلدان وصخور فينيقيا. وستجدون الأمر نفسه في كلّ الأزمان. فإنّ الصّين مهما عمرها الصينيّون، فإن التّتر يعمرونها أيضا. وقد غمر السيث أوروبا وآسيا، وتصبّ الآن جبال سويسرا في مناطقنا الخصبة سيلا غير منقطع من المعمّرين يظهر أنّه لن ينصب أبدا.

1- ان الإنسان كسون بالطبع إلى حدّ لا يتصور. لكأنه لا يعيش إلا للنوم والخمول والجمود، ولا يكاد يخطر بباله أن يحرك نفسه لكي لا يموت جوعا. وليس ثمة ما يستديم حب المتوحشين لحالتهم تلك أكثر من حلاوة ذلك الخمول. فإن الأهواء التي تجعل الإنسان حائرا، حذرا وناشطا، لا تتولد إلا في المجتمع. فأول ما يهواه الإنسان بعد بقائه إنما هو أن لا يعمل شيئا. وإذا ما تأملنا جيدا، فغننا نجد الأمر كذلك حتى عندنا. فكل من يعمل انما يبتغي الحصول على الراحة. فالكسل هنا أيضا هو الذي يجعلنا مجتهدين.



طبيعيّ، على ما يقولون، أن يغدر سكّان أرض قاحلة تلك الأرض ليستقرّوا بأحسن منها. هذا حسن جدّا. ولكن، لم كانت هذه الأرض الأحسن، عوضا عن أن تعجّ بأهلها هي، تتّسع لغيرهم؟ إنّ الخروج من أرض قاحلة يقتضي أنّنا نكون فيها. لم يفضّل كلّ هؤلاء النّاس إذن أن يولدوا فيها؟ يكاد المرء يظنّ أنّ الأراضي القاحلة لا يجب أن تعمر إلاّ بما يزيد عن طاقة الأراضي الخصبة. ولكنّنا نرى أنّ الأمر هو عكس ذلك. انّ أغلب الشعوب اللاّتينيّة كانت تعتبر نفسها شعوبا أصيلة[1]، في حين أن بلاد اليونان الكبرى وهي أخصب بكثير، لم يكن يقطنها إلاّ الغرباء عنها، لقد كانت كلّ الشّعوب اليونانيّة تعترف أنّها ترجع في أصلها غلى قرى مختلفة، باستثناء الشّعب الذي كانت أرضه أسوأ الأراضي، ألا وهو الشعب الأتيكي. فقد كان يقول عن نفسه انّه شعب أصيل أو ابن نفسه. وأخيرا، فمن دون أن ننفذ إلى غابر الأزمان، تمكّننا القرون الحديثة من ملاحظة حاسمة: فأيّ مناخ في العالم أشدّ بؤسا من ذلك المناخ الذي أطلقوا عليه اسم مصنع الجنس البشري؟

إن التجمعات البشريّة هي في الغالب من عمل الطّوارىء الطّبيعيّة كالطّوفان المحلّي أو كاندفاق سيول البحر وانفجارات البراكين وهزّات الأرض الكبرى والحرائق التي تضرمها الصّواعق والتي كانت تهلك الغابات، إن كلّ ما كان أخاف السّكان المتوحّشين لأرض ما وشتّتهم، قد جمعهم من بد ذلك لكي يتّحدوا في جبر ما اشتركوا فيه من الخسائر. فأخبار مصائب الأرض التي كانت رائجة جدّا في الأزمان السّابقة، تبيّن لنا ما هي الأدوات التي استخدمتها العناية الإلهية لحمل البشر على التقارب. ولقد انقطعت هذه الحوادث الكبرى وقلت منذ أن أقيمت المجتمعات. ولعل هذا الوضع ما يزال قائما، فعين المصائب التي كان جمعت الناس المشتتين، قد تشتت اليوم أولئك الذين هم مجتمعون.

إن تداول الفصول سبب آخر أعمّ وأدوم لا بدّ أنه قد كان له نفس المفعول في البلاد ذات المناخات المعوّضة لهذا الاختلاف. فهاهم السّكان وقد

1- ان عبارات «الأصيل» هذه لا تعني إلا أن أول من يسكن البلاد قد كانوا متوحشين، لا مجتمع لهم ولا قوانين ولا تقاليد وأنهم قد عمروا الأرض قبل أن يتكلموا.



اضطرّوا إلى التزوّد بالمؤونة، تحسّبا للشتاء، يلجؤون إلى التّعاون وعلى إقامة ضرب من الاتّفاق فيما بينهم، فعندما يتعذّر عليهم التّجوال، وتوقفهم عنه صرامة البرد، إذ ذاك يجمعهم القلق بقدر ما تجمعهم الحاجة. فقد كان اللاّبونيون المندفنون في ثلوجهم، والاسكيمو وهم أشدّ الشّعوب توحّشا، يجتمعون في كهوفهم شتاء ثمّ ينقطع تعارفهم صيفا. فلتزيدوهم في تقدّمهم درجة وفي استنارتهم درجة، إذن لسوف ترونهم يجتمعون إلى الأبد!

ليست معدة الإنسان ولا أمعاؤه معدّة لهضم اللّحم النّيء. فانّ ذوق الإنسان لا يتحمله عموما. وفي ما عدا الاسكيمو وحدهم تقريبا، وقد كنت أتحدّث عنهم، فانّ المتوحّشين أنفسهم يشوون لحومهم، فينضاف إلى استعمال النّار الضّروريّة لطبخها، اللّذة التي تعطيها النّار للبصر والحرارة التي يلتذّ بها الجسم. إن مشهد النّار، الذي ينفّر الحيوانات، يجلب الإنسان[1]، فيجتمع النّاس حول موقف مشترك، ويقيمون الولائم ويرقصون: هناك تقرّب روابط العادة العذبة الإنسان من نظرائه من دون أن يشعر، وعلى ذلك الموقد الغابي تشتعل النّار المقدّسة التي تحمل أول مشاعر الإنسانيّة إلى أعماق القلوب.

إن العيون والأنهار التي يتفاوت انتشارها في البلاد السّاخنة هي نقاط أخرى للاجتماع، زاد في ضرورتها كون النّاس أعجز عن الاستغناء عن الماء ممّا هم عن النّار. فالهمج خاصة، وهم أولئك الذين يعيشون من قطعانهم، يحتاجون إلى موارد مائيّة مشتركة، ويخبرنا تاريخ أقدم الأزمنة بأنّ معاهداتهم وخصوماتهم قد بدأت هناك[2]. إن سهولة الحصول على المياه يمكن أن تعطّل تكوّن مجتمع السّكان في الأماكن المرويّة جيّدا. وعلى العكس من ذلك فقد

1- ان النار تمنح الحيوانات كما تمنح الإنسان سعادة كبرى، عندما تكون قد تعودت رؤيتها وقد تذوقت حرارتها الحلوة. بل ولعل حاجتها إليها لا تكون في بعض الأحيان بأقل من حاجتنا نحن إليها، على الأقل لتدفئة صغارها.

ولكننا لم نسمع قط من يقول أن حيوانا منزليا ما، بريا كان أو أهليا، قد اكتسب من الحيلة ما مكنه من أن يصنع نارا ولو بتقليدنا. ها هي إذن تلك الكائنات المتعلقة التي تكون أمام الغنسان مجتمعا هاربا، على ما يقولون، والتي لم يرتفع ذكاؤها –مع ذلك- إلى أن تستخرج شرارات من النار من حصاة، وان تحتفظ بها أو أن تحتف على الأقل ببعض النيران المتروكة. ليت شعري، ان الفلاسفة ليسخرون منا بكل وضوح. وأننا لنرى أنهم بما يكتبون يعتبروننا من البهائم.

2- انظر مثال هذه وتلك في الفصل XXI من سفر التكوين بين ابراهيم وابي مالك، فيما يتعلق بالبشر.



كان لابدّ، في الأماكن الجافّة، من التّعاون على حفر آبار، وعلى مدّ قنوات لسقي الماشية. فأنت ترى أنّ النّاس في هذه الأماكن مجتمعون منذ زمان لا نكاد نذكر بدايته، إذ لم يكن للأرض بدّ من أن تظلّ مقفرة أو أن يحوّلها عمل الإنسان إلى أرض يأوي غليها. ولكنّ ميلنا إلى ردّ كلّ الأمور إلى ما ألفناه يقتضي أن نتأمّل فيما قلناه بعض الشّيء.

لقد كانت الحالة الأولى للأرض تختلف كثيرا عن الحالة التي هي عليها اليوم، سواء أنظرنا إليها وقد زيّنتها يد الإنسان أو وقد قبّحتها. فانّ ما زعمه الشّعراء من عماء في العناصر، إنّما كان سائدا فيما تنبته الأرض. ففي تلك الأزمان البعيدة، حيث كانت الانقلابات كثيرة الوقوع وحيث كانت طبيعة التّربة، وهيئات الأرض يغيّرها ألف طارئ وطارئ، كان كلّ شيء ينمو بشكل فوضوي: الأشجار والخضر والشّجيرات والحشائش. فلم يكن أيّ نوع من هذه الأنواع يجد من الوقت ما يسعه ليستولي على أنسب الأراضي له فيضيق فيها الخناق على ما سواه من الأنواع. بل كان الأنواع كلّها تتفارق ببطء رويدا رويدا، ثمّ كان يطرأ انقلاب يخلط كلّ الأشياء من جديد.

إن العلاقة التي بين حاجات الإنسان وما تنبته الأرض لهي من الوثاقة بحيث يكفي أن تكون الأرض آهلة حتّى يستمرّ كلّ شيء. ولكن، قبل أن يتمّ للأفراد المجتمعين أن يقيموا بأعمالهم المشتركة توازنا بين نباتات الأرض، فقد كان استمرار تلك النباتات كلّها يقتضي أن تتولى الطبيعة وحدها إقامة ذلك التوازن الذي تحفظه اليوم يد البشر. ولقد كانت تحافظ على ذلك التّوازن أو تعيده بواسطة انقلاباتها مثلما أنّ البشر يحافظون عليه ويعيدونه بواسطة تقلّباتهم. انّ ما لم يكن بعد سائدا بينهم من الحرب، إنما كان يبدو سائدا بين العناصر. فانّ البشر لم يعتادوا إحراق المدن، ولا حفر المناجم ولا اقتلاع الأشجار؛ ولكنّ الطّبيعة كانت تشعل البراكين وتثير ارتجاجات الأرض؛ كما كانت نار السّماء تلتهم الغابات. لقد كانت الصّاعقة أو الطوفان أو التبخّر تفعل في بضع ساعات ما يفعله اليوم مائة آلف ساعد من الرجال في مدّة قرن. لا أستطيع أن افهم -على غير هذا الوجه- كيف كان يمكن لهذا النّظام أن يبقى ولهذا التوازن أن يثبت. فلولا ذلك



لابتلعت بطول المدّة أكبر الأنواع في النّظامين العضويين أصغرها[1]، ولما أضحت الأرض بعد ذلك مكسوّة بغير الأشجار والحيوانات المفترسة ولباد كلّ شيء في النّهاية.

ولولا ذلك لفقدت المياه رويدا رويدا من دورانها الذي يحيي الأرض ولانحطّت الجبال وانخفضت ولأجحفت الأنهار رملا ولامتلأت البحار وامتدّت ولمالت كلّ الأشياء من حيث لا تدري إلى الاستواء. إن يد النّاس توقف هذا الانحدار وتعطّل هذا التطوّر. فلولاهم لتزايدت سرعته ولربّما كانت الأرض الآن تحت المياه. لقد كانت عيون الماء (قبل أن يتولاّها) العمل البشري أشدّ تفاوتا في انتشارها وأقلّ إخصابا للأرض وأعسر إرواء للسّكان. وغالبا ما كانت كذلك تخرج عن مجاريها لأنّ صناعة الإنسان لم تكن تحبسها فيها، فتندفق ذات اليمين وذات الشّمال وتغيّر من وجهتها ومن مجاريها وتتفرّع إلى عدّة فروع.فكنت تارة تجد أنّها قد نضبت وطورا تجد أنّ الأوعاس تحول دون اقترابك منها. فكانت كما لو لم تكن أبدا، وكان النّاس يموتون من العطش وهم وسط المياه.

فكم من بلد جافّ لم يكن يسكن إلاّ بفضل ما جلبه النّاس من مجاري وقنوات من الأنهار: تكاد بلاد الفرس بأكملها لا تعيش إلاّ بهذا الاصطناع. وشعوب بلاد الصّين كالنّمل (في كثرتهم) بفضل ما فيها من القنوات العديدة. ولولا ما في هولندا من القنوات لغمرت مياه الأنهار النّاس، تماما كما كانت تغمرهم سيول البحر لولا (ما يقيمونه من) السّدود. وكذلك مصر، أصخب بلاد الأرض، فإنّها لا تسكن لولا العمل الإنساني: فسهولها الكبرى التي تنعدم فيها الأنهار، والتي ليس في أرضها ما يكفي من

1- يزعم بعضهم أن مختلف أنواع الحيوان تظل من تلقاء نفسها في تأرجح دائم يمثل توازنها، وذلك بموجب ضرب من الفعل ورد الفعل الطبيعيين. فعندما يكون النوع المفترس قد تكاثر بما يتجاوز المطلوب، على حساب النوع المفترس، إذ ذاك فإن النوع الأول مضطر إلى التناقص، لأنه لم يجد قوته، فيترك بذلك للنوع الثاني من الوقت ما يكفي للتوالد من جديد، ويستمر ذلك إلى أن يتوفر من هذا النوع قوت كثير للنوع الآخر، فيتضاءل النوع المفترس من جديد في حين يتكاثر النوع المفترس مرة أخرى. ولكن مثل هذا التأرجح لا يبدو محتملا، لأنه لابدّ إذ ذاك أن يوجد في هذا النسق وقت يتزايد فيه النوع الذي يلعب دور الفريسة، ويتناقص فيه النوع الذي يقتات منه. وهو ما يبدو مناقضا لكل معقول.



المنحـدرات، لا تملـك من الموارد إلاّ الآبار. فـإذا كان أوّل ما يذكر في التّاريخ من الشّعوب لم يسكن في الأراضي الدّسمة أو على الشّواطئ السّهلة، فليس ذلك لأنّ هذه المناخات الطّيبة كانت مقفرة ولكن لأنّ سكّانها المتعدّدين، لمّا كان يمكنهم أن يستغنوا عن بعضهم، فقد عاشوا مدّة أطول وهم منعزلون في عائلاتهم، وبدون تواصل. أمّا فـي الأماكن الجافّة التي لم يكن بالإمكان الحصـول فيها على الماء إلاّ بواسـطة الآبار فقد كان من الضّروري التّجمع لحفرها أو على الأقلّ الاتّفاق على اسـتعمالها. ذلك هو أصل المجتمعات وذلك هو أصل اللّغات في البلدان السّاخنة.

هناك انعقدت أولى الرّوابط بين العائلات، وهناك تواعد الجنسـان أوّل ما تواعدا. لقـد كانت الفتيات يأتين لورد الماء للعائلة، وكان الفتيان يأتون لسـقي قطعانهـم. هناك طفقت العيـون التي قد كانت تعـوّدت رؤية نفس الأشـياء منذ الصّبي، ترى من الأشـياء ما هـو أحلى. فتأثّر القلـب لرؤية هذه الأشـياء الجديدة، وإذا بميل لم يعهده من قبل جعله أقلّ توحّشا، وإذا به يحسّ بلـذّة أن لا يكـون وحيدا. لقد أصبح الماء وهم لا يشـعرون أشـدّ ضرورة، وتكاثر عطش الماشـية فأضحوا يتعجلون الذهاب وأمسـوا يأسفون للأوبة. لم يكن ثمّة في ذلك الزمن السـعيد ما يشير إلى الساعات ولم يكن ثمة ما يدعو لحسـابها. لم يكن للزمن من مقياس إلا المرح أو القلق. هناك تحت شجرات سنديان عجائز قهرت السنين، شباب متلهف راح يتنسى وحشيّته رويدا رويدا. لقد كانوا يتراوضون شيئا فشيئا. فتعلموا الإفصاح عن مقاصدهم لأنهم سعوا إلى أن يفهموها. هناك انعقدت أولى الاحتفالات فكانت الأرجل تنطّ من الفرحة. لم تعد الإشـارة العجلى تكفيها، فرافقها الصوت بنبرات هائمة، وامتزاج الشوق باللذة عندهم: ها هنا كان مهد الشعوب الحقيقي، ومن صفاء مياه العيون النقية سرت نيران الحب الأولى.

ولكن: هل كان النّاس قبل هذا الزّمان يولدون من التّراث؟ وهل كانت الأجيال تتوالى من دون أن يجتمع الجنسان ومن دون أن يتفاهم النّاس؟ كلاّ: فقـد كان ثمّة عائلات ولكن لم يكـن ثمّة أمم أبدا. كان ثمّة لغات أهليّة ولكـن لم يكـن ثمّة أبدا لغات شـعبية، كان ثمـة زواج ولكن لم يكن



ثمــة حبّ أبــدا. لقد كانت كل عائلة تكتفي بنفســها، وتبقــى من دون أن تختلــط بغير دمها. فالأطفــال اللذين يولدون من نفس الآبــاء، كانوا ينمون معــا ويهتدون رويدا رويدا إلى طرق في التفاهم. لقد كان الجنســان يتمايزان بتقدّم العمر وكان الميل الطبيعي كافيا لجمعها. كانت الغريزة تحلّ محلّ التفضيل وكان النــاس يتحوّلون إلى زوج وزوجة من دون أن ينقطع كونهم أخــا وأختا[1]. لم يكن في كلّ هذا من متوقّد المشــاعر ما يكفي لحلّ عقال اللّســان ولا من يستحثّ نبرات الأهواء المتلهّفة ليحولها إلى مؤسسات. وعلى هذا فليُقَسْ ما يمكــن أن نقوله عن الحاجات النّادرة والمتأنّية التي قد كان يمكنها أن تحمل بعض النّاس على الإسهام في أعمال مشتركة. فهذا يشرع في بناء حوض لعين الماء وذاك يكمله من بعده. وغالبا ما كان ذلك يتمّ مــن دون أن يحتــاج إلى أيّ اتّفاق، بل وأحيانا مــن دون أن يرى بعضهم بعضا. وباختصار فلقد كان لا بدّ في المناخات المعتدلة وفي الأراضي الخصبة من تعبئة العواطف الجميلة بكلّ حيويّتها حتّى يُشــرع في إنطاق السّــكان. ولمّا كانــت اللّغات الأولى بنات اللّذة لا بنات الحاجــة، فقد ظلّت طويلا تحمل طابــع الأب، ولم تمح نبرتها المغريــة إلاّ بامحاء العواطف التي ولّدتها، حينما انتشرت بين الناس حاجات جديدة أجبرت كل إمرىء على أن لا يفكّر إلا في نفسه وعلى أن ينزوي بقلبه إلى باطن ذاته.

1- لقد كان ضروريا ان يتزوج الرجال الأول من اخواتهم. لقد تمكنت هذه العادة من أن تســتمر داخل بساطة نطاق العادات الأولى، من دون حرج، وذلك طالما بقيت العائلات منعزلة وحتى بعد تجمع أقدم الشــعوب، ولكن القانون الذي أطاح بها لا يقل قداســة عنها لأنه من صنع الإنســان. وأولئــك الذيــن لا يعتبرونــه إلا من حيث مــا يقيمه من الروابــط بين العائلات، لا يــرون منه أهم الجوانب. فلو توقّف مثل هذا القانون المقدس عن مخاطبة القلب وعن ضبط الحواس مع ما يفرضه التعامل المنزلي بين الجنسين من التعود، لما بقي بين الناس نزاهة، ولعجلت اشنع العادات بالقضاء على الجنس البشري.



الفصل العاشر

تكوّن لغات الشّمال

يصبح كلّ النّاس بمرور الزّمن متشابهين، إلاّ أنّ نظام تقدّمهم يختلف. ففي المناخات الجنوبيّة حيث الطّبيعة المعطاء، تتولّد الحاجات من الأهواء: أمّا في البلاد الباردة حيث الطّبيعة الضنينة، فتتولّد الأهواء من الحاجات. فتنطبع اللّغات، سليلات الحاجة البائسة، بطابع منشئها الخشن.

ومهما كان صبر الإنسان على تقلّبات الهواء وعلى البرد والقلق بل وعلى الجوع، فثمة رغم ذلك حدّ تنهزم عنده الطبيعة (البشريّة). فما كان من الأشياء المعرضة إلى هذه المحن القاسية، اضمحل، وما بقي نما واشتدّ. ليس ثمّة وسط بين القوّة والموت. وهذا هو السّبب فيما للشعوب الشّماليّة من القوّة. فإنّ ذلك لا يعود إلى المناخ بالدّرجة الأولى، بل إلى أنّ المناخ لم يصبر غلاّ على الأقوياء منهم. ولا عجب في أن يحتفظ الأطفال بما لآبائهم من البنية الطيّبة.

وأنّنا لنرى من مجرّد ما سبق أنّه لا بدّ أن يكون للرّجال الأقوى أعضاء أقل رهافة من أعضاء غيرهم، وأصوات أغلظ وأثخن من أصوات غيرهم بل وأيّ فرق عندهم بين تغايرات الصوت المؤثرة النابعة مما يعتمل في الرّوح وبين ما تستصرخه الحاجات الطبيعية من الأصوات؟ ففني هذه المناخات حيث يخيم الموت على كل الأشياء على امتداد تسعة أشهر من السنة وحيث الشمس لا تبعث الدفء في الهواء بضعة أسابيع إلا لكي تشعر الناس بما حرموا منه من الخيرات، فتزيد في شقائهم؛ وفي هذه الأماكن التي لا تمنح الأرض فيها



شـيئا إلاّ على قدر العمل، وحيث ينبوع الحياة يبدو مستقرّا في السّواعد أكثر ممّا هو مسـتقرّ في القلب، ما كان يخطر للنّاس أن يسـتعذبوا غير ما عندهم من الرّوابط إلاّ نادرا، بل كانت روابطهم مقتصرة على دوافعها الحسـيّة. فإذا الصّدفة اختيار وإذا الأسـهل هو الأفضـل وإذا الراحة التي تغذي العواطف قد حـل محلهـا العمل الذي يكبتها. فلقد كان لزاما علـى المرء أن يفكّر في العيش قبل أن يفكّـر في رغد العيش. ولما كانت حاجة الناس بعضهم إلى بعض أفلح في جمعهم من العاطفة، فإن المجتمع لم يتكون غلا بالصناعة: إنّ خطر الموت الدائم لم يكن يسمح لهم بأن يكتفوا بلغة الإشارة. فإن أوّل ما تلفظوا به من العبارات لم يكن «أحبّوني» ولكن «ساعدوني».

فهاتان الكلمتان تنطقان على تشابهما بنبرة مختلفة، إذ ما كان على المرء أن يحسّـس غيره بشـيء، بل كان عليه أن يسمعه كلّ شيء. لم يكن الأمر إذن متعلّقـا بالطّاقة بل كان متعلّقا بالوضوح. لقد عوّضوا ما لم يكن القلب يعطيـه من النّبـر بمقاطع متينة ومحسوسـة. فإن وجد في شـكل اللّغة بعض انطباع طبيعيّ، فلقد كان يزيد فيما لها من الخشونة.

وفعلا فانّ الشّـماليين ليسـوا بدون عواطف. ولكنّ ما لهم منها من جنس مختلف. فالعواطف في البلدان السّاخنة عواطف شبقة مرتبطة بالحبّ والنّعومة: فلا يكاد يبقى على السّـكان شغل من فرط ما توفّره لهم الطبيعة. فلا يكاد الأسيويّ يظفر بالنّساء والرّاحة حتّى يشعر بالبهجة. أمّا في الشّمال حيث يكثر الاسـتهلاك على أرض قاسـية. فانّ أناسـا لهم كلّ تلك الحاجات يسهل إضجارهم، ويقلقهم كلّ ما يفعل حولهم. وإنهم لفرط ما كان عيشهم عسيرا ليزدادون تمسّـكا بالقليل الـذي لهم بقدر ما يزداد فقرهـم. فان أنت اقتربت منهـم، فقـد اعتديت على حياتهم. ذلـك مصدر ما لهم مـن المزاج العصبي الذي ما أسـرع أن ينقلب إلى حنق على كلّ ما يجرحهم. وهكذا فإنّ أقرب أصواتهـم إلـى الطّبيعة أصـوات الغضب والتوعّـد، ودائما مـا تُصاحب هذه الأصوات مقاطع قويّة تجعلها خشنة ومدوّية.



الفصل الحادي عشر

تأملات في هذه الاختلافات

تلك هي في رأيي أعمّ الأسباب الطبيعية للفرق الذي يخص اللغات البدائية. فلغات الجنوب لا بدّ أنها كانت حيّة ورنّانة ونابرة وبليغة وكثيرة الغموض من فرض متانتها. أمّا لغات الشمال فلا بدّ أنها كانت صماء خشنة، مقطعة وحادّة ورتيبة وواضحة من فرط ما فيها من الكلمات لا من حسن تركيبها. وما يزال في اللغات الحديثة برغم كونها قد عجنت وأعيد صهرها مائة مرة ومرة، بعض هذه الفروق. فالفرنسية والانقليزية والألمانية هي اللسان الخاص الذي يتكلم به أولئك الذين يتعاونون ويفكرون فيما بينهم بهدوء، أو يتكلم به أولئك المتحاملون الذين يغضبون.

ولكن رسل الالهة الذين يكشفون عن الألغاز المقدّسة والحكماء الذين يهبون القوانين للشعب، والقواد الذين يجرّون الجمهور، لا بدّ أن يتكلموا العربية أو الفارسية[1]. فلغاتنا مكتوبة أفضل مما هي منطوقة. وانه ليلتذّ بقراءتنا أكثر مما يلتذّ بسماعنا. وعلى العكس من ذلك فإن اللغات الشرقية تفقد إذا ما كانت مكتوبة حيويتها وحرارتها. فليس المعنى إلا نصف كامن في الكلمات، وكل قوته إنما هي في النبرات. إن من يحكم على عبقرية المشارقة من خلال كتبهم كمن يريد أن ينظر إلى جثّة الإنسان ليرسم صورته.

1- اللغة التركية لغة شمالية.



إن الحكم الصائب على أفعال الناس يقتضي أن ننظر إلى هؤلاء في كل علاقاتهم. وهو ما لم نتعلم أبدا أن نفعله. فنحن عندما نضع أنفسنا موضع الآخرين فإننا نضع أنفسنا بما طرأ علينا من التغير لا بما يجب أن يطرأ عليهم. وعندما نظنّ أننا نحكم عليهم بالعقل، فإننا في الواقع لسنا إلا مقارنين لأحكامهم المسبقة بأحكامنا المسبقة. فإنك لترى الذي له بعض معرفة باللغة العربية يبتسم إذ يتصفح القرآن، ولعمري، إنه لو أنصت إلى محمد يقرأه بنفسه في تلك اللغة البليغة والموقعة، وبذلك الصوت الجهوري المقنع الذي كان يستهوي الأذن قبل أن يستهوي القلب، ولو أنصت غليه إذ لا ينفك ينفث في حكمه نبرة وحماسا، لسجد على الأرض من الرهبة ثم لناداه ألا أيّها النبي الأعظم، إلا يا رسول الله خذنا إلى المجد والشهادة: نريد أن نغلب أو أن نموت في سبيلك. ان التعصب ليبدو لنا دائما مضحكا، إذ ليس له بيننا صوت يعبر به عن نفسه. وحتى متعصبونا فإنهم ليسوا بمتعصبين حقيقيين، إن هم إلا نصابون أو مجانين. أما لغتنا فليس فيها غلا صيحات يرسلها عبيد الشيطان بدلا عن انعطافات يشدو بها من ألهمهم الرّحمان.



الفصل الثاني عشر

أصل الموسيقى ونسبها

لقد تكونت أولى المقاطع أو الأصوات الأولى مع التصويتات الأولى، وذلك بحسب جنس الهوى الذي أملى هذه أو تلك. فالغضب يستثير صيحات التوعد التي ينطق بها للسان والحنك. ولكن صوت الحنان أعذب من ذلك، فهو تغاير تحدثه الزردمة بحيث يصبح صوتا. غير أن نبراته تكثر أو تقل وانعطافاته تحتدّ أو تخفت بحسب الشعور الذي نضاف غليها. وهكذا يتولد الإيقاع وتتولد الأصوات مع المقاطع. إن الهوى ينطق كل الأعضاء ويزيّن الصوت بكل بريقها. وهكذا فأبيات الشعر والأناشيد والكلام من أصل مشترك. فحول عيون الماء التي تحدّثت عنها كانت الخطب الأولى هي الأغنيات الأولى. لقد ولّدت الترجيعات الدّوريّة والموزونة للإيقاع والانعطافات النغمية للنبرات، الشعر والموسيقى مع اللغة. بل إن كل ذلك ما كان إلا اللغة عينها في هذه المناخات الطبيعية والأزمان السعيدة حيث انحصرت الجادات الأكيدة التي كانت تتطلب مساعدة الغير، في تلك التي كان القلب يولدها.

إن القصص الأولى والخطب الأولى والنواميس الأولى قد كانت شعرا. فلقد وجد الشعر قبل النثر. ذلك ما حدث فعلا لأن الأهواء تكلمت قبل العقل. وكذلك كان شأن الموسيقى. فلم يكن ثمة في البداية من موسيقى غلا النغم ولا من النغم غير ما يحدثه الكلام من تنوع الصوت. لقد كانت النبرات تكون النشيد والكميات تكون الوزن وكان الناس يتكلّمون،



بالأصــوات والإيقاع بقدر ما كانوا يتكلّمــون بالمقاطع والتصويتات ويقول «سترابون»[1] عن الكلام والغناء إنهما كانا نفس الشيء فيما مضى. ثم يضيف أن ذلك يبيّن أن الشــعر هو مصدر البلاغــة[2]. لقد كان عليه أن يقول إن هذا وتلك قــد كان لهما نفس المصدر، وغنّهما لم يكونا في البداية إلا شــيئا واحــدا. أما عن الوجــه الذي انتظمت به المجتمعــات الأولى، فهل كان من العجب، أن أولى القصص وأولى النواميس قد نظمت شــعرا؟ وهل كان من العجب أن أوّل النحاة قد أخضعوا صناعتهم إلى الموســيقى، وأنهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين؟[3].

إن لغة ليست لها غلا المقاطع والتصويتات لا تملك إذن إلاّ نصف ثروتها. صحيــح إنها تــؤدي أفكارا. ولكنها إذا ما أرادت أن تؤدّي مشــاعر أو صورا احتاجــت مع ذلك إلى إيقاع وأصوات أي إلى نغم. هو ذا ما كان متوفّرا في اللغة اليونانية وما يعوز لغتنا.

إنّنــا ما نــزال في عجب مــن الآثــار الهائلة التــي خلّفتها البلاغة والشــعر والموسيقى بين اليونانيين. فنحن لا نفهم هذه الآثار لأننا لا نحسّ بمثلها. لعلّ كل ما نظفر من أنفســنا بأن تطاوعنا إليه أمام تأكّد الشهادات بذلك هو أن نتظاهر بتصديقها مجاملة لعلمائنا[4].

1- «سترابون»، **الجغرافيا**، الكتاب I

2- «سترابون»، **الجغرافيا**، الكتاب I

3- Archytas atque Aristoxenes etiam subiectam grammaticen musicoe putaverunt, et eosdem utriusque rei proeceptores fuisse...Tum Eupolis, apud quem Prodamus et musicen et litteras docet. Et maricas, qui est Ilyperbolus, nihil se ex musicis scire nisi litteras confitetur. Quintil lib I. cap X.

4- ما من شك في أنه لا بد لنا طرح قسط المبالغة اليونانية. ولكن المبالغة في هذا الطرح إلى حد طمس كل الفروق هي مبالغة في الثقة بالحكم المسبق الحديث. يقول القس تراســون: «عندما بلغت موســيقى اليونان، أيام أمفيون وأورفي، ما بلغتــه اليوم في أبعد المدن عن العاصمة، إذ ذاك كانــت توقف تدفــق الأنهار، وينحني لها الســنديان وتتزلزل منها الصخور. وقــد بلغت اليوم قمة عالية جدا من الكمال، إذ يحبها الناس كثيرا، ويتعمقون في فهم مظاهر جمالها، ولكنها لم تعد تحرك شــيئا في مكانه. ذلك ما كان أيضا من أمر شــعر ميروس، وهو الشــاعر الذي ولد في تلك الأزمان التي مازالت تحمل آثار. طفولة الفكر البشري إذا ما قارناها بالأزمنة التي تلتها. لقد



ولقد عمد «بورات»، إذ ترجم على قدر طاقته بضعة قطع من الموسيقى اليونانية إلى ترقيمات موسيقانا، إلى أن يشرف بكل بساطة، على عزفها في أكاديمية الآداب، وتصابر على سماعها رجال الأكاديمية. وإني لأقدّر كلفة هذه التجربة في بلد لا يمكن أن تفك رموز موسيقاه أية أمّة أخرى. فلتعرضوا على من أردتم من الموسيقيين الأجانب أن ينجزوا عزفا منفردا للأوبيرا الفرنسية. اتحداكم أن تفهموا شيئا من ذلك. ومع ذلك فهؤلاء الفرنسيون هم بالذات أولئك الذين أدّعوا القدرة على الحكم على بعض أناشيد «بيندار» التي مرّ على وضعها موسيقيّا ألفا سنة.

لقد قرأت أن الهنود في أمريكا، كانوا، فيما مضى، عندما يشاهدون المفعول العجيب للأسلحة النارية، يلتقطون من الأرض حبّات بندقية الفتيلة، ثم يرمونها بأيديهم وهم يحدثون بأفواههم دويا كبيرا، فكانوا يعجبون من أنهم لم يقتلوا أحدا. إن خطباءنا وموسيقيينا وعلماءنا ليشبهون هؤلاء الهنود. العجب ليس أننا لم نعد نفعل بموسيقانا ما كان يفعله اليونانيون بموسيقاهم بل لعل العجب يحدث على العكس من ذلك لو أننا بمثل هذه الآلات المختلفة نفعل عين ما فعلوا.

سكر الناس بأبياته الشعرية، ولكنهم يكتفون اليوم بتذوق أبيات الشعراء المجيدين وبالحكم عليها». لا ينكر أحد أن القسّ ترّاسون قد كان على شيء من الحكمة أحيانا ولكنه من المؤكد أنه لم يظهر من ذلك شيئا في هذا المقطع.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثالث عشر

في النّغم

ما من أحد يشكّ في أن الإنسان تغيّره حواسّه. ولكن عدم تمييزنا بين التغيرات يجعلنا نخلط بين أسبابها. فإن ما ننسبه من السلطان للإحساسات قليل بل قليل جدا. فنحن لا نرى أنها غالبا ما تؤثر فينا لا كإحساسات فقط ولكن أيضا كعلامات أو صور، وأن آثارها الأدبية لها أيضا أسباب أدبيّة. فمثلما أن المشاعر التي يثيرها فينا الرسم لا تأتي أبدا من الألوان، فإن سيطرة الموسيقى على أرواحنا ليست أبدا من عمل الأصوات. فإن ألوانا جميلة ومحكمة التدرّج تروق النظر. ولكن هذا الالتذاذ هو التذاذ بالإحساس فقط، وإنّما التصوير والمحاكاة هما اللذان يعطيان هذه الألوان حياة وروحا. فالعواطف التي تعبر عنها تلك الألوان هي التي تؤثّر في عواطفنا، والأشياء التي تمثلها تلك الألوان هي التي تحدث فينا انفعالات. فليس لاهتمامنا وشعورنا ارتباطا بالألوان. فمعالم اللوحة الفنية المؤثرة، تؤثر فينا ولو كانت في صورة منسوجة. فلتحذفوا هذه المعالم من اللوحة، إذن لن يكون للألوان بعد ذلك أيّ مفعول.

إن فعل النغم في الموسيقى هو عين فعل التصوير في الرسم، إذ هو الذي يبرز المعالم والأشكال التي ليست التآلفات والأصوات إلا ألوانها. وقد يعترض بعضهم بأن النّغم ليس إلا سلسلة من الأصوات. لا شكّ في ذلك ولكنّ التصوير ليس أيضا إلا انتظاما للألوان. فالخطيب يستخدم الحبر ليدوّن مخطوطاته. فهل سنقول لذلك أن الحبر هو محلول بليغ جدّا؟



فلتتصوروا بلدا لا يكون للناس فيه أيّ فكرة عن التصوير، بل يكثر فيه من يظن أنه قد امتاز في فن الرسم لأنه يقضي حياته وهو يخلط الألوان ويمزج بعضها ببعض ويوفقها. سيعتبرون رسمنا تماما مثلما نعتبر موسيقى اليونانيين. وعندما نحدّثهم عن التأثير الذي تتركه فينا اللوحات الجميلة وعمّا في تعشّق لوحة مثيرة من الفتنة، فسرعان ما سيتعمّق علماؤهم في المسألة فيقارنون ألوانهم بألواننا، وينظرون فيما إذا كان اللّون الأخضر عندنا أرق ممّا عندهم أو فيما إذا كان اللون الأحمر عندنا أشدّ بريقا. سيبحثون عن تآلفات الألوان التي يمكن أن تبكي وعن تلك التي يمكن أن تغضب؛ كذلك، سيعمل الـ«بواريت» على أن يجمعوا فوق رداء مهترئ خرقا مشوّهة من لوحاتنا ثم يتساءلون في دهشة عن العجب في هذه الألوان.

فإذا ما بدأ الناس في بعض الأمم المجاورة في رسم بعض الخطوط أو بعض الملامح من التصوير، أو بعض الإشكال التي ما تزال غير مكتملة، فإن كل ذلك سيعتبر مجرد خربشة أو مجرّد رسم شاذّ وباروكيّ. ولسوف يتمسك حفاظا على الذّوق السليم بهذا الجمال البسيط الذي قد لا يعبر بحق عن شيء، ولكنه يعرض على الناس تدرّجات لامعة الجمال وألواحا محكمة التلوين وتدرجا لا ينتهي من الأصباغ التي لا ملامح فيها لشيء.

وأخيرا، فلقد يتوصل بمفعول التقدم إلى تجربة المنشور. سيسارع ساعتها بعض مشاهير الرسامين إلى أن يؤسّس على ذلك نسقا رائعا. سيقول لهم، إن التفلسف الحقيقي يقتضي، أيها السادة، أن نرتفع إلى الأسباب الطبيعية. هو ذا تحلّل الضوء. هي ذي كل الألوان الأولية. هي ذي علاقاتها ونسبها. تلك هي مبادىء اللّذة الحقيقية التي يعطيكم إيّاها الرسم. إن كل هذه الكلمات الرهيبة، كلمات «التصوير» و«التمثيل» و«الشكل»، لهي محض تدجيل يتعاطاه الرسامون الفرنسيون، إذ يظنّون أنهم بمحاكاتهم يولّدون ما لست أدري من الحركات في النفس في حين نعرف أنه ليس فيها إلا إحساسات. يقولون لكم أشياء عظيمة عن لوحاتهم، ولكن انظروا إلى ألواني.



ولسوف يواصل قائلا أن الرسامين الفرنسيين ربّما لاحظوا قوس قزح، ولعل الطبيعة قد غرست فيهم بعض الميل إلى التدرج، وقد تكون فطرتهم على مزج الألوان. أما أنا فقد أظهرت لكم المبادئ الكبرى والحقيقية للفنّ؛ فما بالكم بالفن! بل وبكل الفنون كلّ العلوم يا أيّها السادة! ان تحليل ألوان المنشور وحساب انكسارات ضوئه ليمكنانكم من إدراك النسب الحقيقية الوحيدة التي هي موجودة في الطبيعة. كما يمكننانكم من قانون كل النسب. ولكن كل شيء في الكون ما هو غلا نسبة. إذن فالمرء يعرف كل شيء عندما يحذق الرسم ويعرف كل شيء عندما يحذق الملاءمة بين الألوان.

فما عسى أن يكون موقفنا من ذلك الرسام الذي ينساق من نقص شعوره وذوقه إلى مثل هذا التفكير وإلى أن يقصر حمقا ما يجلبه لنا الرسم من لذّة على المظهر الحسّي من فنّه؟ وما عساه يكون موقفنا من ذلك الموسيقيّ الذي يذهب به الظنّ من فرط ما امتلأ بمثيلات هذه الأحكام المسبقة إلى اعتبار تناسب الأنغام وحده مصدر ما تخلّفه فينا الموسيقى من عظائم الآثار؟ لنرمينّ بالأول إلى أخشاب البيوت يزيّنها، ولنحكمنّ على الثاني بأن لا ينجز إلا الأوبيرات الفرنسية.

ولما لم يكن الرسم فن التوفيق بين الألوان بشكل يروق النظر، فان الموسيقى ليست كذلك فن التوفيق بين الأصوات بشكل يروق الأذن. ولو لم يكن ثمة إلا ذلك لما كانتا إلا في عداد العلوم الطبيعية لا في عداد الفنون الجميلة. فالمحاكاة وحدها هي التي ترفعهما إلى هذه المنزلة. ولكن ما الذي يجعل من الرسم فن محاكاة؟ أنه التصوير! وما الذي يجعل من الموسيقى فنّ محاكاة آخر؟ انه النغم.



الفصل الرابع عشر

في التّصاوت

إن جمال الأصوات طبيعي ومفعولها حسّـي صـرف. فهو ينتج عن تضافر مختلف جزئيات الهواء التي يحرّكها الجسم المصوّت وتحرّكها كل المنازل التامّة التي ينقسم إليها إلى ما قد لا ينتهي. ويعطي كل ذلك معا إحساسا طيّبا. فكل من في الكون سيلتذّون بسماع أصوات جميلة ولكنّ لذّتهم لن تكون لذّة كبرى إذا ما كانت لا تحرّكها انعطافات نغميّة معروفة لديهم، وسوف لن تتحول تلك اللذة إلى بهجة حقيقية. فإن الأذن ستجد أعذب الأناشيد عندنا رديئة إذا هي لم تألفها. فتلك لغة لا بدّ أن يكون معجمها بين أيدينا.

أمّا حال التصاوت، فهو في حدّ ذاته أسوأ من ذلك الحال. فهو لكونه لا يحوي من الجمالات إلا الاصطلاحي، لا يطرب الآذان التي لم تألفه. فلا بدّ أن يكون للمرء تعوّد كبير عليه حتّى يحس به ويتذوّقه. فالآذان الخشنة لا تجد في ما لنا من التصاوت إلا دويّا، ذلك أنه ليس من العجب أن ينقطع الالتذاذ الطبيعي عندما تتغيّر النسب الطبيعية.

ويحتوي الصوت (عموما) على كل الأصوات التصاوتية الملازمة له وذلك في نسب من القوة والمسافات لا بدّ أن تكون بينها لكي تعطي أكمل تصاوت لذلك الصوت. فلتضيفوا إليها الفاصلة الثلاثية أو الفاصلة الخماسية أو أي تساوق صوتي آخر؛ فإنكم لا تضيفونها بل تضاعفونها وتبقون



على نسبة المسافة ولكنكم تغيّرون نسبة القوة. وعندما تشدّدون تساوقا صوتيّا دون التساوقات الأخرى فإنكم تكسرون التناسب. تريدون ان تفعلوا خيرا من الطبيعة، فما تفعلون إلا أقبح منها. فآذانكم وذوقكم قد أفسدها فن لا تفهمونه، فليس ثمّة بالطّبع من تصاوت غير التصادي.

ويزعم السيد «رامو» أن الأصوات الحادّة إذا ما كانت على قدر ما من البساطة، فهي توحي بصفة طبيعية بما يقابلها من الأصوات الغليظة، وأن رجلا له أذن مستقيمة وغير متمرسة سينشد بصفة طبيعية هذا الصوت الغليظ. إن هذا لهو حكم مسبق نجده عند الموسيقيين، وتكذّبه كل التجارب. فإن من لم يسمع قطّ لا صوتا غليظا ولا تصاوتا لن يجد من تلقاء نفسه لا هذا التصاوت ولا ذلك الصوت. وليس ذلك فقط، بل سوف لن تعجبه إذا ما أسمعناه غيها وأنه لسوف يفضل التصادي البسيط كثيرا.

وأنّى يمكننا مهما أنفقنا ألف سنة في حساب نسب الأصوات وقوانين التصاوت أن نجعل من هذا الفن فن محاكاة؟ فأين مبدأ هذه المحاكاة المزعومة وما الذي يعبّر عنه التصاوت ثم ما الذي يجمع بين تسويات الأنغام وعواطفنا؟

فلنطرح نفس هذا السؤال عن النغم، إذن سيأتينا الجواب من تلقاء نفسه. فهو في ذهن القرّاء مسبّقا. ان النغم في محاكاته لانعطافات الصوت يعبّر عن الأنّات وعن صيحات الألم أو الفرحة وعن التواعدات وعن التأوّهات. فكل علامات العواطف الصوتية من اختصاصه. فهو يحاكي نبرات اللغات ويحاكي التراكيب التي تتناسب في كل لسان مع حركات معيّنة للنفس. ان النغم لا يحاكي فقط بل يتكلّم. ولغته التي لا مقاطع فيها ولكنّها حيّة حارّة متلهّفة فيها من الطّاقة مائة مرّة أكثر مما في الكلمة نفسها. ها هنا مولد ما للمحاكاة الموسيقية من قوة. ها هنا مولد ما للغناء على القلوب الحساسة من سلطان وقد يمكن أن يكون للتصاوت بعض القسط في ذلك، بما يربطه في بعض الأنساق من تسلسل الأصوات ببعض قوانين الانتقال من نغمة إلى أخرى، وبتقويم النبرات وبإشهاد الأذن وتحسيسها بتلك الاستقامة وبتقريب



رائع الانعطافات وتثبيتها على مسافات متصاوتة ومتصلة. ولكنه بما يضعه من العوائق أمام النغم يجرّده من الطاقة ومن التعبير. فيمحو النبرة المتلهفة ويعوّضها بالمسافة التصاوتيّة ويخضع إلى مقامين اثنين فقط أناشيد قد كان يمكن أن يكـون لنا منها بقدر ما ثمّة من النبرات الخطابية، ويمحو ويطمس أعدادا من الأصوات أو من المسافات التي لا تدخل في نسقه. وباختصار فإنه من فرط ما يفصل بين الغناء، والكلمة يجعل هاتين اللغتين تتصارعان وتتعارضان وتجرد كل منهما الأخرى من كل خصائص الحقيقة. فلا يمكنهما أن تجتمعا في موضع مؤثّر إلا ويكون ذلك أمرا مضحكا. ذلك هو السـبب الذي جعل الجمهـور يعتبر أن التعبير عن العواطف المتينة والجدية بالغناء أمر سـخيف. لأنـه يعرف أن هذه العواطـف لا تجد في لغتنا ما يعبر عنهـا من الانعطافات الموسيقية، وأن رجال الشمال كالتمّ لا يموتون وهو يغنّون.

إن التصـاوت وحـده غير كاف حتّى بالنسـبة للتعابير التـي لا تبدو تابعة إلا لـه. فالرّعد وخرير المياه والرياح والعواصـف لا يمكن أن تؤدّى بمجرد تسويات. ومهما حاولنا فإن الدّوي وحده لا يعني شيئا بالنسبة للذّهن. لا بدّ أن تتكلم الأشـياء لكي نفهمها. لا بـدّ دائما في كل محاكاة أن يعوّض نوع من الكلام صوت الطبيعة. يخطئ الموسيقي الذي يريد أن يؤدّي دويا بدوي. وهو لا يعرف من فنه لا القليل ولا الكثير، بل يحكم عليه بدون ذوق وبدون درايـة. فلتعلّموه أنه يجـب عليه أداء الدويّ بالغناء، وأنـه إذا ما أراد أن يجعل الضفـادع تنقنق فلا بدّ له أن يجعلهـا تغنّي، إذ لا يكفيه أن يحاكي بل لا بدّ له أن يؤثّر في الناس وأن يعجبهم وإلا لم تكن محاكاته الشـاحبة شـيئا ولم تحدث أي أثر لأنّها لم تجلب أيّ اهتمام.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الخامس عشر

في أنّ أحرّ إحساساتنا غالبا ما تؤثّر فينا بواسطة انطباعات أدبيّة

مـا دام الناس لا يقبلون على اعتبـار الأصوات إلا من حيث الاهتزاز الذي تهتز له أعصابنا، فإنهم لن يدركوا المبادئ الحقيقية للموسيقى ولسلطانها على القلوب. فالأصوات داخل النغم لا تؤثر فينا كأصوات فقط ولكن كعلامات لانفعالاتنا ولمشاعرنا. فهي هكذا تثير فينا الحركات التي تعبّر عنها والتي نجد صورتها فيها. واننا لنلاحظ بعض هذا المفعول الأدبي حتى عند الحيوانات. فنباح كلب يجرّ نباح كلب آخر. وإذا سمعني قطّي أحاكي عواء، رايته لحينه منتبها محتارا ومضطربا، فلا يدرك أنني أنا قلّدت صوت نظيره حتى يقعد ويطمئنّ. لم كان هذا الفرق في الانطباع ما دام لم يكن في اهتزاز الحبال الصوتية فرق، وما دام هو نفسه قد اغترّ بذلك منذ البداية؟

إذا لم تكن السلطة القصوى التي لإحساساتنا علينا راجعة لأسباب أدبيّة فلم كنّا إذن حسّاسين بهذا القدر إزاء انطباعات لا معنى لها عند الهمج؟ ولم لم تكن أبلغ قطعنا الموسيقية غير دويّ أجوف في أذن كرايبي؟ هل أعصابه من طبيعة مخالفة لطبيعة أعصابنا؟ لم لا تهتزّ مثلما تهتزّ أعصابنا، ولم كانت هذه الاهتزازات تؤثّر في البعض بهذا القدر في حين يتضاءل تأثيرها في البعض الآخر إلى هذا الحدّ؟



يستدلّ على السـلطة الطبيعية للأصوات ببرء وخزات الرّتيلاء. وهذا المثال يبرهن على العكس تماما، إذ أن الأصوات التي يستوجبها شفاء كلّ أولئك الذين لسعتهم هذه الحشرة ليست أصواتا في المطلق ولا هي عين الألحان. بل لا بدّ لكلّ واحد منهم من بعض الألحان من نغم يعرفه ومن جمل يفهمها. لا بـدّ للإيطالي من ألحان إيطالية وللتركـي من ألحان تركيّة فكل واحد من النـاس لا ينفعل بغير ما يعرف مـن النبرات ولا تهتزّ أعصابه إلا بقدر ما تعدّها روحه لأن تهتزّ. لا بد أن يفهم اللغة التي يكلّمونه بها حتى يسـتطيع الكلام أن يحرك سـواكنه. ويحكى أن غنائيّات **بارنيي** قد شـفين موسيقيّا فرنسيّا من الحمّى. ولكنّهنّ قد كنّ يصبنه بها لو كان من أمّة أخرى.

ويمكن أن نلاحظ هذه الفروق عينها في الحوّاس الأخرى، وحتّى في أقلّها رهافـة. فما أعجب ما يلاحظه المرء من التغيّر في انطباع إنسـان قد جعل يده وبصره على شـيء واحد فإذا به يجده على التوالي حيّا فجامدا. فإن الاستدارة والبيـاض والصلابة وعذوبة الدفء، والمتانة اللّينة والانتفاخ الدّوري، لا تعطيه ملمسا ليّنا بلا طعم، لولا أنه يتقد أنه يلمس قلبا مليئا بالحياة يخفق ويدقّ تحت كلّ ذلك.

وإنـي لا أعلم من بين الحواسّ كلّها إلا حسّـا واحدا لا علاقة له بالخلق أصلا: وهذا الحسّ هو الذّوق. ولذلك لم يكن الشـره رذيلة مهيمنة إلا عند أولئك الذين لا يحسّون شيئا.

فعلـى من يـرد التفلسـف في قـوّة الإحساسـات أن يبدأ بـأن يفصل عن الانطباعات الحسـيّة الصرفة الانطباعات العقليـة الأدبيّة التي ترد علينا بطريق الحـواس التي لا تكون الحواس إلا أسـبابها العارضة. وليتحاش الوقوع في الخطأ المتمثل في أن يسـند للأشـياء الحسّـية سـلطانا ليس لها أو سلطانا قد ورد عليهـا ممّا تمثله لنا من انفعالات النفس. للألوان والأصوات كتمثيلات وعلامـات نفوذ كبير علينا، ولها كمجرد موضوعـات للحس نفوذ ضئيل. فقد تلهيني حينا تسلسـلات من الأصوات أو من التسـويات. أما أن تعجبني أو أن تسـتهويني، فذلك يقتضي أن تعرض علي هذه التسلسلات شيئا ما، لا هو



صوت ولا هو تسوية، بل شيء يؤثّر فيّ رغم أنفي. فحتى الأغاني التي ليس فيها إلا الجمال مملة إذا لم تكن معبّرة عن شيء، إذ ليست الأذن هي التي تحمل البهجة إلى القلب بقدر ما ان القلب هو الذي يحمل البهجة إلى الأذن. واني لأظنّ أننا لو توسعنا أكثر في هذه الأفكار، لتجنّبنا الوقوع في الكثير من البراهين الحمقاء المتعلقة بالموسيقى القديمة. ولأكوننّ واهما إن لم تصبح الفلسفة وبالا على الذّوق السليم وعلى الفضيلة معا في هذا القرن الذي يجتهد فيه الناس في أن يعتبروا كل أفعال الروح ماديّة وفي أن يجرّدوا المشاعر الإنسانيّة من كل خلق.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس عشر

في التّناسب الكاذب بين الألوان والأصوات

لم نغـادر الملاحظات الفيزيائية عند اعتبارهـا للفنون الجميلة أي لون من ألوان العبث. فلقد عثروا في تحليل الصوت على نفس النسـب التي في تحليل الضوء. فتثبّتوا لحينهم في حماس بهذا التناسب من دون مراعاة للتجربة وللعقل. لقد شوّشـت الذهنية النسقية كل الأشـياء، ولما عجز الناس عن أن يخاطبوا الآذان بالرسم، عمدوا إلى مخاطبة العيون بالغناء. لقد رأيت هذا المعزف الذي يتحدثون عنه، والذي ادّعوا أنه بالإمكان أن نسـتخدمه في إخراج الأصوات الموسـيقية بالألوان. إن عدم التفطن إلى أن مفعول الألوان كامن في دوامها وإلى أن مفعول الأصوات كامن في تسلسـلها، ليدلّ على معرفة سـيّئة جدّا بأحوال الطبيعة.

فالزينة بكل ما تزخر به من المظاهر تنتشر دفعة واحدة على سطح الأرض. وان المرء ليلمح كل شيء من الوهلة الأولى. ولكنه يزداد فتنة بقدر ما يطيل النظر. فلا يطلب منه إلا أن يظل مفتونا متأمّلا بلا انقطاع.

وأمّـا الصوت فشـأنه غير ذلك. فإن الطبيعة لا تحلّلـه أبدا ولا تفصل بين قواسـمه: بل تخفيها تحت حجاب التصادي، أو هـي إن فصلتها أحيانا (مثلما قـد يحدث) في تغير نغمات الغناء عند الإنسـان أو في ترانيم بعض العصافير، فبجعلها متعاقبة، واحدة بعد واحدة. إنها توحي بالأغاني ولا توحي بالتسويات وتملي علينـا أنغاما ولا تملي تصاوتـا. فالألوان زينة الكائنـات الجامدة، إذ



كلّ مادّة فهي ملوّنة: ولكنّ الأصوات تشير إلى الحركة. فالصوت يشير إلى كائن حاسّ، والأجسام الحيّة هي وحدها تغنّي. عن عزف الشبابة ليس من عمل عازف آلي، بل هو من عمل عازف قد قدّر نفخ الهواء فيها وحرّك أصابعه (على ثقبها).

وهكذا فلكل حسّ حقله الخاص به. فحقل الموسيقى هو الزمن، وحقل الرسم هو المكان. ولذلك فالزيادة في ما نسمعه في آن واحد من الأصوات أو تعديد الألوان واحدا بعد الآخر، إنما هو تغيير لاقتصادها، وإحلال للعين محلّ الأذن وللأذن محلّ العين.

تقولون: مثلما أن كل لون فهو محدّد بزاوية انكسار الشعاع الذي يعطيه، كذلك فإن كل صوت فهو محدد بعدد اهتزازات الجسم المصوت في وقت معلوم. ولما كانت نسب هذه الزوايا هي غير نسب تلك الأعداد، فإن تناسبها واضح. فليكن! ولكن هذا التناسب من طبيعة عقليّة لا من طبيعة حسّية، وليس الشأن متعلقا بذلك. فأوّلا، إن زاوية الانكسار محسوسة وقابلة للقيس؛ وليس ذلك هو شأن عدد الاهتزازات. فالأجسام المصوّتة تغيّر بلا انقطاع من أبعادها وأصواتها، إذا ما جعلت تحت تأثير الهواء. والألوان فهي تدوم، وأمّا الأصوات فتنطفئ، وليس لنا يقين أبدا بأنّ ما تولّد منها هو عين تلك التي انطفأت. زد على ذلك أن كل لون فهو مطلق مستقل في حين أن كل صوت إنّما هو عندنا نسبيّ ولا يتميز غلا بالمقارنة فليس للصوت في حدّ ذاته أي خاصية تعرّفنا به. فهو قرار أو جواب، غليظ أو رقيق، بالنظر إلى صوت آخر. وأمّا في حدّ ذاته فهو لا شيء من كل ذلك. وكذلك في النّسق التصاوتي، فان الصوت لا يكون بالطبيعة على أيّ وجه. فهو ليس قراريّا وليس غالبا، وهو ليس تصاوتيّا وليس أساسيّا، لأن كل هذه الخصائص ما هي إلا نسب، ولأنه لما كان يمكن للنسق برمّته أن ينتقل من القرار إلى الجواب، فإن كل صوت يغيّر من رتبته ومن مكانه داخل النسق، وذلك كلّما غير النسق من درجته. ولكن خصائص الألوان لا تتمثل البتّة في نسب. فالأصفر بقطع النظر عن الأحمر والأزرق. فهو محسوس ومعروف أينما رايته.



وما إن نضبط زاوية الانكسـار التي تعطيه حتّى نتأكد من أننا سنحصل على نفس الصّفرة في كلّ الأزمان.

ليست الألوان قائمة في الأجسام الملوّنة، ولكنّها قائمة في الضّوء. فرؤيتنا للشـيء تقتضي أن يكون مضاء. كذلك تحتاج الأصوات إلى ما يحملها، وتحتـاج في وجودها إلى اهتزاز الجسـم المصوّت. وهذا امتيـاز آخر للرؤية، لأن الطلـوع الدّائم للكواكب هو الآلـة الطبيعية التي تؤثّر فيها، في حين أن الطبيعة لا تحـدث بمفردها إلا عددا قليلا من الأصوات، ولا بدّ من كائنات حيّة لإحداث التصاوت، اللهم إلا أن نفترض تصاوت الأكر السماويّة.

وإننا لنرى مما سبق أن الرسم أقرب من الطبيعة، وان الموسيقى أشد تعلّقا بالصناعة الإنسـانية. وكذلك فإننا نحسّ بـأن أحدهما أجلب للاهتمام من الآخر، وذلك بالذات لأنه يقرّب الإنسـان من الإنسان أكثر مما يفعله الفنّ الآخـر؛ ولأنـه يمكننا دائما من فكـرة عن نظرائنا فغالبا ما يكون الرّسـم ميّتـا وجامـدا. قد يحملكم إلى أعمـاق صحراء ما. ولكن مـا إن تبلغ إلى مسامعكم علامات صوتيّة ما حتى تستشعروا وجود كائن يشبهكم بالقرب منكم. إن هذه العلامات، إذا ما صحّ التعبير، أعضاء الرّوح. وان هي رسمت لكـم لوحة مـن الوحدة فإنهـا تعلمكم بأنكم لسـتم وحدكـم فيها. إن العصافيـر تغرّد، وأمّا الإنسـان فهو وحده يغنّي. ولا يمكن للمرء أن يسـمع الغنـاء ولا أن ينصت إلى السـمفونيات إلا ليقول لنفسـه في الحين إن كائنا حاسّا آخر هو هناك بالقرب منه.

وانه لامتياز كبير يتمتع به الموسيقي، أن يقدر على تصوير أشياء لا يمكن أن نسـمعها، في حين يتعذّر على الرسـام أن يتصور تلك التي لا يمكن أن نبصرها. وان أكبر آيات فن لا يستمد تأثيره إلا من الحركة أنه يقدر على أن يصنع من تلك الحركة صورة السّـكون. فالنّوم وسـكون الليل والوحدة وحتـى الصمت إنما تدخل كلمها في لوحات الموسـيقى. معلوم أن الدّوي يمكـن أن يحدث مفعـول الصمت وأن الصمت يمكـن أن يحدث مفعول الـدّوي، مثلما يقع عندما يأخذنا النوم على صـوت قراءة هادئة ورتيبة ثم نفيق



على انقطاعها. ولكن تأثير الموسيقى فينا قد يكون أعمق من ذلك عندما تثير فينا بواسطة حسّ ما عواطف تشبه ما نستطيع أن نثيره منها بواسطة حسّ آخر. ولمّا كان لا يمكن أن تكون النسبة محسوسة إلا أن يكون الانطباع قويّا، فلقد تعذّر على الرسم لما كان مجرّدا من هذه القوّة أن يقلّد الموسيقى بمثل ما تقلّده هي. فلتغطّ الطبيعة كلّها في النّوم، لن يرقد الذي يتأمّلها، وفنّ الموسيقى أن يعوّض صورة الشيء الجامدة بصورة الانفعالات التي تثيرها حضرته في قلب من يتأمّل. فما هو بمقتصر على أن يهزّ مياه البحر وأن يذكي نيران حريق، وأن يجري مياه الجداول، وأن ينزل المطر ويستجرف السيول، ولكنه سيصور إلى كل ذلك فظاعة صحراء موحشة، أو يزيد في كآبة جدران سجن داموسي، أو يهدّئ من العاصفة، أو يبثّ في الهواء هدوءا وسكينة، فينشر من الأركسترا نسيما جديدا على البساتين. لن يصوّر هذه الأشياء عينها، ولكنه سيثير في النفس المشاعر التي نحسّ بها عندما نراها.



الفصل السابع عشر

في خطا من أخطاء الموسيقيّين، مضرّ بفنّهم

انظروا كيف يدعونا كل شيء إلى العودة إلى التأثيرات الأدبيّة التي تحدّثت عنها. وانظروا مدى ما يخطئ الموسيقيون الذين لا يعتبرون قوّة الأصوات إلا من حيث تأثير الهواء واهتزاز الأوتار، ومدى بعدهم عن إدراك ما تتمثل فيه قوّة هذا الفن. فبقدر ما يقربونه من الانطباعات الحسّية يبعدونه عن أصله وينقصون من طاقته الأولية. وعندما تغادر الموسيقى النّبرة الخطابيّة ولا تتشبث إلا بالاصطناعات التصاوتية، فإنه يتزايد ما لها من الدّوي في الأذن وتتناقص حلاوتها في القلب. لقد سكتت بعد عن الكلام، وقريبا تسكت عن الغناء، فلا يكون لها إذ ذاك بكل ما لها من التسويات وما لها من التصاوت أيّ تأثير فينا.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن عشر

في أنّه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي أيّ نسبة إلى نسقنا

كيف حدثت هذه التغيّرات؟ لقد حدثت بموجب تغيّر طبيعي في خاصيّة اللغـات. فمعلوم أن تصاوتنا هو اختراع قوطي؛ وان أولئك الذين يزعمون أن نسـق اليونانيين قائم في نسقنا ليسخرون منّا. فلم يكن ثمّة في نسق اليونانيين من التصاوت بالمعنى الذي عندنا إلا ما كان لازما لتسـوية الآلات بحسـب تساوقات صوتيّـة كاملة. فإن كل الشـعوب التي لهـا آلات وترية مضطرّة غلى تسـويتها بواسطة تساوقات صوتيّة. ولكن الشـعوب التي ليس لها هذه الآلات، لها في أغانيها انعطافات صوتيّة لا نعتبرها نحن صحيحة لأنّها لا تلائم نسـقنا ولأننا لا نستطيع ترقيمها. ذلك ما لوحظ في أغاني متوحشي أمريكا، وذلك ما كان يجب ملاحظته في مسافات مختلفة من الموسيقى اليونانيّة لو درست تلك الموسيقى بأقلّ تحيّزا لموسيقانا.

لقد اعتاد اليونانيون قسمة رسومهم البيانيّة إلى رباعيات مثلما نقسّم مدوّناتنا إلـى دواوين. وكانت تلك القسـمات عينها تتجدّد عندهـم بكل دقّة عند كل رباعيّـة، مثلمـا تتجدّد عندنا فـي كل ديوان. ومـا كان ليمكنهم أن يحتفظـوا بها التماثل لـو تعلّق الأمر عندهم بوحدة المقـام التصاوتي، بل وما كان ذلك ليخطر بخيالهم أصلا. ولكن لمّا كانت المسافات التي يمرّ بها المرء إذ يتكلّم أصغر من تلك يمرّ بها إذ يغنّي، فلقد كان طبيعيّا أن ينظروا



فــي تجدّد الرباعيات داخل نغمهم الكلامي، مثلمــا ننظر في تجدّد الدواوين داخل نغمنا التصاوتي.

إن التســاوقات الصوتيــة الوحيدة التي اعترفوا بها هي تلك التي نســمّيها تســاوقات تامّة. فطرحوا من عددها الثلاثيات والسداســيات. لماذا؟ ان تعليل ذلــك هو أنهم لما كانوا يجهلون مســافة البعد الصغيــر أو على الأقل لما كان ذلك محظور الممارســة عندهم، ولما كانت تساوقاتهم الصوتية غير معدّلــة أصــلا، فلقد كانــت كلّ ثلاثياتهم الكبرى زائــدة بفاصلة وكلّ ثلاثياتهــم الصغرى نازلــة بنفس القــدر، وبالتالي فلقد كانت سداســياتهم الكبــرى والصغرى تتغيــر كل واحدة فيما يخصها بنفــس الوجه. فليتخيّل المرء الآن ما يمكنه الحصــول عليه من مفاهيم التصاوت وما يمكنه إقامته مــن المقامات التصاوتية بواســطة اســتبعاد الثلاثيات والسداســيات من عدد التســاوقات الصوتيــة. فلو كانت تلك التســاوقات الصوتية التــي يقبلونها معروفــة عندهم بفعل حسّ تصاوتي حقيقي لجعلوها على الأقل ضمنيّة تحت أغانيهم، ولأعطي التســاوق الصوتي للدرجات الأساســية اســمه لما كانت تلــك الدرجات توحي به مــن الدرجات الابعاديّــة؛ وهكذا كان يكون لليونانيين أكثر مما لنا من التســاوقات الصوتية ولا يكون لهم أبدا اقلّ ممّا لنا. بــل لعلّهم كانوا، إذ يتعرّضون مثلا إلى الدرجة الغليظة ut sol يســمّون الثنائيّة ut ré باسم التساوق الصوتي.

ولكن قد يتساءل البعض عن سبب وجود الدرجات الأبعادية. سنجيب بأن ذلك راجع إلى غريزة تحملنا على أن نختار في لغة ذات نبر وشــادية أيسر ما فيهــا من الانعطافات الصوتية. فبين ما تحتاجه الزردمة من التغايرات الكبرى لتصدح باستمرار بكبرى مسافات التســاوقات الصوتية، وبين صعوبة تعديل الأداء في ما اشــتدّ تعقيده من نسب المسافات الأصغر، عمد العضو (الناطق) إلى وضع وسط ووقع بطبعه على مسافات أصغر من التساوقات الصوتية وابسط مــن الفواصل: وهو ما لم يمنع مســافات أصغر من تلك من أن تســتخدم في ألوان بلاغيّة أكثر عاطفيّة (من الكلام العادي).



الفصل التاسع عشر

في كيف انحطّت الموسيقى

على قدر ما كانت اللغة تستكمل ذاتها، كان النّغم بما يفرض على نفسه من القواعد، يفقد من طاقته القديمة من حيث لا يشعر، وكان حساب المسافات يعوّض رقّة الانعطافات فهكذا مثلا انقرضت ممارسة اللون التجانسي رويدا رويدا. وعندما أصبح للمسارح شكل منتظم، لم يعد الموسيقيون يغنّون فيها إلا على مقامات موصوفة. وعلى قدر ما كانت قواعد المحاكاة تتعدّد، كانت لغة المحاكاة تتضاءل.

ان دراسة الفلسفة، وتقدّم صناعة البرهان بما حسّناه من صناعة النحو، قد جرّدا اللغة من تلك النبرة الحارّة والعاطفيّة التي كانت جعلتها في البداية على قدر من الفتنة. فمنذ عصر «منياليب» و«فيلوكسان»، استقلّ السمفونيون عن الشعراء بعد أن كانوا خدما لهم وبعد أن كانوا لا يشتغلون إلا تحت اشرافهم وتحت إملائهم ان صحّ التعبير. ان انحلال تلك الرابطة هو ما تشتكي منه الموسيقى بكل تلك المرارة في احدى مسرحيّات فيريقراطس، احتفظ لنا منها فلوتاركس بذلك المقطع. وهكذا فعندما لاح أن الموسيقى لم تعد ملتحمة بالقول، بدأ انزواؤها من حيث لا تدري إلى حياة منعزلة، وأضحت الموسيقى أكثر استقلالا عن الكلمات. إذ ذك انقطعت كذلك شيئا فشيئا تلك العجائب التي كانت أعطتها عندما لم تكن غير نبرة الشعر وتناغمه، وعندما كانت تمنح للشعر على العواطف سلطانا لم تعد الكلمة من بعد ذلك تمارسه إلا على العقل. لذلك فما كادت اليونان تمتلئ سفاسطة وفلاسفة حتى



غاب عن الأنظار الشـعراء والموسـيقيون العظام. لقد فقد الناس فن التأثير لانهم اعتنوا بفن الإقناع. ولقد عمد ‹أفلاطون› بنفسه، لفرط غيرته من ‹هوميروس› ومن أوريبيد، إلى ذمّ هذا ولم يقدر على محاكاة ذاك.

وسرعان ما انضاف إلى تأثير الفلسفة تأثير العبوديّة. لقد فقدت اليونان، وهي فـي الأغلال، ذاك القبس الذي لا يبعث الدّفء بغير النفوس الحرّة؛ ولم تعد تجد لمـدح طغاتها تلك النبرة التي كانت تمدح بها أبطالها. وزاد الاخلاط بالـرّوم فـي انهاك ما بقي للغة مـن التناغم ومن النّبر. فلقـد أضرّت اللاتينية بالموسـيقى بتبنّيها لها، وذلك لأنّها لغة أصمّ من اليونانية وأقل موسيقية منها. مـكا عكّر ما كان رائجا في العاصمة من الغنـاء ما بقي منه في الولايات، وأساءت مسارح روما إلى مسارح اثينا. وفي الوقت الذي كان فيه نيرون يغنم الجوائز، انقطعت جدارة أثينا بها. فإذا النّغم عينه، قد قسّم على اللغتين، فأمسى أقلّ ملاءمة لهذه ولتلك.

وأخيرا حدثت الفاجعة التي زلزلت تقدّم الفكر البشـري من غير أن ترفع عنه ما ولّده من الرّذائل: لقد فقدت أوروبا، عندما اجتاحها الهمج واسـتعبدها الجهلـة، فقـدت في الآن نفسـه علومها وفنونهـا وفقدت الآلـة الكلية التي تستخدمها هذه وتلك، وأقصد اللغة المتناغمة والمكتملة. لقد روّض هؤلاء الرّجال الأجلاف الذين أنجبهم الشـمال كل الآذان على خشونة لسانهم. لقد كانت لغتهم الغليظة التي لا نبر فيها داوية من غير أن تكون رنّانة...

ولقـد كان ‹الإمبراطور جوليان› يقـارن كلام الغليين بنقنقة الضفادع. فلقـد كان فـي كل مقاطعهم من الخشـونة بقدر مـا كان في أصواتهم مـن الخنين والصّمم. فما كان بوسـعهم أكثر مـن أن يضفوا على غنائهم ضربا واحدا من الجمال بأن يشدّدوا على المصوّتات مخفين بذلك كثافة الصوامت وخضونتها.

ان هذا الغناء الصّاخب الذي اقترن بعدم مطواعيّة العضو، قد أجبر هؤلاء القادمين الجدد والشعوب التي اسـتولوا عليها فقلّدتهم، على أن يتمهّلوا في



إخراج الأصوات حتّى يسمعوها لغيرهم. ان عسر النّطق وتشديد الأصوات ساهما أيضا في إفراغ النغم من كل الإحساس بالوزن والإيقاع. ولمّا كان أعسر ما في النّطق هو دائما الانتقال من صوت إلى صوت، فلم يكن عند النّاس أحسن من أن يقفوا عند كلّ صوت بأقصى ما يمكن، وأن ينفخوا فيه وأن يفجّروه على قدر طاقتهم. وسرعان ما أصبح الغناء مجرّد تسلسل بطيء ومملّ من الأصوات الفاترة أو الصّارخة التي لا حلاوة فيها ولا وزن ولا لطف. ولئن قال بعض العلماء بضرورة مراعاة المصوتات الممدودة والمصوّتات القصيرة في الغناء اللاّتيني، فإنّه من المؤكّد على الأقلّ أنهم قد غنّوا أبيات الشعر كما لو كانت نثرا وأن الأمر لم يعد متعلّقا عندهم لا بمفاصل البيت الشعري ولا بإيقاعه ولا بأيّ نوع من أنواع الغناء الموزون.

وهكذا آل الأمر بالغناء، بعد أن جرّد من كل نغم، وبعد أن أصبح منحصرا في قوّة الأصوات وفي مدّتها الزمنية إلى أن أوحى بوسائل جعله أكثر رنّة بواسطة التساوقات الصوتية. وصورة ذلك أن جملة من الأصوات ما انفكت ترافق تصادي أصوات غير محدودة المدّة، قد اهتدت صدفة إلى بعض التسويات التي أحدثت من الصخب المتزايد ما بدا فاتنا: هكذا ابتدأت ممارسة المسايرة اللحنية والطباق اللحني.

واني لأجهل عدد القرون التي استغرقها جدال الموسيقيين حول مسائل فارغة إنما حملهم على إثارتها مفعول معروف لمبدأ مجهول. وان أشدّ القراء صبرا لن يصبر على الهذر الذي يتواصل في كتاب جون دي موريس على امتداد ثمانية فصول أو عشرة، لكي يدكر هل أن الخماسيّة هي التي يجب أن تكون قرارا في مسافة الديواهن المقسومة إلى تساوقين صوتيّين، أم هل هي الرباعية. واننا لنجد مرّة أخرى، وبعد أربعمائة سنة تعديدات لا تقلّ اضجارا عن سابقتها ويخصصها بونتامبي لكل الدرجات الغليظة التي لا بدّ أن تحمل السداسيّة عوضا عن الخماسيّة. ولكنّ التصاوت قد سار شيئا فشيئا على الطريق التي رسمها له التحليل إلى أن تمّ للمقام الصغير وللتنافرات الصوتية



أن تقحم فيه التحكم الذي يعجّ به، والذي لا يمنعنا من رؤيته إلا الحكم المسبّق[1].

فلمّا تم نسيان النغم، وتمّ تحوّل انتباه الموسيقي كليا نحو التصاوت، تركّز كل شيء رويدا رويدا على هذا الشيء الجديد. فأصبح للأجناس وللمقامات وللطبقة ولكل شيء وجه جديدة: فلقد قامت التسلسلات التصاوتية بتعديل تردّدات القطع. ولمّا استولت هذه التردّدات على اسم النّغم، لم يكن بالإمكان أن نتجاهل في هذا النغم الجديد ملامح الأمّ التي ولدته. ولما تم لنسقنا الموسيقى أن أصبح هكذا شيئا فشيءا نسقا تصاوتيّا صرفا، فليس منالعجب أن يكون نسق كلامنا قد تضرّر منه، وأن تكون الموسيقى قد فقدت عندنا كل طاقتها.

هكذا أصبح الغناء رويدا رويدا فنّا تامّ الانفصال عن الكلمة التي هو منها. وهكذا أنستنا مصاوتات الصوت انعطافات الصوت، وهكذا أخيرا وجدت الموسيقى نفسها، لما كانت محصورة في المفعول الحسّي الصرف لتعاضد الاهتزازات، محرومة مما خلّفته من الآثار الأدبيّة عندما كانت صوت الطّبيعة مرتين.

1- يؤسّس السيد «رامو»، بارجاعه كل التصاوت إلى هذا المبدأ البسيط الذي هو تصويت الأوتار في المنازل التامّة التي تنقسم إليها، يؤسس المقام الصغير وتنافر الأصوات على تجربته المزعومة التي تبين أن الوتر المصوّت يهزّ عند الحركة أوتارا أخرى أطول منه وذلك إلى حدّ درجته الكبرى الثانية عشرة والسابعة عشرة قرارا. وحسب رأيه فإن هذه الأوتار تهتزّ على كامل طولها ولكنها لا تصوت. هي ذي، فيما يبدو لي، فيزياء فريدة، لكأننا نقول أن الشمس تلمع ولكننا لا نرى شيئا.
ان هذه الأوتار، لما كانت لا ترجع الأصوت الدرجة الأحد، لأنها تنقسم وتهتز وتصوت عند تصاديها، تدغم صوت هذه الدرجة بصوتها هي فتبدو وكأنها لا ترجع أي صوت. ان الخطأ يتمثل في الظن بأننا نرى هذه الأوتار تهتز على كامل طولها، وفي عدم ملاحظة العقد ملاحظة جيّدة، ان وترين مصوتين مكونين لمسافة تصاوتية ما، يمكنهما ان تسمعا صوتهما الأساسي قرارا، حتى إذا ما لم يكن ثمة وتر ثالث. وهذه هي تجربة تارتيني المعروفة والمؤكدة. ولكن الوتر إذا كان بمفرده ليس له من صوت أساسي غير صوته، وهو لا يجعل الأوتار الأخرى تصوت أو تهتز، بل تصاديه ومنازله. ولما لم يكن للصوت من سبب غير اهتزازات الجسم المصوت، ولما كان السبب كلما مارس سببينه بحرية، تلاه، دائما المفعول، فان فصل الاهتزازات عن التصويت هو عبث.



الفصل العشرون

في نسبة اللّغات إلى الحكومات

لم تحصل كلّ مظاهر التقدّم هذه اتّفاقا أو تحكّما. بل هي مرتبطة بتقلب أحوال الأشياء. فاللغات تتكون بالطبع من حاجات البشر، وهي تتبدّل وتتغير بحسب تبدّل الحاجات عينها. ففي الأزمة القديمة، عندما كان الإقناع بمثابة القوّة العامة، كانت الفصاحة ضرورية فما فائدتها اليوم وقد حلّت القوّة العامّة محل الإقناع؟ فليس يحتاج المرء إلى فنّ أو غلى صورة لكي يقول: ذلك ما يرضيني. فأيّ الخطب باقية إذن لتلقى على مسامع الجمهور المتجمّع؟ هل هي المواعظ؟ وما شأن أولئك الذين يلقونها بإقناع الجمهور، ما دام الجمهور ليس هو الذي يعيّن من يتمتّع بالامتيازات:لقد صارت اللغات الشعبية عندنا عديمة الفائدة تماما بقدر عدم فائدة الفصاحة. لقد أدركت المجتمعات شكلها النهائي، فلا يمكن للمرء أن يغيّر فيه شيئا إلا بالمدفع والرّيالات، ولمّا لم يعد لنا ما نقوله للجمهور فيما عدا: «هاتوا المال!» فإننا نقوله بواسطة خزائن نجعلها في زوايا الأنهج، أو بواسطة الجنود في البيوت. فلا يجب أن نجمع أحدا لهذا الغرض. بل لا بدّ على العكس من ذلك أن نفرّق بين الرعايا، فتلك أولى قواعد السياسة الحديثة.

ثمّة لغات تساعد على الحرّية، وهي اللغات الرنّانة والموزونة والمتناغمة التي يمكن أن نميّز ما يقال فيها من بعيدا جدّا. أما لغانا فقد جعلت لطنين الدواوين. إن دعاتنا يعذّبون أنفسهم، ويتصبّب العرق منهم سيولا في المعابد، من غير أن نعرف شيئا ممّا قالوا. وإنهم، بعد أن ينهكوا أنفسهم صراخا لمدة



ساعة كاملة، ليخرجون من الأريكة أنصاف موتى. وأكيد أن الأمر ما كان يستحق كل هذا العناء.

وعند القدماء، فقد كان المرء يبلغ صوته بسهولة إلى الجمهور في الساحة العامّة، وكان يتكلّم يوما كاملا فلا يتحرّج. لقد كان القوّاد يخطبون في جيوشهم فكانوا يسمعون وما كانوا ينهكون أبدا. ولكنّ المؤرّخين المحدثين الذين أرادوا إدراج تلك الخطب في تواريخهم قد استهزىء بهم. فلنتخيّل رجلا يخطب بالفرنسية في جمهور باريس في ساحة فاندوم. فليصرخ ملء شدقيه. سيسمعون أنه يصرخ، ولكنهم لن يتميّزوا كلمة واحدة. لقد كان «هيرودوتس» يقرأ تاريخه على جماهير اليونان المجتمعة في الهواء الطلق، وكان كل شيء يدوّي بالتصفيق.

أما اليوم، فإن الأكاديمي الذي يقرأ رسالة في يوم تجمّع عامّ، لا يكاد يسمع في طرف القاعة. وإذا كان دجّالو الساحات أقلّ في فرنسا منهم في إيطاليا، فليس ذلك لأن الاستماع غليهم في فرنسا أقل ممّا هو في إيطاليا، ولكن ذلك راجع إلى أنه لا يستمع إليهم جيّدا. ويظنّ السيد دالمبار أنه بالإمكان أن نعرض الإلقاء الفرنسي على الطريقة الإيطالية. إذن لا بدّ من عرضه على الأذن، وإلا لم نسمع شيئا.

ولكنّي أقول أن كل لغة لا يمكننا أن نبلغ بها صوتنا إلى الجمهور المتجمّع، هي لغة عبودية. وليس يمكن لأي شعب أن يظل حرّا وأن يتكلم تلك اللغة في نفس الوقت.

سأنهي هذه التأمّلات السطحيّة، التي يمكنها مع ذلك أن تولّد تأمّلات أعمق منها، بذكر المقطع الذي أوحى لي بها:

«لعلّه يكون مادّة نظر فلسفي بعيد أن نلاحظ في الواقع وأن نبيّن بواسطة أمثلة، كيف أن طبع شعب ما وعاداته وهمومه تؤثّر في **لغته**»[1].

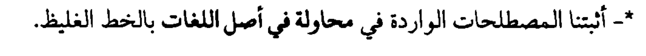
1- ملاحظات حول النحو العام والمعقول، بقلم السيد «دولكو»، ص: 2



ثبت المصطلحات العامّ

عربي - فرنسي*

A	
Académie	مجمع
Accent	**النبرة**
Accord	**التسوية**
Administration	إدارة
Administration de l'Etat	إدارة الدولة
Administration des biens	إدارة الأملاك
Administration des finances	إدارة المالية
Administration publique	إدارة عمومية
Amende	غرامة
Articulation	**التمفصل - التقطيع**
Assemblée	مجلس
Autorité politique	سلطة سياسية
B	
Barbares	متوحشون
Bel esprit	فكر ظريف
Belle action	عمل جليل
Bon goût	ذوق سليم
C	
Cens	جباية
Chant	**الغناء**


*- أثبتنا المصطلحات الواردة في محاولة **في أصل اللغات** بالخط الغليظ.

Clavier	**المفتاح**
Comma	**الفاصلة**
Confédération	تحالف
Conscience	ضمير
Consonnance	**التساوق الصوتي**
Consonne	**الصامت، الحرف الصامت**
Contrepoint	**الطباق اللحني**
Contributions	ضرائب
Corps politique	جسد سياسي
Corrompre	أفسد
Corrompu	فاسد

D

Délibération publique	مداولة عمومية
Denrées	محاصيل زراعية
Diagramme	**الرسم البياني**
Discant	**المسايرة اللحنية**
Dissonnance	**التنافر الصوتي**
Dette	دَين
Domaine public	ملك عمومي - أملاك عمومية

E

Economie	اقتصاد
Economie domestique	اقتصاد منزلي
Economie politique	اقتصاد سياسي
Economie publique	اقتصاد عمومي
Eloquence	فصاحة

F

Famille	أسرة – عائلة
Finances publiques	مالية عامة
Fisc	مالية – خزينة الدولة – بيت المال
Fonds	رصيد (مالي)



Fonds publics	أموال عمومية
Funeste	مشؤوم – نحس
G	
Genre enharmonique	**اللون التجانسي**
Gens de bien	رجال صالحون
Gens de lettres	أصحاب الأقلام
Glotte	**الزردمة - الحنجرة**
Gosier	**الحنجرة**
Gloire	مجد
Gouvernement	حكومة – تدبير
Gouvernement civil	تدبير المدينة
Gouvernement de l'Etat	تدبير الدولة
Gouvernement de la famille	تدبير الأسرة
Gouvernement de la maison	تدبير المنزل
Gouvernement domestique	تدبير منزلي
H	
Harmonie	**التصاوت**
I	
Impôt	ضريبة – جباية
Inflexion	**الانعطاف**
Intervalle	**المسافة**
J	
Jeu de paume	لعبة الراحة
L	
Langue	**اللغة - الكلام - اللسان**
Législateur	مشرّع
Lettres	آداب
Ligue	عُصبة
Lumières	أنوار



Luxe	ترف

M

Magistrat	حاكم
(Premier) Magistrat	صاحب السلطة
Magistrature	حُكم
Marche dialonique	الدرجة الابعادية
Marche fondamentale	الدرجة الأساسية
Mélodie	النغم
Mélodie harmonique	النغم التصاوتي
Mélodie orale	النغم الكلامي
Métaphore	المجاز
Métropole	عاصمة
Mode	المقام
Mode majeur	المقام الكبير
Mode mineur	المقام الصغير
Modification	التغاير
Mœurs	أخلاق – طبائع
Monarchie	مملكة – سلطنة
Muses	ربّات الفنّ

N

Nation	أمّة
Notation	الترقيم

O

Octave	الديوان
Oisif	عاطل
Onomatopée	الحاكية الصوتية
Oracle	كاهن (وسيط روحي)

P

Palais	الحنك
Passions	الأهواء - العواطف



Patrie	وطن
Père de famille	ربّ العائلة
Politesse	أدب – لياقة
Prosodie	**العروض**
Pudeur	حياء

Q

Questeur	مراقب المالية

R

République	جمهورية
Rythme	**الايقاع**

S

Sénat	مجلس الشيوخ
Sénateur	مستشار
Son	**الصوت**
Sonorité	**الرنّة - التصويت**
Souveraineté	سيادة
Spectacle	مشهد
Subsides	إتاوة
Système	**النسق**

T

Taille	ضريبة – جباية
Taille réelle	ضريبة عينية – جباية عينية
Taxe	ضريبة
Taxe par tête	ضريبة على الأفراد
Taxe personnelle	ضريبة شخصية
Taxe réelle	ضريبة عينية
Tétracorde	**الرباعية**
Ton mineur	**البعد الصغير**
Tudesque	جرماني



U

Urbanité	أدب – كياسة

V

Vertu	فضيلة
Vice	رذيلة
Volonté générale	إرادة عامة
Voyelle brève	**التصويت (المصوّت) القصير**
Voyelle longue	**التصويت (المصوّت) الممدود**



الفهرس

توطئة 5

مقال في العلوم والفنون 9

تنبيه 13

توطئة 15

المقال 17

الباب الأوّل 19

الباب الثاني 31

مقال في الاقتصاد السياسي 45

محاولة في أصل اللغات 87

تصدير المترجم 91

محاولة في أصل اللّغات 99

الفصل الأول : في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا 101

الفصل الثاني : في أنّ أوّل اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء 107

الفصل الثالث : لابدّ أنّ اللّغة الأولى قد كانت مجازيّة. 109

الفصل الرابع : في الخصائص المميّزة للّغة الأولى، وفي التغيرات التي لابدّ أنّها مرّت بها 111



الفهرس

الفصل الخامس : في الكتابة.. 113

الفصل السادس : هل من المحتمل أنّ ‹هوميروس› قد كان يعرف الكتابة 119

الفصل السابع : في العروض الحديث.. 121

الفصل الثامن : إختلاف أصل اللّغات عموما ومحليّا. 127

الفصل التاسع : تكوّن اللّغات الجنوبيّة... 129

الفصل العاشر : تكوّن لغات الشّمال... 143

الفصل الحادي عشر : تأملات في هذه الاختلافات 145

الفصل الثاني عشر : أصل الموسيقى ونسبها...................................... 147

الفصل الثالث عشر : في النّغم 151

الفصل الرابع عشر : في التّصاوت 155

الفصل الخامس عشر : في أنّ أحرّ إحساساتنا غالبا ما تؤثّر فينا بواسطة انطباعات أدبيّة 159

الفصل السادس عشر : في التّناسب الكاذب بين الألوان والأصوات...... 163

الفصل السابع عشر : في خطا من أخطاء الموسيقيّين، مضرّ بفنّهم........... 167

الفصل الثامن عشر : في أنّه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي أيّ نسبة إلى نسقنا 169

الفصل التاسع عشر : في كيف انحطّت الموسيقى............................ 171

الفصل العشرون : في نسبة اللّغات إلى الحكومات 175

ثبت المصطلحات العامّ 177

